

مختصر التلويح

إشراف

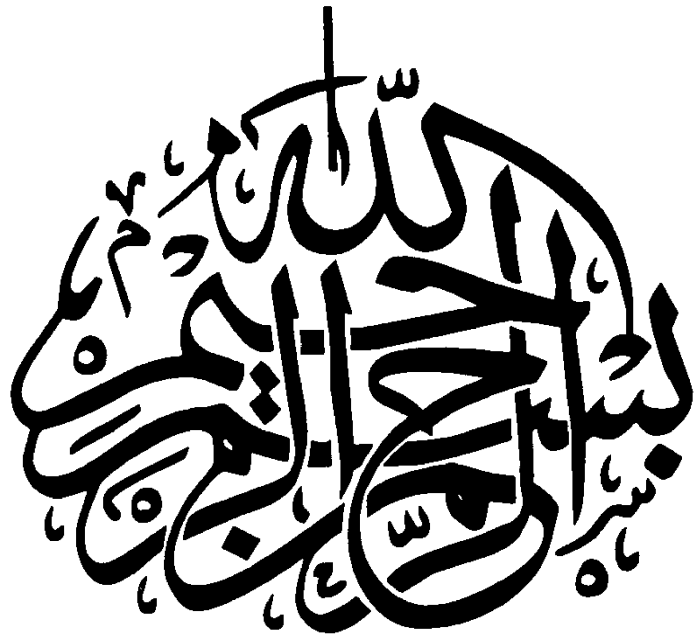
رصفى الشيخ عبد الحميد

لجزء السادس

مكتبات

شركة دار الكتب والوثائق القومية

اهداء صين الخزا عي موقع
الدكتور الشيخ احمد الوائلي قدس سره
www.al-waeli.com



مَحَاضِرُ التَّوَلَّى

رَحْمَةُ اللهِ

إِشْرَافُ

مُطَهَّرُ السَّيِّئَاتِ عَبْدُ الْحَمِيدِ

الجزء السادس



مَكَشُورَاتُ

شَرِكَةُ كِتَابَاتِ الْمُصَنِّفِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ

جميع الحقوق محفوظة

لمشرف التحقيق

رَضَى عَنْهُ السَّيِّدُ عَبْدُ الْمُجِيدِ آلِ مَرْهُونَ

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة - ط ١ -
ص.ب: ٢٤/١٩٧ - برج البراجنة - بعبدا ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٣٣ - السيدة زينب - تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١ ٦٤٧٠١٢٤
إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤ هاتف: ٧٣٨٨٦٥ - فاكس: ٧٣٨٨٥٥
البريد الإلكتروني: e-mail: hidayh@shuf.com

مَوْسَسَةُ أُمِّ الْقُرَى لِلتَّحْقِيقِ وَالنِّسْرِ



فرع قم المقدسة

ت/٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٥٦٤٦

فاكس/٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٠٣٨٠

Info@omalqra.com

مَنْشُورَات



شَرِكَةُ كَرِيمَاتِ الْمُصَنَّفِيْنَ لِإِحْيَاءِ التَّحْقِيقِ

لبنان - بيروت - ص.ب: ٢٤/١٩٧

الزهد في حياة علي عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا
ادّخرت من غنائمها وفرّاً، ولا أعددت
لبالي ثوبي طمراً. بلى كانت في أيدينا
فدك من كلّ ما أظلمته السماء، فشحت
عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس
آخرين، ونعم الحَكَمُ الله. وما أصنع بفدك

وغير فدك والنفس مظانّها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها،
وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها
التراب المتراكم؟»^(١).

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: سيرة الإمام عليه السلام بين الواقع والمستلزمات

امتاز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالوضوح وعدم الازدواجيّة، فنحن أحياناً
نحاول أن نتلمّس ما بين النظرية والتطبيق عنده فلا نجد هناك مسافة
أو فاصلة بينهما، فالنظرية إلى جانب التطبيق ولا شيء يمكن أن يتبدّل عنده

أبداً، ولا يمكن أن يفعل عليه السلام خلاف ما يقوله مطلقاً. وهذا تاريخه بين أيدينا يشهد له بذلك، بل حتى ألد أعدائه لا يستطيع أن ينزعه بهذا المعنى، وما أكثر أعداء علي عليه السلام! وفي الواقع إن أعداءه ملء الدنيا، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يتقوّل عليه بأن تطبيقاته قد خالفت كلامه أو نظريّاته، أو بأن ممارساته قد تخلّفت عن منهجه وكانت على العكس ممّا يقوله. لقد رأينا في تأريخنا من يصعد منبر الوعظ وينهى الناس عن المغالاة بالمهور، لكنه عندما تزوّج امرأة دفع لها أربعين ألفاً. وهنا تجد الهوة واضحة بين النظرية والتطبيق عنده.

وهناك الكثير من هذه الأنماط التي تُكثر من الكلام والجعجعة دون أن تدخل ذلك الكلام حيّز التطبيق. أمّا مع أمير المؤمنين عليه السلام فالأمر مختلف جداً، ذلك أن منهجه واضح غاية الوضوح، وشخصه بيّن غاية البيان. وبالرجوع إلى هذا المقطع من كتابه الذي كتبه لعثمان بن حنيف نجد أنه يعكس جانباً من منهجه عليه السلام في مسيرته، فهو يقول: «فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً». ونلاحظ هنا أن الإمام علياً عليه السلام يريد أن يركّز هذا المعنى في النفوس؛ وهذا هو الذي حمله على أن يصدّر هذه الجملة بالقسم: «فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً».

المبحث الثاني: أسباب انتصار الذات عند علي عليه السلام

ثمّ إن هذا السلوك القويم منه عليه السلام يرجع للأسباب التالية:

السبب الأول: أنه عليه السلام تلميذ القرآن

فالقرآن واضح المنهج وصريحه في أن الثروة الموجودة في أيدي الناس إنما هي عملية توظيف اجتماعي ليس للعبد فيها أي ملكية، والإسلام كما هو معروف لا يعطي الملكية الحقيقية إلاّ لله تعالى أمّا البشر فيعطيهم توظيفاً

اجتماعياً بمعنى أن الإنسان متى ما كان في يده مبلغ من المال فإن له حق الانتفاع به بأي وجه أو طريق مشروع دون أن يمتلك خاصية الاستحواذ عليه وتملكه، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^(١). وهذا هو المقصود بقولنا: التوظيف الاجتماعي للمال، فحينما يمن الله تعالى على عبد من عباده بمبلغ من المال فإنه يجب عليه أن ينفقه كما أراد الله تعالى كأن يصل به رحمه أو لقضاء حاجاته وحاجات أسرته من مأكل وملبس ومشرب ومتطلباته اليومية كافة على أن تكون بالوجه المشروع. إذن فملكية الإنسان ليست ملكية حقيقية وإنما هي ملكية اعتبارية تخويلية أما الملكية الحقيقية فهي لله جل وعلا. ولو أن ملكية العبد كانت حقيقية لما وُظف له الباري تعالى سبل الصرف؛ لأن المالك الحقيقي هو الذي يتصرف بأمواله كيف يشاء.

وخلاصة الكلام أن هناك تخويلاً من قبل الله تعالى للإنسان، وقد نص على ذلك في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾^(٢).

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام باعتباره تلميذاً للقرآن لا يمكنه أن يخالف تعاليمه وما جاء فيه حول مسألة التحويل هذه.

السبب الثاني: أن الادّخار هدر للطاقات

فالإنسان عندما يحاول أن يدخر شيئاً من المال فإنه يقوم بعمل سلبي وهو حبس الطاقة المالية عن التداول، وهذا هو أحد الأسباب التي دعت إلى

تحريم الادّخار بهذه الصورة؛ فإن حبسه كذلك معناه تقليص السيولة المالية وقتل السوق واحتكار لما يتداول به الناس مما ينعكس سلباً بالتالي على القوة الشرائية للعملة وهو بالنتيجة سينعكس سلباً على المجتمع نفسه. أمّا إذا نزلت هذه الأموال إلى السوق فإنها ربما تشغل مجموعة من العمال فتفتح بيتاً أو سوقاً أو ما شاكل ذلك مما ينعكس بشكل إيجابي على المجتمع حيث ستعم الرفاهية وتسود الحياة العامة حالة من التوازن وعدم الحاجة .

فالمقصود إذن بهذا العطاء الإلهي هو أن يصل به رحمه ويقضي به حق مجتمعه ونفسه وإنسانيته، في حين أن الاكتناز يحبس الثروة ويحولها إلى كائن حبيس لا يمكن له أن يؤدي دوره في المجتمع، وربما فاجأ الموت صاحبها فيخلفها بعده ويمكن أن يأكلها التراب، يقول الشريف الرضي رحمه الله :

يا آمن الأيام بادر صرفها	واعلم بأن الطالبين حثّ
خذ من ثرائك ما استطعت فإنما	شركاؤك الأيام والوزّات
لم يقض حق المال إلا معشر	نظروا الزمان يعيثُ فيه فعاثوا ^(١)

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٨. وتماها:

تحثو على عيب الغناء يد الغنى	والفقر عن عيب الفتى بحاث
المال مال المرء ما بلغت به الـ	شهوات أو دفعت به الأحداث
ما كان منه فاضلاً عن قوته	فليعلمن بأنه ميراث
ما لي إلى الدنيا الدنيّة حاجة	فليجنّ ساحر كيدها النقات
طلقتها ألفاً لأحسم داءها	وطلاق من عزم الطلاق ثلاث
وثباتها مرهوبة وعدائتها	مكذوبة وحبائها أنكاث
أم المصائب لا تزال تروعنّا	منها ذكور حوادث وإناث
إني لأعجب للذين تمسكوا	بحبائل الدنيا وهن رثاث
كنزوا الكنوز وأعقلوا شهواتهم	فالأرض تشبع والبطون غراث
أتراهم لم يعلموا أن التقى	أزوادنا وديارنا الأجداث

فالإمام علي عليه السلام يقول لهم: إني لم أكتنز من دنياكم هذه ذهباً ولا فضة، فالبيضاء والصفراء لم تكونا باللتين تستهويانه أو تغرانه، بل كانتا تعرضان عليه صباح مساء وكان يخاطبهما بأنه أكبر منهما. والحق أنه ما قيمة هذين المتاعين الزائلين كي يتحكما بمثل ابن أبي طالب عليه السلام، وهو الذي ملأ الدنيا حرية؟ فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يستعبده ذهب ولا فضة، بل إنه عليه السلام كان يقف وييده منسأته فيحرك بها الذهب والفضة، ثم ينادي القوم فيعطي كل واحد منهم حقه، وكان يكنس بيت المال كل جمعة ويصلي فيه يتّخذ مسجداً رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه من المال عن المسلمين شيئاً^(١).

نعم حينما حضرته الوفاة لم يكن عنده سوى سبعمئة درهم كان قد خصّصها لشراء خادم يساعد أهله في أمور البيت من نقل الماء والحطب وغير ذلك^(٢)، فقد كانت حالته عليه السلام كذلك منذ أن كان في المدينة؛ حيث كانت الزهراء عليها السلام تطحن بيديها حتى مجلتا، وكانت آثار الرحي في بيتها إلى جانب حجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. ولذا فإنه عليه السلام كان يدّخر من عطائه الخاص شيئاً

وفي قوله عليه السلام: «فالأرض تشبع والبطون غراث» تأكيد لما ذكره المحاضر عليه السلام في قوله: وربما فاجأ الموت صاحبها فيخلفها بعده ويمكن أن يأكلها التراب.

(١) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان الكوفي) ٢: ٣٢، كنز العمال ١٣: ١٨٢/٣٦٥٤٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٧٨، ينابيع المودة ١: ٤٥٠، ٢: ٤١١.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر بردّ هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، وقد مرّ ما في هذا الهامش والذي قبله مفصّلين في ج ٢ ص ٢٧٣-٢٧٤ من كتابنا هذا.

ليشتري لعياله أجيراً يساعدهم في البيت . يقول أحد الأدباء :

وعَفَرْتُ خَدَيَّ فِي ثَرَى مَسِّ عَفْرَةٍ لجبريل من جَنَحِيهِ رِيْشُ مُزْعَبٍ
وَفِيهِ مَحَارِبٌ لَّالٍ مُحَمَّدٍ بِهِنَّ ضَرَاعَاتُ إِلَى اللَّهِ تُنْصَبُ
وَأَثَارُ أَقْدَامِ صَفَارٍ وَمَهْجُ إِلَى الْحَسَنِينَ الزَّاكِيِينَ وَمَلْعَبٍ
وَصَوْتُ رَحَى الزُّهْرَاءِ تَطْحَنُ قَوْتَهَا إِلَى جِلْدِ كَبْشٍ حَيْثُ تَجْلِسُ زَيْنَبُ
رُؤْيٌ سَوْفَ يَبْقَى الدَّهْرُ يَرُوي جَلَالَهَا وَتَبْقَى عَلَى رَغَمِ الْبَسَاطَةِ تَأْشِبُ^(١)

وكان ﷺ يتولَّى أموره البيتية بنفسه ويقوم بأعماله بمفرده كأى إنسان عادي^(٢)، فكان ينقل الماء والحطب حتى في أَيَّامِ خلافته، فقد كان يخرج صباحاً يدور في الأسواق ثم يرجع ويبيده شيء من التمر الذي اشتراه من ميثم التماريؓ، فيتلقاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر فيقول: «رَبِّ الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحِمْلِهِ»^(٣)، فيحمله ويعود به إلى بيته.

فهل رأيت مثل هذا الوضوح وهذه البساطة والتلقائية والعفوية في السلوك والتطبيق؟ لقد كانت حياته ﷺ تفيض بالطهر والإيمان وبالعدل والمساواة والنور. ولذا فإنه ﷺ يشدّد على قضية التوزيع العادل للثروة، فيقول: أنا لا أجمع الذهب وليس من شأني ذلك.

وأنا أريد أن أسأل هنا: أين ذلك الذهب الذي كان يكتز في دور الخلفاء وخزائنهم؟ وانظر إلى من طلق الذهب وقد سجد الذهب له على أعتابه بعد

(١) ديوان المحاضر ١ : ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١ : ٢١٤ - أشب.

(٢) حتى أصاب يديه المَجَل. الغارات ١ : ٩٢.

(٣) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

وفاته ، فهاهي القباب تناطح السماء علواً وهي مبنية من الذهب . مع أنني أؤكد على أن غلاف الذهب هذا لا يغير من علي بن أبي طالب عليه السلام شيئاً ولا من جوهره قيد شعره؛ فالسيف الصقيل لا يضيره أن كان غمده خرقه بالية أو قطعة من الحرير الموشى بالذهب؛ لأن المهم هو السيف الصقيل فهو الجوهر وهو الكيان . وهل علي بن أبي طالب غير حسام لا يهمه الثرى؟ إنه وهج يتألق في كل غلاف مهما كان .

إن بعض الناس يتساءل : لماذا كل هذا الذهب على قبر علي عليه السلام؟ ولماذا لا ينفق على المجتمع في وجوه الحاجة إليه؟ إن الذي يصلح جواباً لمثل هذا التساؤل أو السؤال هو أن نقول : لماذا لا نقول : لم كل هذا الذهب على قبر لينين؟ فكل هذا الذهب الذي على قبر علي بن أبي طالب عليه السلام ليس لأنه عليه السلام أراد؛ بل لأن الله تعالى قدره له؛ لأنه عليه السلام كان قد زهد فيه ، وإلا فإن الدنيا كلها لا تعادل عنده جلبة شعير .

المبحث الثالث: مشروعية ادخار الثروة

ثم قال عليه السلام : «ولا أدخرت من غنائمها وفراً» ، لقد كانت الغنائم التي تأتي له من الحرب والقتال كثيرة وفيها من الذهب والفضة ما يمكن أن يغري كل أحد غيره لكنه لم يدخر منها وفراً . ولمن يدخر ، وهو الذي يمتلك كل تلك الثقة بالله؟ إن الذي يدخر إنما هو من لم يكن ذا ثقة به تعالى ، أمّا من يقول : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»^(١) فهو غير مستعد؛ لأن يدخر بضعة دراهم أو دنائير ليتقي بها عادية الزمن أو ليواجه بها تغير الظروف؛ لأنه عليه السلام كل يوم

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٦٦ / ١ .

يواجه عطاء الله تعالى ويواجه رحمته والانقطاع إليه، فهذه الأمور أكبر من الادّخار.

وهذا لا يعني أن الادّخار أمر غير محبّب شرعاً أو أنه حرام، بل على العكس من ذلك إذ أن عندنا روايات تقول: «النفوس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت»^(١). فالمسألة ليست مسألة حلال أو حرام وإنما هي مسألة سموّ روعي ورقي بالأخلاق والصفات، وإلا فإن الادّخار لا يقدر بإيمان الرجل لكن النفوس الكبيرة المؤمنة التي هي أكبر من هذا الهلع المتهالك على الدنيا هي التي لا تدخر لأنها لا تعدّ في الدنيا شيئاً مهماً. فقلوه: «فوالله ما كنت من دنياكم تبرأ، ولا أدخرت من غنائمها وفراً» كان موضع تطبيق في كل مناسبة، إذ كان ﷺ كلما جاءت غنيمة وزعها على المسلمين وعاد إلى بيته خالي الوفاض وقد نفّض جميع ما في يديه من أموال ضخمة من الغنائم، فبيّت طاوياً على حجر يشده على بطنه.

ثم قال ﷺ: «ولا أعددت لبالي ثوبَي طمراً»، الطمر هو الثوب المساعد أو المناوب لثوب الإنسان الذي يرتديه، والذي يبدل به إن اتسخ أو حدث به أمر. فإذا تمزق اشترى ثوباً آخر، وغالباً يكون الثوب الذي يأخذه معروفاً، وقد روي أنه ﷺ أتى سوق الكرايس، فوقف على غلام، فقال: «يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». قال: نعم، عندي ثوبان. فأخذ الثوبين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: «يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم».

(١) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩/٣، والعلل (ابن حنبل) ٣: ٤٠٢/٥٧٧٤، وغيرهما لسلمان المحمّدي رحمه الله.

فلما لبس القميص مدّ يده في ردفه فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال: «اقطع هذا الفضل». فقطعه، فقال الغلام: هلمّ أكفه. قال: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك»^(١). وهذا يعكس الوضوح الذي كان سائداً في منهج الإمام عليه السلام والذي كان غالباً عليه، وكذلك الشفافية في سيرته.

المبحث الرابع: حول قضية فذك

ثم قال عليه السلام: «بلى كانت في أيدينا فذك من كلّ ما أظلمت السماء، فشخت عليها نفوس قوم»، فما هي فذك؟ هنالك قسم من الأنفال مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢)، وهناك قسم يؤخذ بالحرب كأن يعدّ المسلمون جيشاً ويقاتلوا به عدوّ الله تعالى ثم يحصلوا بقتالهم هذا على غنائم العدو. ومسألة فذك تعتبر من القسم الأول وهو مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب. فلو أن العدو جاء إلى الرسول ﷺ وصالحه على ألا يقاتلهم فيبقوا في أماكنهم، وهم - مقابل ذلك - يتنازلون للرسول ﷺ عن مبلغ من المال أو عن أرض، فهذا يسمى أنفالاً. وكما قلنا فإن فذكاً من هذا النوع، ومثل هذه الأموال تكون ملكيتها مختصة بالنبي ﷺ، وهذا ما نصّ عليه فقه المسلمين جميعاً فقد هبط جبرائيل عليه السلام على النبي الأكرم ﷺ بهذه الآية: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ﴾^(٣). فاستفسر النبي ﷺ من جبرئيل عليه السلام: «من هم ذوو القربى؟». فأجابه جبرئيل قائلاً: «إن الله يأمرك أن تعطي فذكاً بلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أمها في سبيل الإسلام».

(٢) الأنفال: ١.

(١) روضة الواعظين: ١٠٧.

(٣) الإسراء: ٢٦.

والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرخون أنه ما من بيت من بيوت مكة إلا كان يضارب بأموال خديجة^(١)؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقَت هذه الأموال كلها إلى بيت النبي ﷺ، وانتهى الأمر بها أن نامت مع النبي ﷺ على جلد كبش.

فاستدعى النبي ﷺ فاطمة^(٢) وأنحلها فداً. وقد جرت هذه المسألة في بيت أم أيمن بحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين^(٣).

لكن الذي حدث أنه بمجرد أن توفي النبي ﷺ، وبعد أن اعتلى من بعده الخليفة أبو بكر سدة الحكم، جاء أناس إلى فلاحى فاطمة^(٤) وأخرجوهم من فدك، فأثار هذا التصرف سيدتنا فاطمة الزهراء^(٥)، فجاءت إلى أبي بكر تسأله عن وجه إخراج هؤلاء الفلاحين من أرضها، فأجابها الخليفة بقوله: لقد سمعت أباك ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»^(٦). وهذه طعمة أطعمها الله تعالى لنبيه، وباعتباري وليّ الأمر بعد أهلك ﷺ، فإني أتصرف بها كيف أريد، وأنا الآن أريد أن أنفقها في مصالح المسلمين. فأخبرته أن هذه الأرض لها، فقال لها: ما بلغني أنها ملك لك. فقالت: «لقد أنحلنيها أبي». فقال لها: لا أقبل الدعوى إلا بالشهود. فذكرت له أن يدها^(٧) كانت على فدك ست سنوات تتصرف به، وكانت تأخذ وارده وتبيعه وتتصدق ببعضه، وكان

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ - ٤٤٤ / ٤٦٧ - ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(٢) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨. وقد مرّ هذا المبحث مفصلاً في ج ٢ ص ١٧٧ - ١٩٢ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، ٦: ١٤٥، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها.

النبي ﷺ يراها تفعل ذلك، وقد أقرّها والمسلمون كذلك. فأجابها بأن التصرف أعمّ من الملكية، وربما كان رسول الله ﷺ قد ملكها إياه بصورة مؤقتة لتأكل من وادها.

فأجابته بأنها لو كان خاضعاً للملكية العامة لكان ﷺ قد انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملكها المنفعة فقط لا الأصل. لكن ليس الأمر كذلك، فهو ﷺ أعطاه إياه بحضور الشهود على أنه نحلة لها. ثم إن تصرفها فيه معناه أن يدها كانت عليه، واليد ناقل شرعي فالملكيات العامة تقرّ الآن بدليل اليد، فلو أن شخصاً سكن في بيت أو عاش فيه زماناً فإن يده على البيت هنا وتصرفه فيه يدلّان على أن البيت ظاهراً له، وهذا التصرف حجة على ملكيته له ما لم يثبت العكس؛ ذلك أن اليد أماراة على الملكية.

فلما طالبها أبو بكر بالشهود جاءته عليه السلام بمن حضر الواقعة ليشهدوا لها، وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام وأم أيمن (رضي الله تعالى عنها) (١).

والذي يحزّ في النفس هنا أن المقاييس لا تتخذ منهجاً واحداً واضحاً؛ وإلاّ فإنه هل يمكن أن تكون الزهراء عليه السلام كاذبة؟ مع أن هؤلاء يعاملون بدويّاً لا يعقل أي طرفيه أطول معاملة تقديس لمجرد أنه صحب النبي ﷺ بضعة أيّام (٢)، وأصبح الحال أن من يتعرّض له يصبح كافراً، أمّا الزهراء عليه السلام ابنة

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

(٢) وقد مرّ أنه حينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأم المؤمنين عائشة وحفصة أيّام بؤادر الثورة؛ حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبي ﷺ. قال: ستعلم فاطمة اليوم أني ابن عم لها. ثم قال: والنبي ﷺ يورث؟ إذا كان يورث فلم تُمنع الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورث فأني حقّ تطالبان به؟ أولست أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي

المجد والرسالة، الطاهرة التي رضعت من ثدي الإيمان وسمعت الوحي الذي امتدحها بقوله مخاطباً الرسول ﷺ: «حسبك من نساء العالمين أربع... وفاطمة سيّدة نساء العالمين»، والتي يقول فيها الرسول الأكرم ﷺ: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»^(١)، و: «روحي التي بين جنبي»^(٢)، والتي لقبها ﷺ بـ «أم أبيها»^(٣) إلى آخره ممّا ورد فيها وفي فضلها من عشرات الروايات، فإنها تكذب وتطالب بالشهود. ألا ينهض كلّ هذا دليلاً على صدقها؟ ليت تلك الفترة لم تكن؛ فقد تركت صدعاً كبيراً في تاريخنا. ومثل هذه التفسيرات إنما تكون في شيء فيما إذا لم يكن واضحاً، أمّا إذا كان واضحاً غاية الوضوح، فهو يبعث على القلق. وإلا فإنه لا يوجد مؤمن بالله ورسوله يرمي الزهراء عليها السلام بالكذب، أو أنها لا تقول الحق.

غير أن الخليفة أجابها بأن الحسن والحسين عليهما السلام ما زالا طفلين، والطفل لا تقبل منه شهادة. وهذا خلاف ما فعل النبي ﷺ؛ لأنه قبل منهما البيعة. وأما أم أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول^(٤). وأما الإمام علي عليه السلام فلم تقبل شهادته أيضاً؛ لأن له مصلحة كما ادّعوا.

يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأبي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي ﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلّ وقد أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ - ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥. أي أن أعرابياً يتطهّر ببوله تقبل شهادته وشهادة من هو مثل علي والحسين وأم أيمن لا تقبل! وهذا بشهادة الخليفة عثمان بن عفان.

(١) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.

(٣) مقاتل الطالبين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أسد الغابة ٥: ٥٢٥.

(٤) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

فرجعت الزهراء عليه السلام غضبي بعد تكذيبها في دعوى النحلة واليد.
وهكذا تكون الزهراء عليه السلام قد أكدت على مسألة الإرث أي تأكيد؛ ولذا
فإنها قالت: «وأنتم الآن تزعمون ألا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفخصكم الله
بآية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا
وأبي من ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن
عمي؟».

وعقبت بكلامها هذا على قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾^(١). وقال
فيما اقتصر من خبر يحيى بن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾^(٢)، وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾^(٣)،
وأنتم الآن تزعمون ألا إرث لي ولا حظوة من أبي؟^(٤). وكل هذه أدلة قائمة
على صحة دعواها عليه السلام، لكن الذي حصل أنه قد فُسر الميراث في هذه الآيات
بالعلم والحكمة والنبوة، ودعوى الميراث حُدّت بـ«نحن معاشر الأنبياء
لا نورث».

ولو قدر أن علياً عليه السلام لا يجوز له أن يشهد؛ لأنه صاحب مصلحة فهنا نقول:
إن من يدعي عدم الميراث ألا يحق لنا أن نقول له: أنت صاحب مصلحة في
الموضوع؛ لأنك مدع، والمدعي يجب أن يقيم البينة. والزهراء عليه السلام هي مالكة
وقد تصرفت بملكها أيام أبيها عليه السلام وليست هي مدعية؛ وعليه فلا يجب عليها
أن تأتي بشهود بل من يجب عليه أن يأتي بهم هو المدعي عدم الملكية، وإلا

(٢) مريم: ٥ - ٦.

(١) النمل: ١٦.

(٣) الأحزاب: ٦.

(٤) الاحتجاج ١: ١٣٨، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٧، وستأتي الإشارة إلى مصدرها كاملةً.

فإن اليد حجة عند الفقهاء^(١).

وعلى هذا فإن من يأتي لشخص ويقول له: هذا الكتاب الذي بحوزتك ليس ملكك فإن من حق من بيده الكتاب أن يطالب المدعي بالبينة.

تخصيص القرآن بخبر الواحد

ثم إن هناك نقطة هامة أود أن أشير إليها وهي أن مسألة تخصيص القرآن بخبر الواحد يعد أمراً غير مقبول على إطلاقه سيما عند أهل السنة الذين لا يختصون القرآن إلا في موردنا هذا كما سنبينه. فعندما يقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٢)، ثم تأتي رواية فتقول: إن عقد الربا لا يجوز الوفاء به، فمعنى هذا أن هذه الرواية قد خصت عموم الآية أي أن المراد ليس كل العقود بل بعضها وهي العقود الشرعية، والربا عقد غير شرعي فلذا لا يجوز الوفاء به هذا عندنا. أمّا عند المذاهب الإسلامية الأخرى فإنهم لا يجوزون تخصيص القرآن بخبر الواحد^(٣) إلا في هذه القضية كما أسلفنا، والحال أن القرآن فيه عموم كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى﴾^(٤). فهذه حالة عامة تشمل النبي وغيره أمّا أن يخص هذا العموم بحديث لم يثبت وهو ما ينسب إلى الرسول الأكرم ﷺ من قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، أي أنهم خارجون من العموم، فهذا يعد تهافتاً؛ لأننا نسأل في هذا المقام فنقول: إذا كنتم تعتمدون قاعدة هي عدم جواز

(١) انظر القواعد الفقهية ١: ١٣١. (٢) المائدة: ١.

(٣) انظر: الإيهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ - ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ - ٤٦٠، البحر

المحيط ٣: ٣٦٥. (٤) النساء: ١٠.

تخصيص القرآن بخبر الواحد، ولا تجيزون ذلك^(١)، فلماذا إذن أجزتموه هنا وخصصتموه بهذه الرواية؟

على أية حال فإن الإمام عليه السلام يذكر هذه الواقعة حيث يقول: «بلى كانت في أيدينا فذك من كل ما أظلمت السماء، فشحت عليها نفوس قوم»، فانظر إلى هذا التعبير، يقول الشاعر:

بضعة من محمد خالفت ما	قال حاشا مولانا حاشاها
سمعته يقول ذاك وجاءت	تطلب الإرث ضلة وسفاها
هي كانت لله أتقى وكانت	أفضل الناس عفة ونزاها
ولكان الجميل أن يقطعها	فدكا ما الجميل أن يقطعها
كان إكرام خاتم الرسل لها	دي البشير النذير لو أكرماها ^(٢)

ولو فرضنا أنه ليس هناك ميراث، لكن هذه ابنة الصادق الأمين عليه السلام .. ابنة الذي حوّل الجزيرة العربية إلى جنة^(٣) .. بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وحد العرب بعد تفرّقهم وأعزّهم بعد ذلّهم، وأغناهم بعد فقرهم، والمرء يحفظ في ولده، وهو عليه السلام لم يترك إلا هذه البنت، فألا ينبغي أن تكرم؟

على أية حال فلترك دعوى الميراث ودعوى المحنة ولنأت إلى دعوى سهم ذوي القربى، فقد جاءت الزهراء عليها السلام في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربى مستشهدة بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

(١) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ - ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ - ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

(٢) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

(٣) قالت الزهراء عليها السلام: «وكنتم... تفتاتون القِدّ وتشربون الطُّرُق» (الماء تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ - طرق). فأنقذك الله بأبي محمد عليه السلام منها». شرح الأخبار ٣: ٣٥.

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ^(١)، فقالت عليه السلام: «إن اليتامي يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى كله يعود لنا، فأعطنا حقنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم» ^(٢).

فقال: إن مبلغ علمي أن النبي ﷺ لم يكن يعطيكم هذا كله، وإنما كان يسد حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أطعمناه، ومن كان يحتاج اللباس كسونه، ومن أراد التزويج زوجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسّت الزهراء أن المراد بكل ذلك أن يغلق الباب بوجهها. فرجعت الزهراء وهي غضبي من القوم بعد أن أحسّت أن الباب أغلق في وجهها.

ثم إن الزهراء لما اشتدت بها العلة قصدتها الخليفتان الأولى والثاني، فدخلتا عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين عليه السلام وألحّ عليها، فقالت: «ليدخل». فلما دخلا حولت وجهها إلى الحائط، فاستدار الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثم قالت: «والله لا أكلّمكما حتى تصدّقاني إن صدقت». قالوا: بلى. قالت: «الله عليكم، هل سمعتما قول أبي في: فاطمة بضعة مني من أذاها فقد أذاني؟». قالوا: بلى. قالت: «اللهم اشهد عليهما أنهما أذيان». ثم حولت وجهها مرة أخرى، فجزع أبو بكر جزعاً شديداً، فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم، ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجه ^(٣)، والانفعال

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣: ٣٤ - ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ - ٢٣٥.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ - وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥.

باديان على وجهها الشريف .

ولحقت عليه بأبيها وهي ولهى ، وقد ملئت ألماً ووجداً ، وفي لحظاتها الأخيرة كانت توصي أمير المؤمنين عليه بوصايا عدة؛ منها ألا يحضر جنازتها أحد ، حيث إنها عليه قالت له : «في صدري وصايا تختلج ، وأريد أن أوصيك بها» . قال عليه : «بلى ، عزّ والله عليّ فراقك يا بنت رسول الله» . قالت : «يا أبا الحسن ، إن أنا قضيت نحبي فغسلني بشيبي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهرة . يا علي ، لا بدّ للرجال من النساء ، فإن أردت أن تتزوج بعدي فعليك بابنة أختي أمانة فإنها تكون لولدي مثلي ، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة ، ولا تصح في وجهيهما ، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين ؛ بالأمس فقدما جدهما واليوم يفقدان أمهما» . إلى آخر وصيتها (سلام الله عليها) . ثم قالت : «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»^(١) .

فكان أمير المؤمنين عليه إلى جانبها إلى أن فاضت روحها الطاهرة . فسجّاه وأسبل عليها الإزار والتفت إلى أبي ذر قائلاً : «يا أبا ذر ، أعني على حملها»^(٢) .

وهذا طلب غريب ، فالذي يظهر أن النكبة قد أخذت أثرها منه عليه ، فالذي اقتلع باب خبير بيد واحدة يعجز الآن عن نقل فاطمة عليه وهي برعم صغير في عمر الورود؟ لقد ماتت عليه وعمرها ثماني عشرة سنة ولا يستطيع حملها؟ نعم ، ذلك أن المصاب قد هدّه ، فلم يمكنه أن يتحرّك . ثم أقبل ورفع طرف

صحيح مسلم ٧ : ١٤١ ، وغيرها كثير .

(١) معاني الأخبار : ٣٥٦ / ١ ، السقيفة وفدك : ١٤٧ ، شرح الأخبار ٢ : ١٦٠ / ٤٩٢ .

(٢) انظر : معاني الأخبار : ٣٥٦ / ١ ، السقيفة وفدك : ١٤٧ ، شرح الأخبار ٢ : ١٦٠ / ٩٢ ، بحار الأنوار ٤٣ : ١٥٩ .

الفراش ووضعها على المغتسل، فلما أتم غسلها صاح: «يا حسن يا حسين يا زينب يا أم كلثوم يا أسماء، هلموا لتودعوا فاطمة؛ فإن هذا الفراق، ولا لقاء قبل يوم القيامة».

ثم أمر بنقل الجنازة، فأخرجها المشيِّعون وهم ثمانية: سلمان وأبو ذر وعمار والمقداد والعباس والفضل ابنه والحسن والحسين عليه السلام، وحمل أمير المؤمنين عليه السلام طرفاً من الفراش، وحمل أبو ذر الطرف الآخر، واستقبل أمير المؤمنين عليه السلام قبر النبي ﷺ فقال: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة بجوارك والمختار لها الله سرعة اللحاق بك»^(١). ثم أخر إخراج الجنازة إلى ما بعد منتصف الليل، فأخرجها مع المشيِّعين فوضعها على حافة القبر:

شيعها الكبرها بليل حنى عليها وبجه بهداي

يكلها يا وليف الروح عكج من يظل ويأي

جنتي صحوه ايامي وعكج غيَمت دنياي

وشريح الروح لو سافر ما ندري الوجه لا وين

وبعد أن أوصلها إلى القبر التفت إلى المشيِّعين وقال لهم: «ارجعوا لا حاجة لي ببقائكم». ثم التفت إلى أبي ذر وقال: «خذ بيد الحسنين إلى البيت». ثم جلس هو على شفير القبر يخط الأرض بأنامله:

ما لي وقفت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي

أحبيب مالك لا ترد جوابنا أنسيت بعدي خلّة الأحباب^(٢)



(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٢.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

نهضة الإمام الحسين عليه السلام

أيا كربلا يا هدير الجراح

وزهو الدم العلوي الأبني

وياصرح مجد بناء الحسين

وأبدع في رصفه المعجب

ويا عبقاً في ثرى العلقمي يشدُّ الأنوفَ إلى الأطيب

سابقى الحسين شعاراً على أصيك والشفق المذهب^(١)

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول : ملامح الخليفة الشرعي

من أبرز ملامح النهضة الحسينية (على صاحبها أتم الصلاة وأشرف السلام والتحية) أن الأقلام كلما عاودتها وجدت فيها عطاءً ثراً ومنبعاً جديداً، وهذا خلاف ما عليه الكثير من الموضوعات التي تتطرق إليها تلك الأقلام. ومعلوم أن كل كاتب عندما يلج موضوعاً ويكتب عنه، أو يتطرق إلى مضامينه فإنه يستنفذ فيه أغراضه كلها من أول وهلة، فلو حاول أن يكتب فيه ثانية أو ثالثة فإنه سيأخذ باجترار المادة السابقة نفسها؛ لأنه ليس هنالك من مادة جديدة يستطيع أن ينهل منها. لكن واقعة الطف في حقيقتها عطاءً ثراً؛ ما إن تعاودها

الأقلام حتى تجد فيها ذلك ينبوع المتدفق المليء بالعطاء .
والسرّ في ذلك أن مضمون هذه النهضة المباركة لا يتعدّى تجسيد الأهداف
الإسلاميّة، أي أنها ترمي إلى تجسيد هذه الأهداف ولا تتعداها إلى غيرها .
والذي يهمني في هذا البحث هو إثبات هذه الحقيقة دون أن أعير التعليقات
التي حاول بعض المؤرّخين أن يسم بها ثورة أبيّ الضيم أبي الشهداء عليه السلام ،
والتي ستمرّ علينا في بحوثنا القادمة إن شاء الله تعالى .

وبعض هذه التعليقات هي اجتهادات فردية تتعلق بهذه العشيرة أو تلك ،
وبعضها يتعلّق بجوانب أخرى . والتعليل الأساس الصحيح البعيد عن
التعليقات الشخصية القائمة على أساس دوافع بعيدة كلّ البعد عن مبادئ
الإسلام - وهذا التعليل هو التعليل الوحيد الذي يرتبط بالواقع والذي يعدّ
التفسير الحقيقي لقيام هذه الحركة المباركة - هو التعليل الذي يوضح ويبيّن
حقيقة أن نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي نهضة تستهدف تجسيد الإسلام
وأحكامه .

المبحث الثاني: أسباب قيام الحسين عليه السلام بنهضته

وقد يسأل سائل فيقول: وهل تعرّضت أهداف الإسلام إلى شيء من
التضييع، أو تعرّض لها بعض ليؤدّي بها إلى الانحراف حتى يحاول
الحسين عليه السلام أن يصحّحها بثورته ونهضته؟

والجواب: أن هذا الأمر سيّضح لنا من خلال هذه اللّمحات التي سأعرض
لها إن شاء الله تعالى؛ كي أوضح هذا المشكل الذي التبس أمره على هذا
المتسائل . إن الإسلام تعرّض إلى الكثير من محاولات الطمس والتضييع وإلى
سحق أهدافه، وهذا هو الذي اضطر الإمام الحسين عليه السلام إلى النهوض بثورته
المباركة .

اللمحة الأولى: المخالفة الصريحة للشريعة

يقول النبي ﷺ عن الله عز وجل: «إن الله يقول: ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفّه أجره»^(١). فهذه الأمور الثلاثة تبدو أنها أهداف رئيسة في الإسلام، بحيث إن الله تعالى يتبرأ ممن خالفه فيها. وهذا أمر مهم جداً؛ لأنه يعبر عن إرادة الله جل وعلا في هذه المسألة. وسنستعرض هذه الأهداف لنرى فيما إذا كانت قد تعرضت للضياع أو لا.

أولاً: قوله ﷺ: «رجل أعطي بي فغدر»

ومعنى هذا أن بعض الناس يتلبس بعنوان من العناوين الدينية ثم يسخر هذا العنوان الذي تلبس به لأغراضه، مع أن من يتلبس بلباس الدين يجب عليه أن يكون صادقاً وفاقاً طاهراً فيكرم هذا العنوان ويحترمه. لكن الذي يلاحظ أن البعض ممن تلبس بهذا قد خالف سيرة الأنبياء والرسل ﷺ، واعتدى على أهداف الدين وجعل الدين وسيلة لإذلال غيره وخدمة الظالمين بدل أن يأخذه وسيلة لخلاف هذا. فتعامله هنا تعامل قذر وغير نظيف حيال الدين.

معنى الخلافة

والمفروض أن الإنسان خليفة الله تعالى في أرضه، وهذا يعني أن الخلافة امتداد للنبوّة؛ لأن من يتربع على كرسي الخلافة فهو إنما يخلف النبي ﷺ في

(١) عوالي اللآلي ٣: ٢٥٣ / ٣، مسند أحمد ٢: ٣٥٨، صحيح البخاري ٣: ٤١.

تطبيق أحكام الله تعالى ، ويجسد المضامين عينها التي جسدها الرسول ﷺ وأمر باتباعها .

والخلافة عندنا أمر مقيد بمعنى أن الخليفة ليس له الحق في أن يشرع ، بل إن مهمته هي أن يأخذ آيات الكتاب الحكيم أو السنة النبوية المطهرة ثم يستنبط منها الحكم الشرعي المناسب لكل موضوع وحادثة . وهذا يعني أنه لا يمكنه التدخل في البنية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي؛ لأن أمر تحديداتها والتصرف فيها منوط بالقرآن؛ فهو الذي يبين لنا حدودها وضوابطها .

فكل ما عند الخليفة وما له هو أن يطبق هذا المفهوم الإسلامي سواء كان على صعيد المجتمع أو على صعيد نظام الأسرة، فلو جاء خليفة مثلاً وقال: أريد أن أبيع للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء فإنه يكون قد خرق الحكم الشرعي ، ويجب حينئذٍ أن يخالفه المسلمون في ذلك مادام القرآن قد حرم ذلك وحدد العدد بأربع . وبالنتيجة أنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يشرع قبالة هذا النص وأن يغيّر العدد؛ لأن هذا الوضع هو خلاف الدستور الإسلامي .

فالخليفة إذن هو مطبق للأحكام التي جاء بها النبي ﷺ ، وعليه فلا يجوز له أن يخالف ما جاء به النبي ﷺ؛ لأنه خليفته في هذا الأمر . ولناخذ يزيد بن معاوية كأنموذج فنرى مدى التزامه بما قررنا آنفاً، إن الكثير من المؤرخين كانوا ومازالوا يعطون يزيد هذا مفهوم الخلافة الإسلامية، بل يعطونه أكثر من هذا بأن يرتبوا له حكماً مفاده أن الخارج عليه خارج على الله تعالى وعاصٍ له؛ لأن يزيد يمثل منصباً دينياً . والمفروض أن هذا المنصب يستمدّ شرعيّته من النصوص الدينيّة، فلا يزيغ عنها صاحبه يميناً أو

شمالاً، فيطبّق الدين وأحكامه كما كان الرسول ﷺ يطبّقها.
فإذا أخذ من يدّعي له أنه الخليفة الشرعي حقّ غيره، وكان أخذه له بالله
فقد غدر وأصبح مصداقاً للحديث الشريف.

وهذا الرجل حينما وصلت إليه الخلافة وعُبر عنه بأنه خليفة رسول
الله ﷺ خالف كل ما جاء عن الله تعالى، ونحن إذ نقول هذا لا ننطلق فيه
من منطلق عدائنا للأمويين أبداً، بل إنما ننطلق فيه من حقائق تاريخية ثابتة
لا يتطرق إليها الشكّ ولا يمكن أن توصف بالزيف. مع أن تأريخنا ليس فيه
تقييم صحيح وواقعي لرجالنا، فنحن حينما نمر مثلاً بعمر بن عبد العزيز لا
نذكره إلا بالتقدير والإكبار لأن مواقفه معروفة، وكذلك حينما نمر بأبان بن
سعيد فإننا نكبره ونجلّه، هذا مع كونهما أمويين، وكذلك الحال مع غيرهما
كأم حبيبة بنت أبي سفيان.

وهذا معناه أننا لا نعادي شخصاً ما؛ لمجرّد أنه ينتسب إلى البيت الأموي
أو العباسي بل إننا نعاديّه بناءً على ضوابط معيّنة تحدّد لها مواقفه وما يصدر
منه من تصرفات إزاء الدين وحملته من أهل البيت عليه السلام. وهذا إنما استقيناه
من القرآن الكريم الذي وضع لنا مقاييس واضحة نقيّم بها الناس، وعلى
ضوئها نمنح هذا تقديراً وذاك ازدراء^(١).

ولنرجع إلى يزيد الذي حينما وصل إليه الأمر واستقل به فإنه لم يحترم هذا
المنصب الذي شغله فأخذ بالله حقّ غيره، وقتل وظلم وفعل المنكرات^(٢).

(١) وقد ورد في الأثر: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

(٢) كشرب الخمر جهاراً والتغني بذلك، وتربية الكلاب واليهود والقرود، واتخاذ المغنّين
ومصاحبة النصاري والاستهتار بحياة الناس ومقدّراتهم وغير ذلك من المنكرات التي سيمرّ

مع أن وظيفة الخليفة هي أن يحكم بين الناس بالعدل ويرجع إلى الناس حقوقهم ويعالج مشاكل الأمة. ومن هذه المواقف ما يروى من أنه حينما كان ولياً للعهد، ذهب إلى مشارف الروم يلهو، فسمع أن جيش أبيه قد أنهكته الحمى والطاعون فلم يأبه له، وانشغل بالخمير والغناء مع ما كانت عليه أوضاع الجيش والمسلمين آنذاك من حرج وحاجة إلى الكثير من الاهتمام والرعاية.

وقد كان هذا سنة (٤٩) هجرية؛ حيث إنه كان قد خرج إلى القسطنطينية التي يسميها هو في شعره الفرقدونة، وكانت جيوش المسلمين تقاتل في اسطنبول، وكان أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمى فتكا به، فأرسل إليه أبوه - باعتباره ولي العهد - : أن توجه إلى الجيش لترفع من عزيمته ومعنوياته. لكنه بقي مع جارية له في دير مرّان تغنيّه، حتى بعد أن وصل إليه خبر لجيش وما أصابه، فاندفع يشرب حتى ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ بالفرقدونة من حمى ومن شوم

المحاضر ببعضها.

فهو القائل مثلاً:

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم وداعي صبا بات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرّم
جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي ثم قم واسق مثلها ابن زياد
موضع العدل والأمانة مني ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ - ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

ويروى أن معاوية سمع شخصاً يغني عنده، فسأله عنه فقال: هذا سائب خاثر. فقال له: فاختر له يا بني من برك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. الأغاني ٨: ٣٢٤

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مَرَّان عندي أم كلثوم^(١)

ثم بعد ذلك ألحَّ عليه أبوه أن يلتحق بالجيش فالتحق .
فمثل هذا الرجل ما الذي يمكن أن تلمسه منه؟ وأي شعور بالمسؤولية يمكن أن يحمله وهو لا يبالي بما تلاقيه جموع المسلمين؟ لقد كان كل همه أن يشبع رغباته وأن يرضي نفسه ولذائذها في أحط شهواتها . فمثل هذا هل يمكن أن ينسحب عليه وصف ديني؟ بل هل يصح أصلاً وصفه بهذا الوصف؟ وهل من الإنصاف والمروءة أن نعطيه لقب خليفة ونضعه في مصاف الخلفاء الراشدين؟ إن هذا ليس من الإنصاف ولا من المروءة في شيء ، وليس هذا المقياس بالذي يمكن أن يصححه هذا اللقب .

وهو إلى جانب هذا كان يصبح عليه الصباح في أيام خلافته فيذهب إلى قرد كان عنده أسماء أبا قيس ، فيلاعبه تاركاً أمور المسلمين دون أن ينظر فيها ويعالجها . فهو بدلاً من أن يفعل هذا يعد عدته ويروض قروده وكلابه على الصيد ثم يركب ويتركب قرده على أتان ويسابق بها خيول المسلمين . فهو من الصباح إلى المساء يقضي وقته ما بين القروود والفهود مخلفاً وراءه مشاكل بلد بأكمله وأمة بحالها . إن من يرتكب مثل هذه الأمور لا بد أن تعافه مرتبة الخلافة ويعافه الإنسان المحترم الوقور الذي يربأ بنفسه أن تنجر إلى مثل هذا .

إن حقوق المسلمين كانت مضيعةً يميناً وشمالاً ، وهو لا يعلم ولا يدري ماذا حصل أو ماذا سيحصل في بلاد الإسلام ، وأين هذا ممن كان يمارس

(١) معجم البلدان ٢ : ٥٣٤ ، ٤ : ١٨٨ .

لونا من الرقابة على نفسه أو على أمراء المسلمين كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام وغيره؟ ولقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا فقدت شاة بالعراق فإن الله تعالى سائلي عنها.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فيضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال، فيقول لعثمان بن حنيف: «أقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكثرش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها؟»^(١).

فهذه هي المسؤولية الحقيقية التي يجب أن يكون عليها الخليفة العادل، وهي مسؤولية الضمير ومسؤولية الدين. ثم إنه لا يخفى على أحد من هو الذي كان نديم يزيد، إنه الأخطل النصراني الشاعر الذي كان مولعاً بشرب الخمرة، وهو مع ذلك يسمى شاعر البلاط؛ لأنه كان يمدح الأمويين، وكانت صلاحياته الممنوحة له واسعةً فله حق التصرف في كل شيء؛ ولذا كان يعبث عبثاً واضحاً ومنقطع النظر في مقدرات المسلمين. وبعبارة أخرى كان إنساناً منحلاً في غاية السقوط ومع ذلك كان يقود زمام الخليفة بيده يميناً وشمالاً. هذا هو معنى قوله عليه السلام: «أعطي بي فغدر»، فهذا الخليفة بدل أن يكرم هذه الوظيفة غدر بمن أعطاه إياها مع أنه ينبغي عليه أن يقف حيث يوقفه الشرع ويتحرك حيث يحركه القرآن، لكنه كان بمعزلٍ عن هذا بأجمعه؛ ولذا فإن الألوسي المفسر الشهير حينما يمر بيزيد بن معاوية يشبعه لعناً وينهال عليه به بشكل فظيع حتى بلغ به الأمر أن قال:

يزيد على لعنٍ عريض جنباه فأغدو به من لعنه ألعن اللعنا

وينتهي الأمر إلى هذا اللون من الاختيار، وهو اختيار غير نظيف في تأريخ المسلمين، فأن يوضع شخص في مصاف خلفاء المسلمين ويأخذ بالله حق هذا ويعطيه غيره بغير حق لهو حقيق بأن يكون في أدنى طبقة من المجتمع. ذلك أنه يأخذ معالم الدين ويحرفها ويضعها في غير موضعها، ولم يكن بمستوى حسن ظن المجتمع به، بل إنه يمارس ما يجعله ضمن دائرة عكس ظنهم به، وبالتالي يصبح منبوذاً منهم. وينتهي به الأمر إلى هذا اللون من العبث بالمقدسات، وهي كثيرة منها وقعة الطف ووقعة الحرة^(١) وهدم الكعبة^(٢) والتنكيل بأهل البيت عليه السلام إلى آخره مما يعجز القلم عن تسطيره.

ثانياً: قوله عليه السلام: «رجل باع حراً فأكل ثمنه»

فمن الطبيعي أن أي إنسان لا يولد عبداً، ولا يحق للمجتمع أن يحكم عليه بالعبودية؛ إذ لا توجد عبودية في نظر الإسلام بالولادة. والإسلام عندما جاء وضع قوانين للرق وشرع نظاماً للحد من مسألة العبودية، وهو إنما جاء والرق موجود تتعامل به الشعوب والأمم كافة، ولم يكن هو الذي أوجد الرق. ومنهاجه الذي وضعه لمعالجة هذه المسألة منهاج تدريجي، وإلا فإن الإسلام لم يكن هو التشريع الوحيد الذي جوز هذا الأمر.

(١) انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

(٢) سنن ابن ماجه ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ يعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤، ١٨٧ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدى والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

مصادر الرق

إن المصدر الأساس للرق هو الحروب التي كانت تخوضها الأمم آنذاك، ولذا فإن كل من يتناسل من أبناء الأسرى يسمون عبيداً. وحينما يرجع الباحث إلى التأريخ الأوروبي فإنه سيجد أن العبيد هم الذين يديرون المنشآت الاقتصادية؛ من مصانع ومزارع ومطاحن. فنظام الإجارة لم يكن معروفاً آنذاك، وهذا النظام هو الذي يعبر عنه ماركس بأنه نظام عبودية، والحال أنه عكس ذلك؛ إذ ليس فيه أي عبودية بل إنه عبارة عن وضع ثمن قبالة عمل ما. على أية حال فإن الذي كان يدير الحياة في المجتمعات والشعوب هو الرق؛ ولذا فإن الإسلام حاول علاجه تدريجياً؛ إذ أن من الصعب بمكان اجتثاث هذه الظاهرة من جذورها دفعة واحدة.

وما يمكن أن يذكر في المقام أن الإنسان لا يمكن أن يتحول من حر إلى عبد مهما كانت المسببات والظروف؛ لأن هذا خلاف التكريم الذي نص عليه الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(١).

فكرامة الإنسان فوق كل شيء وكل اعتبار، وقد صور الرسول الأكرم ﷺ هذا الأمر بأدق تصوير حينما صدر الناس في حجة الوداع؛ إذ صعد المنبر وخطبهم قائلاً: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: أعظم الأيام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: أعظم الشهور. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: «وأي بيت هذا؟». قالوا: أعظم البيوت.

قال: «إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»^(١).

ولهذا تلاحظ أن مسألة البيعة كانت تأخذ بعداً خاصاً عند المسلمين، فقد كانوا يعتقدون بأنهم حينما يبايعون الخليفة فإنهم إنما يبايعونه على أساس أنه أخ في الله تعالى وأنه خليفة وأنهم مواطنون. وهل يمكن أن يقال: إنه قامت خلافة شرعية في التاريخ على أساس الرق والعبودية؟ والحال أن الذي حصل أيام يزيد عندما انتهت إليه الخلافة هو هذا. والذي حدث في واقعة الحرّة أنهم جلبوا لمسرف بن عقبة الناس حتى يجددوا البيعة ليزيد، فقال لهم: تبايعون على أساس أنكم عبيد أقنان ليزيد^(٢). ومعلوم أن العبد القن لا يملك شيئاً إطلاقاً، فدمه وماله وكل ما يملك تحت تصرف سيّده، وكذلك يريد هؤلاء أن يكون الناس لهم. فكيف تلتقي هذه المبادئ مع القيم الإسلامية؟ وهذا التاريخ بصورة عامة - وليس تاريخ المسلمين فقط - حينما تستنطقه تجده لا يذكر أن هناك بيعة في الحق قامت على أساس أن يبايع الناس السلطان على أنهم عبيد له كما فعل ذلك يزيد بن معاوية. والمفروض أن عندنا مفاهيم مسبقة حددها لنا الإسلام حول هذا الموضوع نستقيها من سيرة

(١) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢. وفي الجميع بتفاوت: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، بأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عز وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه».

وقريب منه عن أبي عبد الله عليه السلام. انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ - ١٨٢.

الرسول الأكرم ﷺ وصحابته البررة، وأبسط مثال على ذلك ما يحدثنا التاريخ عنه من أن الإمام علياً عليه السلام طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتى كرّر الطلب ثلاثاً. فقال له: «لَمْ لَمْ تَجِبْنِي؟». قال: أمنت عقوبتك. فقال عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل عبيدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه الله».

فهذا اللون من الخلق الذي نراه هو الذي رسمه لنا الإسلام وقد سار عليه صحابة الرسول الأكرم ﷺ ومن تابعهم. وكمثال آخر على ذلك يحدثنا التاريخ أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه - وهو تلميذ الإسلام النجيب - قد لحقه في إحدى المعارك غلام وفرس وشاة، فكان يكلف الغلام بشراء الكلا لهما، وجاء في أحد الأيام فوجد ذلك الغلام قد أرسل الفرس على كلاً الشاة، فسأله أبو ذر رضي الله عنه قائلاً: لماذا فعلت ذلك؟ فقال: أردت أن أغيظك. فقال أبو ذر رضي الله عنه: والله لأجمعن لك مع الغيظ أجراً، اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى.

فنحن نعرف أن هذا هو تاريخ الإسلام، وهذه المثل هي التي حملها إلينا وقد أفرزتها لنا مدرسة النبي الأكرم ﷺ. فالمسلم الحقيقي هو الذي يطلق عبداً ويعتقه لوجه الله تعالى لا أن يأتي إلى الحر فيستعبده ويطلب منه أن يبايعه على أنه قنّ له. وفعلاً لم يخرج مسرف بن عقبة من المدينة حتى أخذ البيعة من الناس ليزيد على هذا النحو.

حركة الزنج أثر طبيعي لهذه الحالة

ولو أن الباحث المنقب في التاريخ الإسلامي الذي صاغه الأمويون وجلاوزتهم يطلع على هفوات هذا التاريخ فإنه سيجد نكبات سببتها هذه

العقدة، ومن ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من مسألة حركة الزنج الذين ثاروا لأسباب هي غير تلك الأسباب التي يحدثنا عنها التاريخ، فالأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك الحركة هي أن الزوج كانوا يشعرون بالنقص بسبب معاملة المجتمع والسلطة لهم، فأرادوا أن يستعيدوا آدميتهم من الناس الذين سلبوهم إحساسهم هذا وعاملوهم كأنهم متاع حقير وليس كبشر خلقهم الله تعالى وهم مثلهم سواء.

فهؤلاء كانوا لا يعترفون بعواطف الرقيق ولا بمشاعرهم، بل لا يعيرونهم أي اهتمام لمجرد أن ألوانهم سود، كما يحدث اليوم مع الكثير من الشعوب السوداء حيث يمنعون من الدخول إلى مدارس البيض ومطاعمهم والاشتراك معهم في أعمالهم.

وهذا ليس من ديدن الإسلام ولا من خلقه الذي ربي المسلمين عليه، نظر الرسول الأكرم ﷺ إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقة عليه وقال له: «يا جويبر لو تزوجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك». فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، من يرغب في؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأية امرأة ترغب في؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً، وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً».

إلى أن قال له: «فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم، وقرشيهم وعربيهم وعجميهم من آدم، وإن آدم عليه السلام خلقه الله من طين، وإن أحب الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم. وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين

عليك اليوم فضلاً إلا لمن كان أتقى لله منك وأطوع» .

ثم قال له : «انطلق يا جوير إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم ، فقل له : إني رسول رسول الله إليك ، وهو يقول لك : زوج جويراً من ابنتك الدلفاء» .

قال : فانطلق جوير برسالة رسول الله ﷺ فقال له زياد : أرسول الله أرسلك إلي بهذا يا جوير ؟ فقال له : نعم ، ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ . فقال له زياد : إنا لا نزوج فتياتنا إلا أكفاءنا من الأنصار ، فانصرف يا جوير حتى ألقى رسول الله ﷺ ، فأخبره بعذري . فانصرف جوير ثم بعث زياد رسولاً فلحق به فقال له زياد : يا جوير مرحباً بك ، اطمئن حتى أعود إليك . ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : بأبي أنت وأمي إن جويراً أتاني برسالتك ، فرأيت لقاءك ، ونحن لا نزوج إلا أكفاءنا من الأنصار . فقال له رسول الله ﷺ : «يا زياد ، جوير مؤمن ، والمؤمن كفة للمؤمنة ، والمسلم كفة للمسلمة ، فزوجه يا زياد ولا ترغب عنه» .

فرجع زياد إلى منزله ، ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فقالت له : إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت . فزوج جويراً من ابنته (١) .

فهو ﷺ يبين لهم أن مفهوم التفريق بين الحر والعبد قد ألغاه الإسلام؛ لأنه لا يوجد إنسان ولد عبداً. فهذه الحالة فرضت على المجتمع فرضاً بسبب الظروف التي كان يعيشها ولما جاء الإسلام أراد أن يسلخه منها. جاء جماعة

(١) بحار الأنوار ٢٢ : ١١٨ ، أسد الغاية ٢٠٢ / ١٩٦٥ .

لرسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ، نزوج بناتنا من غلماننا؟ قال: «بلى». فقالوا: سمعاً وطاعة.

وفي هذا الوقت نفسه يزوج النبي ﷺ عبداً مملوكاً من ابنة عمته زينب. فالمسألة إذن لم يعالجها الإسلام على صعيد اللفظ، إنه بل عالجها على صعيد العمل، مبتدئاً بالنبي ﷺ الذي قام بتطبيقها على نفسه، فهل يصح بعد أن أينعت ثمار هذا الزرع الذي زرعه الرسول ﷺ، وبعد أن آتى أكله للإنسانية كلها أن يأتي شخص منحرف ليرجع الناس وعجلة الإسلام إلى الوراء بدلاً من أن يكرمهم ويحترم آدميتهم، ويطبق أحكام الإسلام^(١)؟

وهكذا انتهى الأمر إلى أن تؤخذ البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد أقنان، والوحيد الذي لم يبايع هذه البيعة هو الإمام السجاد عليه السلام؛ فقد بايع علي أنه أخو الخليفة فقط وقبلت بيعته على هذا الأساس، ثم جاء من بعده محمد بن الحسن عليه السلام، فقالوا: لا يبايع إلا كما بايع ابن عمه.

ثالثاً: قوله ﷺ: «ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»

قد ذكرت أنه عندما جاء الإسلام فإنه ألغى نظام العبودية، وشرع نظام

(١) جلس النبي ﷺ يوماً على منبره وهو واجم، فسأله أصحابه عما به، قال ﷺ: «رأيت بني أمية ينزون على منبري نزو القردة؛ يردون الناس عن الدين القهقري». جامع البيان: المجلد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حق، وأن مدة ملك بني أمية ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

الإجارة، فقال على لسان الرسول ﷺ: «أعطِ الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(١).

نظرية الأجور عند الاشتراكيين والرأسماليين

وألفت نظرك هنا إلى أن نظرية الأجور المعاصرة تقول: «من كل حسب جهده ولكل حسب عمله»، وبعض المعسكرات الشرقية تعتبر هذا الشعار مؤقتاً حيث إنها تريد أن تصل إلى شعار «من كل حسب جهده ولكل حسب حاجته». وهذا طبعا لم يتحقق حتى الآن ولا يمكن تحقيقه؛ لأنه حينما يقرر أنه يعطيه حسب عمله وعمله بالكاد يعيل ثلاثة نفر أو أربعة وهو يعيل أسرة من عشرة أفراد مثلاً فكيف يتمكن من أن يسد هذه الحاجة لبقية أفراد عائلته؟ فمن الطبيعي جداً أن تتعرض إنسانية هؤلاء إلى الهدر وكذلك كرامتهم.

وفي مقابل هذا هناك النظرية الرأسمالية - نظرية الكفاف - وهي أن يعطى الإنسان مقدار ما يكفيه، فالعامل يعطى أجور الكفاف، وهي الأجور التي تكفي للأكل والشرب والمسكن؛ بدعوى أن هذا الزائد إن أعطوه إياه كان له مردودان سلبيين؛ فهو إن كان ضمن ثمن السلعة فإن ثمن السلعة سيرتفع وعند ذاك لا يمكن المنافسة في الأسواق بسلعة مرتفعة الثمن. ومن ناحية أخرى أنه يمكن أن يرفّه العامل بهذه الزيادة - أي فيما لو أعطي فوق الكفاف - ومعنى هذا زيادة في التوالد عند العاملين، وارتفاع عدد السكان، وبالتالي سوف يزيد عدد العمال ويقلّ الأجر. وهذه كلها دعاوى فارغة

(١) الكافي ٥: ٢٨٩ / ٢، سنن ابن ماجه ٢: ٨١٣ / ٢٤٤٣.

وخالية من الإنسانية.

ويتلخّص من هذا أن نظريات الأجور المعاصرة هي نظريات جائرة لا تنظر إلى إنسانية الإنسان.

نظرية الأجور في الإسلام

أما في الإسلام فالقانون المعتمد والسائد هو «من كل حسب طاقته ولكل حسب كفايته». ومعنى هذا أنه يؤخذ منه عمله فيعطى بمقداره، فإن لم يكفه ولم يسدّ حاجته أعطي من صندوق الضمان أو صندوق الزكاة أو من الخمس أو غيرها من الموارد المالية المعروفة في الإسلام ما يكمل حاجته ويتمّمها. فغرق العامل محترم كثيراً في نظر الإسلام، وهو غرق يجب أن يسان ويحفظ؛ لأنه هو الذي يبني الحياة ويصنعها. فإذا كان العامل صانع الحياة فلا بدّ إذن من أن يحترم وأن يعطى ما يسد حاجته وحاجة أسرته، وأن تعطى له أجرته قبل أن يجف عرقه^(١).

العمالة في المنظار الأموي

وإذا كان الأمر كذلك فلننظر إليه على ضوء تصرفات الأمويين وعمّالهم وأمرائهم، فحينما جاؤوا إلى الحكم، صعد واليهم سعيد بن العاص - وكان أمير الكوفة آنذاك - وقال: أيها الناس السواد بستان لقريش - والسواد أرض العراق لكثرة المزارع فيه^(٢) - فالذي يريد أن يعمل عندنا فليعمل، والذي لا

(١) وقد حثّ الرسول الأكرم ﷺ على إيفاء الأجير أجره، فقال: «من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرّم عليه الجنة». الأمالي (الصدوق): ٥١٣.

(٢) لسان العرب ١٢: ٢١ - دهم. ومنه قوله تعالى ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ أي مسودّتان لالتفاف أوراقهما.

يريد ذلك فليتدبر أمره من مكان آخر^(١).

وهذا تحدّ صارخ لأحكام الشرع الحنيف، ذلك أن المسلمين سلبوا ملكيّة أرضهم وسلبوا قوتهم، وامتدّت أيديهم إلى رغيّف صاحب الكدّ واقتطعت منه. فهذا حينما يقول لهم ذلك فهو إنما يتصوّر أن الدنيا ملك لهم ولذا فإنه قال: ومن أبى فليشرب من البحر.

ونظريتهم هذه معروفة، ففي زمن خلافة الوليد حدث أمر بينه وبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ترجمان القرآن وأمين بيت المال آنذاك، ذلك أن الوليد بعث إلى عبد الله بن مسعود بحوالة قيمتها ستمئة ألف دينار لأحد ندمائه وهو أبو زيد، وكان مسيحياً يعاقر الخمرة معه، فما كان من عبد الله إلا أن حمل المفاتيح وجاء إلى الوليد وأعطاه إياها قائلاً له: إنما أنا خازن بيت مال المسلمين، أمّا إذا أردتني أن أصبح خازناً عندك فأنا أفضل أن أستقيل ولا أعطي أموال المسلمين إلى أمثال هذا.

وألفت نظرك هنا إلى أن عبد الله بن مسعود أراد أن يقول له: إنما أنت شبح يمثل المسلمين ولذلك احترمناك، أمّا إذا أصبحت تمثل نفسك فلا قيمة لك عندنا. وتعرض إثر هذه الحادثة إلى الضرب المبرح حتى أحدثوا به الفتق وأهانوه وأهدروا كرامته. وهكذا انتهى الأمر إلى أن يصبح بيت المال ملكاً للنصارى وسواد العراق ملكاً للأمويين وندمائهم. فكان الأمويون يظنون أن الناس عبيد لهم وأن الدنيا ملك لهم وأن عرق الناس لا قيمة له يعبثون به كما يريدون أو يشاؤون، ولعل هذه الصورة الشعرية التي يقدمها أحد شعراء

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢، ق ٢: ١٤٠.

العصر الأموي خير دليل يعكس لنا الحالة التي وصلت إليها الأمور آنذاك:

يزيدُ أميرُها وأبو يزيد	فهبها أمة هلكت ضياعاً
فلسنا بالجبال ولا الحديد	معاوي إننا بشرٌ فأسجحُ
فهل من قائمٍ أو من حصيدٍ	أكلتم أرضنا فجردتموها
وتأميراً على الناس العبيد	ذروا جورَ الإمارة واستقيموا
جنودُ مردفاتٍ بالجنود ^(١)	وأعطونا السويّة لا ترزكم

لقد وصلت الأمور إلى هذا الحد ونحت هذا المنحى الظالم، فهل بعد ذلك يحق لأحد أن يلوم الحسين عليه السلام على خروجه وقيامه بهذه النهضة المباركة، أو يسأله: لماذا ثرت على يزيد؟ وبالمناسبة أود أن أذكر هنا أن أحداً ممن يدعي لنفسه حق هذه المساءلة وهو ممن قاءهم الدهر ولفظتهم الدنيا راح يحاكم الحسين عليه السلام على نهضته، وكأنه لم يقرأ ما كتبه الحسين عليه السلام في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية حيث قال: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحق؛ فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بقبول الحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»^(٢).

وبقيت هذه الوصية عند محمد بن الحنفية، ومرت الليالي والأيام ولم يمنعه من الخروج مع أبي عبد الله عليه السلام إلا مرضه الذي اشتدّ عليه؛ فقد كان يغمى عليه ساعة ويستفيق أخرى. وبعد أن انتهت واقعة الطف وجاء النعي

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٦، خزانة الأدب ٢: ٢٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

بقتل الحسين عليه السلام وعترته وسبي عائلته فإن أحداً لم يوصل هذه الأخبار إلى محمد رفقاؤه وخشية على حياته ورعاية له . لكن لما عادت السبايا يقدمهم بشر بن حذلم وهو ينادي :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج والرأس منه على القناة يدار^(١)

سمع محمد بن الحنفية رحمه الله هذا النداء فسأل أحد غلمانه : ما لي أرى المدينة تضجّ بأهلها؟ فقال له : سيدي ، يقال : إن أخاك الحسين عليه السلام قد رجع والناس يعزونه بآبن عمه مسلم بن عقيل . فقال : إذن ما لابن والدي لا يأتي إلي؟ قال : لكثرة الناس عنده . قال : ربما هو ينتظر قدومي ، أسرجوا لي جوادي .

فأسرجوا له جواده ونشروا على رأسه حلة للظل ، فلما أراد أن يقوم سقط ، وقام ثانية فسقط ، وكذلك في الثالثة فقال : والله إن فيها لمصائب آل يعقوب . ثم أقبل حتى توسط القوم ولمح مجموعة من الأطفال أقبلوا يهرولون أمام السبايا وهم ينادون : واحسيناه . فنظر محمد إلى ذلك الجمع وقال : لقد فعلتها والله بنو أمية ، وسقط إلى الأرض مغمى عليه ، فهرول الرسول إلى الإمام السجاد عليه السلام وقال له : بادر إلى عمك قبل أن يموت . أقبل إليه السجاد عليه السلام وأخذ رأسه ووضع في حجره وراح ينضحه بدموع عينيه ، ففتح محمد عينيه وقال : من؟ علي هذا؟ قال عليه السلام : «بلى يا عم» . قال : بني أين أبوك؟ قال : «يا عم لقد أتيتك يتيماً» .

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف) : ٢٣٩ ، اللهوف في قتلى الطفوف : ١١٥ .

وهنا أقبلت السبايا إليه وهن يتصاحن :

مدينة جَدُّنا لا تقبلينا فبالحسراتِ والأحزانِ جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً رجعنا لا رجال ولا بنيانا^(١)

اخوي من اطب عندك دار أرد عيني واصد فكري
أخاف اتشوف ملعبنا الدرجنا بيه من صغري
تمرّ اطيوفك اعليه مثل عذب الهوى تجري

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا وخلفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأملأن طريقَ الطفِّ ريحانا^(٢)



(١) بحار الأنوار ٤٥ : ١٩٨ ، ينابيع المودة ٣ : ٩٤ .

(٢) شجرة طوبى ١ : ٩١ .

الآثار الاجتماعية للصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الصلاة تبني المجتمع الصالح

إن الفرد والأسرة هما قوام كل مجتمع من المجتمعات ، وبطبيعة الحال فإن الفرد هو اللبنة الأساس للمجتمع ، ثم تأتي بعده الأسرة في أداء هذا الدور . وهكذا فإننا لا يمكن لنا أن نضمن أسرة سليمة ما لم نضمن سلامة الفرد؛ لأن الأفراد الذين يكونون كل أسرة إنما يتفاعلون بينهم لأداء وظيفتهم ، وبالتالي جعل الأسرة تؤدي وظيفتها بشكل صحيح ، وهم أشبه بلبنة البناء فإذا كان اللبن منخوراً فسوف لن يقوم البيت ولن تكون عاقبته سوى الانهيار . فكما أن البيت في مثل هذه الحالة يصبح آيلاً للسقوط والانهيار فكذلك الأسرة تصبح عرضة للضياع والانحدار في هوة التحلل ، فإذا أحسنّا اختيار اللبنة كان

البناء قوياً ثابتاً، وإذا أحسنّا تربية الأفراد استطعنا أن نبني أسرة صحيحة قائمة على القواعد الإسلامية المرعية والضوابط الإلهية التي يريدنا منها الدين الحنيف؛ وبالتالي بناء مجتمع مثالي كذلك.

ومسألة اختيار البيت السليم هي من أولويات المشرع الإسلامي، ومن الأهداف التي تأخذ الصدارة في اهتماماته، فكل ما يهدف إليه المشرع هو أن يبني المجتمع عن طريق بناء الفرد والأسرة.

وهنا لمحة أحب أن ألفت النظر إليها وأوضحها لما فيها من دقة، فهناك البعض من الأنظمة والقوانين التي تغلب جنبه المجتمع على الفرد، فتضع تشريعات للمجتمع لتهدب الفرد. كما أن هناك بعض الأنظمة والقوانين لها وجهة نظر على العكس من وجهة النظر السابقة. أما في التشريع الإسلامي فإن الأمر ليس كذلك؛ إذ أنه ينطلق من الفرد لبناء المجتمع - وليس على حساب المجتمع، أو للمجتمع على حساب الفرد - لأنه يعتبره النواة الوحيدة التي يمكن أن تصح مسارها أو تفسده. فإذا ما ضمنا الفرد وحقه فإن ذلك سيكون بالتالي ضماناً لحق المجتمع، ثم إنه مع هذا يقيد حق الفرد وحرّيته فلا يصل الأمر إلى حد التعدي على حق المجتمع وحرّيته ولا إلى أن يمسهما؛ فيصبح المجتمع بالتالي عبر هذا التوظيف مجتمعاً سليماً صالحاً.

وبعد هذه المقدمة أقول: إن القرآن الكريم أول ما عني بهذه النقطة وأكد هذا المعنى، وهو كيف نبني المجتمع الصالح عبر بناء الفرد الصالح. فهو يخطط لرسم الطريق السليم والعمل الناجح لبناء المجتمع، وأول المهمات المطلوبة هنا في عملية بناء الفرد هي الصلاة؛ حيث إنه اعتبرها الوسيلة الأولى لتحقيق ذلك الهدف، أعني بناء الفرد، ثم بناء المجتمع. وهذه المسألة

خاضعة لمجموعة من التشريعات ومنظومة من القوانين التي تؤسس لهذا، فتضمن سلامة البنية البشرية.

أسرار الصلاة

والآن لتساءل: ماهي الأسرار التي تنطوي عليها الصلاة؟ ربما يجيب على هذا التساؤل من لا يعرف أسرار التشريع الإسلامي ولا خبرة له في هذا المجال بتساؤل آخر فيقول: ماهو الداعي لكل هذا الاهتمام بالصلاة؟ وهل هي أكثر من الوضوء وقراءة بعض الكلمات؟ والواقع أن هذا التساؤل الأخير ما هو إلا مغالطة وتلاعب بالألفاظ، وهو مثله مثل من يقول: ماهو اللسان؟ وهل هو إلا كقطعة من اللحم؟ مع أنه يعرف أن اللسان هو عبارة عن الآلة المعبرة عن الإرادة والمعبرة عن رغبات الإنسان، والعضو الذي لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً من ضرر أو نفع أو خلق مجتمع فاضل أو غير فاضل إلا به.

وكذلك الأمر هنا بالنسبة للصلاة؛ إذ أنها ليست بضعة ألفاظ، وإنما هي مورد التزام للإنسان بخواصها وشرائطها؛ ذلك أنها الوسيلة الأولى لبناء الفرد المسلم الفاضل، وبناء الفرد الفاضل في نظر الإسلام هو غاية الدنيا وثمره الوجود.

والباحث حينما يتصدى لدراسة كل التشريعات الموجودة في الدنيا وما يتبعها من علوم وقوانين وأهداف وما ترمي إليه من آداب وسلوكيات سواء على الصعيد الفردي أو المؤسساتي فإنه سيجد أن كل هذه النظم والقوانين والآداب والسلوكيات ترمي إلى بناء الفرد وتهدف إلى صنع الإنسان. فالإنسان السليم جسيماً وذو الخلق السليمة والآداب الملتزمة يتّصف عادة

بأنه ذو تعايش طبيعي وطيب مع الناس ، وهذا هو الذي يريده المجتمع من كل عضو من أعضائه أو فرد من أفرادهِ . وهدف الصلاة حيال الإنسان لا يخرج عن هذه الدائرة ولا يتعدى أطرها أو محيطها .

فالمشرع الإسلامي إذن حينما شرع الصلاة نظر من جملة ما نظر من أمور إلى بناء الفرد السليم وبالتالي المجتمع السليم . ولعل أهميّة الصلاة وخطورة دورها نشأ من هذا المعنى واستقيا من هذه الناحية . وبهذا التقريب فإن الصلاة ليست مجرد حركات وألفاظ يأتي بها المصلي بل هي منظومة خلقية تحكمها جملة من الالتزامات التي يريدها المشرع .

المبحث الثاني: آلية المحافظة على الصلاة

تقول الآية الكريمة : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ .

فما هو المقصود بالمحافظة هنا؟ هناك عدة آراء للمفسرين في هذا الخصوص ، منها :

الأول : المحافظة على كل خواصها

فيقول المفسرون : إن المقصود بها هو المحافظة على كل خواصها ، ومن أهم خواص الصلاة أن يوجد المصلي لها الوعاء النظيف لكي تكون مقبولة وليست مجزئة . فهناك من يجلس في المحراب ويأتي بالصلاة وهو لا يعدو أن يكون عبارة عن وعاء عجيب غريب ؛ فهو خليط من الكذب والحقد والنفاق والازدواجية وخبث السريرة وسوء الطويّة والرغبة في إلحاق الأذى بالناس والتسبّب بالضرر لهم . وحتماً مثل هذا الوعاء لا تقبل منه صلاة البتة ، صحيح أنه حينما يؤدّيها فإنها تسقط عنه ، وهو ما يعبر عنه في علم الأصول بأنه امتثل الأمر فسقط عنه ، لكنه هل تقبل صلاته هذه؟ طبعاً لا؛ لأن مثل

هذه المقاييس لا تقبل عند الله تعالى إطلاقاً. يروى أنه حينما جيء بزيد ابن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أخيه الإمام الرضا سأله الإمام عليه السلام : «أحسبت أنك لن تحاسب لأنك ابن موسى؟» .

فهذا يعني أن الإنسان لا بد أن يأتي إلى الصلاة بوعاء نظيف ملؤه الإيمان والانقطاع إلى الله تعالى والوعي بأهداف الصلاة^(١).

فهل يمكن أن يستوي مثل هذا مع من يمارس الكذب والدجل والدسيسة، وما أخلاقه إلا مستنقعا يحوي كل خلق ذميم. وهل يقبل الله عز وجل منه هذه الصلاة؟ والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يريد أن يضرب لنا مثلاً من هذا النمط فكان يصرّح بأنه يخشى أن تردّ صلاته ويضرب بها وجهه. وقطعاً أن الإمام عليه السلام واثق من أن صلاته مقبولة لكنه يريد أن يضرب لنا درساً في تعليم الأخلاق والسلوك، ويريد أن يبين لنا أنه لا يكفي في الصلاة مجرد الألفاظ أو التفوه ببضعة كلمات ثم ينتهي الأمر، بل يريد أن ينبهنا إلى أن الوعاء الذي تنطلق منه الصلاة يجب أن يكون وعاء طاهراً لا شائبة فيه.

الثاني: أن تكون عن قصد ووعي

فهذه الصلاة عندما يريد العبد أن يصلّيها فالواجب عليه أن يأتيها عن قصد ووعي : «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يُرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمرنا بالنافلة لئتمّ لهم بها»^(٢).

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام : «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١ : ٣٦ / ٣.

(٢) الكافي ٣ : ٣٦٤ / ١، الفقيه ١ : ٢٠٩ / ٦٣٢. وفي رواية أخرى : «من صلى فأقبل على صلاته لم يحدث نفسه فيها أو لم يسه فيها أقبل الله عليه ما أقبل عليها، فربما رُفع نصفها أو

وهذا واضح، فكلّ من يريد أن يقرأ كتاباً أو قصة أو قصيدة شعر وكان باله مشغولاً عمّا بين يديه فسوف لن يشعر بمعانيه المودعة فيه ولن يكتشفها، ولن ينتبه إلى الهدف من كتابتها؛ وبالتالي لن يحس بطعمها أو بالجوانب الفنية فيها. فهو عبارة عن عيون تقرأ الألفاظ وذهن شارد عنها ولا يساير معانيها، أمّا إذا كان حاضر الذهن مع كل كلمة يقرأها ويشعر بكل مفردة تقع عينه عليها فإنه سيكتشف ما فيها من معانٍ وما خلفها من صور فنية أو جوانب إبداعية، وبالتالي فهو يحسّ بحلاوة تلك القراءة.

والصلاة كذلك، فمنها ما يكون حال الإنسان معها كحال من يقرأ وهو شارد الذهن، فهو يقرأ ويتلفظ بمفرداتها دون أن يستوحى ما خلفها من مضامين وقصود وأهداف، مع أن كل لفظ فيها له مضمونه الخاص به وليس اللفظ إلا وسيلة للتعبير عن ذلك المضمون وإيصاله إلى المتلقي. فعلى المصلي أن يفهم تلك المضامين، فحينما يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فعليه أن يسأل: لماذا لم أقل: الشكر لله؟ وهل هناك فرق بين الحمد والشكر؟ نعم هناك فرق؛ فالشكر نقيض الكفران والحمد نقيض الذمّ. والحمد قد يكون من غير نعمة، والشكر يختصّ بالنعمة، والشكر مخصوص بما يكون مكافأة، والحمد أعمّ؛ لأنه يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر والجزاء^(٢). ويتضح من هذا أن الحالة الأولى هي معنى فردي أمّا الحالة الثانية فهي معنى اجتماعي، أي أنه إذا وصل الإنسان الخير قال: الشكر لله، أمّا إذا لم يصله

ربعها أو ثلثها أو خمسها. وإنما أمرنا بالسنة ليكمل بها ما ذهب من المكتوبة». الكافي ٣:

(١) الفاتحة: ٢.

٢/٣٦٤.

(٢) مجمع البيان ١: ٥٥، معاني القرآن ١: ٥٧.

ووصل إلى المجتمع فإنه لا يقول: الشكر لله. فهذا الشاعر يقول:

إذا متّ ظمآنًا فلا نزل القطر^(١)

في حين أن شاعراً غيره يقول:

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاد

ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فهناك فرق بين الحالتين، ويجب على المصلي أن يساير معاني الألفاظ التي يقرأها في صلاته لكي يحس بطعم الصلاة ومذاقها الروحيين، ويشعر أن الصلاة فيها ذوق وأن وراء ألفاظها معاني لها طعمها الخاص الذي يجب أن يستجلى ويوظف في عملية التربية.

الثالث: إيجاد الجو الطاهر لها

فالإنسان حينما يقصد المحراب ويتوجه إلى الله تعالى ويصلي فإنه لا بد له أن يخلق لنفسه جواً طاهراً وأن يرتدي ثياباً نظيفة كي يستقبل الله تعالى بهما. ومعنى الثوب النظيف هنا ليس غسله بالماء فقط وإنما يجب أن يكون نظيفاً من الحرام، فلا يكون قد اشتراه بمال مسروق أو مغصوب، بل إنه يجب ألا يكون فيه خيط حرام، ولا يكون قد أخذه باعتداء على حقوق الآخرين. وكذلك الماء الذي يطهره به أو يتوضأ به فإنه يجب أن يكون مأخوذاً بالطريق الحلال المشروع. فثوب الصلاة يجب أن يكون جائياً عن طريق حلال ومشروع.

وهذا يجري أيضاً على مكان الصلاة؛ حيث إنه يجب فيه ألا يكون

(١) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

مغصوباً^(١). أذكر لك هذه الحادثة التي وقعت أيام ثورة القراء على الحجاج، وأحب أن أنوه هنا إلى أن القراء حينما خرجوا على الحجاج مع عبد الرحمن ابن الأشعث لم يخرجوا معه وهم يعتقدون أنه إمام حق، لكنهم لشدة ما رأوا من جور الحجاج أصبحوا يعتقدون أنهم لو خرجوا ضده مع أي كان لكانوا خارجين إلى هدف مقدس. وكان في طليعة ثورة القراء وحملة القرآن سعيد بن جبير، فأرسل إليه الحجاج لما ذكر له قائداً عنده يسمى المتلمس بن أحوص في عشرين من أهل الشام، وبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عنه فقال: صفوه لي. فوصفوه فدلهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي بأعلى صوته، فلما دنوا منه وسلموا عليه رفع رأسه فأتهم بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا: إنا رسل الحجاج إليك، فأجبه. قال: ولا بدّ من الإجابة؟ قالوا: لا بدّ. فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم. فقال: اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل، فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإننا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لا ضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذب.

(١) ورد في الحديث القدسي: «يا موسى، عليك بالصلاة الصلاة؛ فإنها مني بمكان، ولها عندي عهد وثيق، وألحق بها ما هو منها زكاة القربان من طيب المال والطعام؛ فاني لا أقبل إلا الطيب يراد به وجهي». الجواهر السنّية في الأحاديث القدسيّة: ٣٤.

فقال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة. فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد، قال، إني أعطي العظيم الذي لا شريك له، لا أبرح مكاني حتى أصبح إن شاء الله. فرضي الراهب بذلك، فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسي؛ لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح؛ فإنه كره الدخول في الصومعة. فلما صعدوا وأوتروا القسي، إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تحككت به وتمسحت، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسر له سعيد ذلك كله، فأسلم.

وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه، ويقولون: يا سعيد، حلفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نُشخصك إليه، فمُرنا بما شئت. فقال: امضوا لأمركم، فإني لائذ بخالقي ولا رادّ لقضائه.

فساروا حتى بلغوا واسطاً، فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم، ولست أشك أن أجلي قد حضر، فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت وأستعدّ لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر، فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي تريدون. فقال بعضهم: لا تريدون أثراً بعد عين. وقال آخرون: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير، فلا تعجزوا عنه. وقالت جماعة ثالثة: يعطيكم ما أعطى الراهب، ويلكم أما لكم عبرة بالأسد؟! ونظروا إلى سعيد قد دمعت عيناه، وشعث رأسه، واغبرّ لونه، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه، فقالوا: يا خير أهل الأرض، كيف ابتلينا بك؟ اغدروا عند خالقنا يوم الحشر؛ فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجور. قال: ما

أعذرني لكم وأرضاني، لما سبق من علم الله تعالى فيّ .
فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة، قال كفيله: أسألك بالله لما زوّدتنا من دعائك وكلامك . ففعل ذلك، فخلّوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه، وهم محتفون الليل كلّ، فلما انشقّ عمود الصبح، جاءهم سعيد فقرع الباب، فنزلوا وذهبوا به إلى الحجّاج، فقال الحجّاج: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعائناً منه العجب . فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ . فخرج المتلمّس فقال لسعيد: أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام .

فأدخل عليه . فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير . قال: أنت شقي بن كسير . قال: بل أُمّي كانت أعلم باسمي منك . قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك . قال: الغيب يعلمه غيرك . قال: لأبدلّك بالدنيا ناراً تلظى . قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . قال: فما قولك في محمد ﷺ؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى . قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت . قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل . قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي . قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده . قال: أبيت أن تصدقني . فقال: إني لم أحبّ أن أكذبك . قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستو القلوب .

قال: ثم أمر الحجّاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا . ثم دعا الحجّاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي

بكى ، فقال الحجاج : ما يبكيك؟ هو اللهو . فقال : بل هو الحزن ، أما النفخ ، فذكرني يوم نفخ الصور ، وأما العود ، فشجرة قطعت من غير حق ، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة . فقال الحجاج : ويلك يا سعيد . قال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار . قال : اختر أي قتلة تريد أن أقتلك . قال : اختر أنت لنفسك يا حجاج ، فوالله ما تقتلني قتلة إلا أقتلك في الآخرة . قال : فتريد أن أعفو عنك؟ قال : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر . قال : اذهبوا به فاقتلوه .

فلما خرج من الباب ضحك ، فأخبر الحجاج بذلك ، فأمر برده ، فقال : ما أضحكك؟ قال : عجبت من جرأتك على الله تعالى وحلمه عنك . فأمر بالنطح فبسط ، فقال : اقتلوه . فقال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١) . قال : شدّوا به لغير القبلة . فقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾^(٢) . قال : كبوه لوجهه . قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾^(٣) . قال : اذبحوه . قال : إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة . ثم دعا سعيد الله تعالى وقال : اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي . فذبح على النطح .

وفعلًا عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة ، لم يستقرّ فيها لحظة ، وكان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير؟ فلم

(٢) البقرة : ١١٥ .

(١) الأنعام : ٧٩ .

(٣) طه : ٥٥ .

ينشب إلا قليلا حتى مات^(١).

وموضع الشاهد من هذه القصة أن هذا الرجل يأبى أن يصعد إلى دير راهب لأنها في نظره دار غير نظيفة.

فأول ما يراد من الصلاة إذن هو المحافظة على النظافة في البدن والثياب والمكان، وكذلك المحافظة على التوجه إلى الله تعالى بالقلب، وأن تكون المحافظة عليها متناسبة مع أهميتها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

المبحث الثالث: المراد من الصلاة الوسطى

وهنا سؤال يُطرح هو: ما هو وجه عطف ﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ هنا على قوله: ﴿الصَّلَوَاتِ﴾؟ إن الله تبارك وتعالى قد خصّص العام هنا، وهو تعالى حينما يريد أن يخصّص شيئا من العام فإنما يخصّصه لما فيه من الأهمية. والصلاة الوسطى هي من الصلاة نفسها، وإنما خصها الله تعالى بالذكر وأكد عليها دون غيرها من الصلوات؛ لأنه تعالى يريد أن يؤكد عليها وينبّهنا إليها لأهميتها. لكن ما المراد من الصلاة الوسطى؟ هنالك عدة آراء للمفسرين طرحت للإجابة على هذا السؤال، نذكر منها:

أولاً: أنها صلاة الظهر

وهذا الرأي مستمد مما يروى من أن النبي ﷺ كان يصليها بالهاجرة في الصحراء، وما كان يقف وراءه إلا صفّ أو صفان لشدة الحر، فقد كانت شديدة عليهم. وهي أول صلاة فرضت على المسلمين عندما شرعت الصلاة،

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

كما أنها تقع بين شروق الشمس وغروبها، ومن هنا اتخذت صفة الوسطى.

ثانياً: أنها صلاة الفجر

إن القرآن الكريم يشدد على صلاة الفجر؛ لأن وقتها يكون عادة وقت راحة للإنسان، فمن الصعب عليه أن يقوم من نومه لهذه الصلاة خصوصاً أيام البرد، وتتركز هذه الحالة أكثر عند الشباب الذين يحتاجون بطبيعة تركيبتهم إلى أوقات أكبر من النوم. فمثل هؤلاء وفي مثل هذه الحالات يصعب عليهم أن يقوموا من نومهم ويتوجهوا إلى الصلاة، ولذا فإن القرآن الكريم يشدد على هذه الصلاة وعلى الإتيان بها في وقتها فيقول: حافظوا على هذه الصلاة. وإنما سميت بالصلاة الوسطى لأنها تقع بين الليل والنهار، ومن جمالها أنها تشهدا ملائكة الليل وملائكة النهار، فيسجل للعبد أجرها مرتين: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾^(١)؛ لأنه يسجل له في الوقتين.

وأكثر المفسرين - وخصوصاً المحققين منهم - يميلون إلى هذا الرأي، وهو أن المقصود بالصلاة الوسطى صلاة الفجر. فالإنسان حينما ينهض عند الفجر من أحسن ساعات راحته فإنما يفعل من أجل أن يستلهم الخير من الله تعالى، ولأجل أن يبدأ يومه بالصلاة وهي تملأ شفتيه ويواجه حياته الجديدة بهذا الفكر والجو الرياضي اللطيف: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) فإنه إنما يريد أن يقول: اللهم ألهنا الخير وطهر أرواحنا من الحقد على الناس، وقلوبنا من الغلّ عليهم. فهو إذن يواجه السماء بهذه المعاني الجميلة ويواجه الدنيا بهذا الاستعداد الطيب للاندماج مع المجتمع.

(٢) الفاتحة: ٦.

(١) الإسراء: ٧٨.

المبحث الرابع: ماهية القيام في الصلاة

ومن الطبيعي أن أهمية الصلاة تبقى قائمة ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وهنا يلوح في المقام أمر هو ضرورة بيان معنى قوله تعالى: ﴿قُومُوا لِلَّهِ﴾، فالقيام لا بد أن يكون خالصاً لله تعالى، لا لاعتبار آخر؛ لأن المفروض أن الاعتباراتها كلها تذهب وتنتلشى، فلا يدخل في صلاته هذه وفي مطلق عمله شيئاً من الرياء؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يرائي فإن عليه أن يسأل نفسه: لأي شيء أرائي؟ ولأجل من؟ وما هو الشيء الذي يستحق أن أذيب من أجله كياني؟ هل هي الأموال؟ وما هو دورها؟ لقد خرجت ذات مرة لقضاء حاجة لي فرأيت جنازة تشيع، فأحببت أن أمشي مع المشيعين ثم جلست على قبره ومن غير أن أشعر به من حيث مركزه الاجتماعي، وشهد الله تعالى أنني لم أكن أعلم ما الذي كان عليه، لكن بعد ذلك علمت أنه مليونير، فقلت: سبحان الله هذه هي عاقبة الملايين. وهل إن الإنسان يرائي من أجل إنسان غيره؟ وهل سيبقى هذا الإنسان بعده أكثر من أيام قلائل ثم ينتقل معه إلى المصير نفسه الذي سوف ينتهي إليه هو؟ أوصى أحد الأعراب بأن تكتب هذه الأبيات على قبره:

ياواقفين ألم تكونوا تعلموا	أن الجِمامَ بكم علينا قادمٌ
لا تستعزّوا بالحياة فإنكم	تبنون والموتُ المفرّقُ هادمٌ
ساوى الردى ما بيننا في حفرة	حيث المخذّم واحدٌ والخادم ^(١)

وهناك ربوات في وادي النجف يقول فيها أحد أدبائنا: إنها «نضائد أكباد»:

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٥٩٩.

وما الذكوات البيض في جانب الحمى وقد خشعت إلا نضائد أكباد
وقد ذكرت في إحدى الملحقات هذا الوادي :

تحية أيها الوادي الحبيب إلى ربي إليها النجوم الزهر تنجذب
يلوح في لابتها من أبي حسن وجه ومن قسمت منه تختضب
ثوت ملايين آمال بتربتها الـ سمراء فهي على أبعادها كتب
توحدت طبقات في قرارتها وهوم الخصم جنب الخصم واصطحبوا
حتى تعابير كانت فوق أعينهم ماتت فما ابتعدوا منها وما اقتربوا^(١)

نعم تجد العملاق إلى جانب القزم والغني إلى جانب الفقير والملك إلى جانب
السوقة، وكلهم سواء، فهل يستحق هذا الإنسان أن يرأى من دون الله تعالى
أحداً؟ الحق أنه لا أحد يستحق أن يُعبد أو يضحى لأجله سوى الله عزَّ
وجلّ؛ ولذا فإنه تعالى قال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾.

المبحث الخامس: في معنى: ﴿قَانِتِينَ﴾

وفي معنى ﴿قَانِتِينَ﴾ هنا عند المفسرين عدة آراء، منها:

الأول: أنها بمعنى خاشعين

مرّ النبي ﷺ ذات مرّة برجل، فرآه يصلي، وكان يحكّ رأسه وجسمه
ويصلي، فقال: «ماضر هذا لو خشعت جوارحه؟». فعلى المصلي أن يكون ذا
وقار أثناء تأديته صلاته. والملاحظ أن بعض المصلين عندما يقف إلى الصلاة
يقف وكأنه يريد أن يؤدي عادة اعتاد عليها، فتجده يتلفت ويتحرك بشكل
يوحي إليك أنها ليست صلاة وإنما هي ضريبة مفروضة عليه يريد التخلص

منها؛ فلا تلمس عنده أي نوع من الخشوع أو الخضوع أو الانقطاع إلى الله .
ويحق للبعض أن يستغرب حينما يقيس هذا الجو الذي عليه مثل هذا المصلي
بما كان عليه الإمام السجاد عليه السلام من حال أثناء صلاته؛ ذلك أنه عليه السلام كان إذا جن
عليه الليل وقف للصلاة لا يتحرك منه شيء إلا ما تحركه الريح^(١).

الثاني: أنه بمعنى القنوت في الصلاة

والمقصود به الدعاء في الصلاة، والثعلبي حينما يأتي إلى تفسير هذه الآية
يروى عن العطاردي قوله: صلى بنا ابن عباس في مسجد البصرة صلاة
الغداة، وقبل الركوع من الركعة الثانية رفع ابن عباس يديه وقنت وأخذ يدعو،
فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين^(٢). ويروى
عن أنس قوله: قنت النبي ﷺ في صلاة الصبح بعد الركوع ﷺ^(٣).
ومسألة القنوت لا تكاد تجد له ذكراً عند المذاهب الإسلامية فهو عند
الشيعة فقط، أمّا حكمه الشرعي فهو مستحب استحباباً مؤكداً مما يعني أن
المصلي إذا نسيه فإن عليه استحباباً مؤكداً أن يقضيه. أمّا الدعاء فيه فيكفي
منه مسماه. والإنسان في حقيقة حاله أمام الله تعالى لا يحتاج؛ لأن يدعو^(٤).
يخاطب أمية بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان التيمي بقوله:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

(١) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٢) عنه في مجمع البيان ٢: ١٢٨، وانظر الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ورد في الدعاء الشريف: «إلهي كفى علمك عن المقال، وكفى كرمك عن السؤال». بحار
الأنوار ٩٢: ٢٥٢ / ٣٣ - دعاء الحرز اليماني.

وعلمك بالأمر وأنت فرع
لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح
عن الخلق الكريم ولا مساء
إذا أثنى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضه الثناء^(١)

وكذلك الباري جل وعلا فإنه لا يحتاج أن تسأله؛ لأنه يعرف حاجتك قبل أن تتعرض له بالدعاء، ويكفي أن تقول له فقط: يارحمن؛ لأنه رب العطاء والرحمة والكرم، فهو القائل: «إن دنا - العبد - مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»^(٢)، والقائل: «مَن استطعمني فلم أطعمه؟». فيكفي في الانقطاع إليه تعالى مجرد هذا المقدار.

ولو نظرنا إلى أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناها تشتمل على الحمد والثناء على الله، وهكذا أدعية أهل البيت عليهم السلام فهي مفعمة بالحمد والثناء عليه تعالى، قال حماد بن حبيب الكوفي: خرجنا سنة حجاً جاً، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطعت القافلة، فتهدت في تلك البراري، فانتهدت إلى وادٍ قفر، وجنني الليل، فأويت إلى شجرة، فلما اختلط الظلام إذا أنا بشابٍ عليه أطمار بيض، فقلت: هذا ولي من أولياء الله، متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره. فأخفيت نفسي، فدنا إلى موضع، فتهياً للصلاة وقد نبع له ماء، ثم وثب قائماً يقول: «يا من حاز كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، صل على محمد وآل محمد، وأولج قلبي فرح الإقبال إليك، وألحقني بميدان المطيعين لك».

ودخل في الصلاة، فتهيات أيضاً للصلاة، ثم قمت خلفه، وإذا بمحراب قد مثل في ذلك الوقت قدّامه، وكان كلما مرّ بآية فيها وعد ووعد يردها

(١) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ١٤١ / ٤٥٨، شرح نهج البلاغة ٦: ١٩٠.

(٢) الدعاء (الطبراني): ٥٢٣، أمالي المرتضى ٢: ٦.

بانتحاب وحنين ، فلما تقشع الظلام قام ، فقال : «يا من قصده الضالون فأصابوه مرشداً ، وأمه الخائفون فوجدوه معقلاً ، ولجأ إليه العائدون فوجدوه موثقاً . متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمة؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً ، ولا من حياض مناجاتك صدرأ ، صل على محمد وآل محمد ، وافعل بي أولى الأمرين بك» .

ثم مرّغ وجهه في التراب ونهض ، فتعلقت به ، فقال : «لو صدق توكلك ما كنت ضالاً ، ولكن اتبعني واقف أثري» . وأخذ بيدي ، فخيّل إلي أن الأرض تميد من تحت قدمي . فلما انفجر عمود الصبح قال : «هذه مكّة» . فقلت : من أنت بالذي ترجوه؟ فقال : «أما إذا أقسمت ، فأنا علي بن الحسين»^(١) .

فهذا الوجه الذي كان يتمرّغ في التراب من خشية الله تعالى أعطاه الله تعالى كل هذه المنزلة والإشعاع الذي يخترق الدنيا :

تزود منه كل عصر كما اشتهى وما زال للدنيا بمزوده ذخراً^(٢)

فلا زال فكره إلى الآن يعيش في أذهان كل الأحرار .

الثالث: أنه بمعنى مداومين

ومعنى هذا أن الله تعالى يريد منا أن نداوم على طاعته وعبادته وأن نقوم له وأن نتواصل معه مشغولين بذكره وعبادته وبالصلاة له؛ فإنها خير زاد يقدمه الإنسان بين يدي ربه يوم القيامة . وهذا هو الذي دفع الحسين عليه السلام وهو في أشد لحظاته الحرجة وأوار الحرب مستعراً إلى أن يؤدي الصلاة في وقتها

(١) الخرائج والجرائح ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦ / ٩ ، مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٨٤ ، بحار الأنوار ٤٦ :

(٢) ديوان المحاضر ١ : ٢٤ .

وذلك حينما رفع أبو ثمامة رأسه وقال: سيدي لقد زالت الشمس. فقال له الحسين عليه السلام: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها».

ثم قال عليه السلام: «سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي». فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر. لا تقبل؟ زعمت الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تقبل، وتقبل منك يا حمار^(١)؟

فوقف الحسين عليه السلام وصلى بأصحابه، ووقف هذا الرجل دونه يحميه بجسده إلى أن فرغ من صلاته وكان في جسد هذا الرجل اثنا عشر سهماً غير طعنات الرماح والنبال، وقد سقط على الأرض، حيث التفت إلى الحسين عليه السلام وقال له: أوفيت يا أبا عبد الله؟ فقال الحسين عليه السلام: «بلى، أقرئ جدي رسول الله عني السلام وقل له: لقد خلفت حسيناً بالأثر».

وفعلاً بعد لحظات كانت شفتا الحسين عليه السلام تتحركان وهو يرمق السماء بطرفه: «لك العتبى يارب، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»^(٢).

لقد أعطى عليه السلام إرضاءً لله، فهو الذي رفع رأسه ليقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتممت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا^(٣)

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢١، تاريخ الطبري ٤: ٣٣٤، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٤٢.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودة ٨٣: ٣.

(٣) لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم.

لقد فعل مصاب هذا الرجل العظيم المنقطع إلى الله بأخته زينب فعلاً عظيماً
وأخذ منها كل مأخذ، وذلك حينما رجعت إلى المدينة فرأت محرابه خالياً
فلم تكن تهدأ ليلاً أو نهاراً؛ إذ تعن لها الذكريات فتظل ملازمة لمحراب
الحسين (عليه السلام) كأن صورته لا تبارح ذهنها:

انجان تريدني أنسه	وابطل النوح وونيني
اخذ ذكراك من كلبني	واخذ صورتك من عيني
أيام الجنة ويّاك	أنّاغيك وتناغيني
شبيدي عايشه ويّاي	من ذيچ الايام اشباح

* * *

عمر ما فارغيتك بيه	تذكر يوم واحنه صفار
من حزن امي الزهره	الجوانح حيدر الكرار
عيني اتبحر بوجهك	وروحني ويّاك ليل انهار

* * *

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا	بجواده إن الفراق طویل
فبرزن ربّات الحجال حواسراً	وغدا لها حول الحسين عویل



ذكر الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا

تَكْفُرُونِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى الذكر

تتناول هذه الآية الكريمة موضوعاً يعتبر من أهم المواضيع التي تعرض للإنسان. وقبل كل شيء لنحاول أن نصور معنى الذكر، إن ذكر الشيء هو عبارة عن استحضار صورته أو معناه في الذهن. والعلم حتى الآن لم يتمكن من تحديد أبعاد الذهن الصحيحة، فهل هو (الذهن) يعني الذاكرة أم لا؟ وإن كان كذلك فحتى موضوع الذاكرة لم يكن ضمن نطاق النظريات العلمية؛ لأن النظريات العلمية تريد أن تجعل كل فعاليات الإنسان انعكاساً عن المادة، أي أن كل شيء - حتى العقل - يعتبر من وجهة نظر هذه النظريات تطوراً ضمن نطاق المادة.

وهناك نظريات كثيرة في هذا المعنى لا أريد أن أخوض فيها، لكن لو أردنا أن نطبق موضوع الذاكرة على الجانب المادي لما تمكنا من هذا؛ لأن ماهية الأشياء التي يذكرها الإنسان في ذهنه غير واضحة المعالم، فما هي ماهيتها؟ وما هي حقيقتها؟ وعلى أي نحو تكون؟ هل هي على نحو الانطباع؛ بحيث إن هذه المعلومات تكتب كما تكتب في الكتاب أم لا؟ ولو كان كذلك لأصبح حجم المخ كيلو متراً مكعباً؛ لأننا نعرف أن بعض الناس عندهم ذاكرة جبارة تحفظ ما لا يحصى من فنون الفكر والعلم والأدب والنظريات الأخرى والأخبار، ولو أردنا أن نطبعها لاستغرق ذلك عشرات الكتب.

إن العلم يقول: إن مركز الذاكرة هو المخ والمختصون في هذا المجال حينما يشرحون المخ يعبرون عنه بأنه مركز الذاكرة. ومعلوم أن حجم المخ صغير جداً قياساً إلى ما يختزن فيه من معلومات، ولو افترضنا أن أحداً أراد أن يطبع عليه معلومات فإنه سوف لن يتسع لأكثر من صفحة واحدة ثم يمتلئ، إذن كيف نستطيع أن نوجه هذا الكم الهائل من المعلومات الموجودة فيه مع هذا الحجم الصغير؟ إن هذا الأمر يحتم علينا أن نعتبر أن الذاكرة ليست شيئاً عادياً.

ثم إن هناك تساؤلاً آخر وهو: لماذا لا ينسى الإنسان بعض الصور التي مرت به مع أنها قد تكون من أيام طفولته؟ إن هذا الأمر يتعلق فهمه بفهم طبيعة المخ أو الذهن؛ ذلك أنه لو كان الذهن شيئاً مادياً لتم محو الصورة الأولى بكتابة الصورة الثانية عليها، والحال أنه ليس كذلك؛ إذ تمر كل يوم على الإنسان آلاف الصور التي يستحضرها الإنسان متى شاء. إذن لماذا لم تمنح هذه الصور من الذهن؟ إن هذا الشيء يؤكد أن الذهن ليس شيئاً مادياً؛

لأن الجسم المادي لا يقبل إلا صورة واحدة على التعاقب.

المبحث الثاني: آية التذكر عند الباري تعالى

وعلى ضوء هذا التقرير لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يتصور وجود الذاكرة عند الله؟ فالله تعالى حينما يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فهنا نسأل: هل إن الله عز وجل ينسى، والقرآن يقول: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(١)؟ وما الذي تعنيه الآية بقوله تعالى ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؟ وما هو الهدف من قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾؟

ونذكر هنا للإجابة على هذين السؤالين أن في علم البديع باب يدعى باب التقابل، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(٢)، افرض أن شخصاً اعتدى على شخص آخر وقطع إصبعه، وحينما يريد المعتدى عليه أن يقتص من المعتدي بأن يقطع إصبعه، فلماذا تسمى هذه الحالة سيئة في المنظور القرآني مع أن هذا مظلوم قد اقتص من ظالمه؟ الذي تعارف عليه العقلاء أن هذا ليس بسيئة؛ لأنه قصاص^(٣).

إن هذه التسمية جاءت من باب التقابل اللفظي وليس التقابل المعنوي بمعنى أن ذلك الشخص حينما اعتدى على الثاني وقطع إصبعه فعلى الثاني أن يقتص منه بمثل ما اعتدى به عليه ويقابله بالمثل. هذا هو التقريب لهذه الفكرة، وإلا فإن المقتص ليس ظالماً حتى يمكن أن يوصف عمله بأنه سيئة، فالله تعالى إنما أسماها كذلك فمن باب ما يسمى بالتقابل اللفظي حسب

(٢) الشورى: ٤٠.

(١) طه: ٥٢.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩.

تعبيراتها اليومية .

إذن التعبير بقوله : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ هو من باب التقابل اللفظي ، وإلا فإنه ليس هناك شيء غائب عن علم الله ؛ لأن العوالم كلها مطويات بيمينه بما تشتمل عليه من هذه المجاميع الهائلة بذواتها وأنفسها . وهذا ما يعبر عنه بالعلم الحضورى ، وهو مقابل العلم الحسولى الذى يكون عندنا ، فالإنسان يعلم بالأعم الأغلب من الأشياء علماً حصولياً ، أى أن صور الأشياء تنطبع في ذهنه بخلاف الباري ؛ فإن علمه بالأشياء ليس كذلك بل إنها حاضرة بأنفسها لديه ؛ إذ لا يوجد في عالم الوجود شيء غائب عن علمه تعالى : ﴿لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾^(١) .

إذن فالمقصود من قوله تعالى : ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ هو التقابل اللفظي ، وليس معناه أن الله تعالى ينسى أو يسهو أو يغيب عن علمه شيء . والآن لنر ما هو الهدف الذى ندبنا الباري لكي نتذكر من أجله ؟ وما هو الشي الواجب علينا تذكره ؟ إن الذى يمكن أن يذكر في هذا المقام أمور :

الأمر الأول : صنع الإنسان الصالح

إن الله تعالى يريد أن يصنع الشخصية الإسلامية من داخلها ؛ ذلك أن الشخصية لها غطاؤها وغلافها الذى يكتنفها ، وهو الجسد بما فيه من فعاليات ، والله تعالى حينما يندبنا إلى بناء الشخصية بناء إيمانياً متيناً وبناء خلقياً رصيناً فإنه إنما يحثنا على اتباع هذا الطريق ، والتزام ما أراده منا ، مما يدخل في صلب عملية البناء هذه .

طرق بناء الشخصية

وعليه فإن عندنا طريقين لتحقيق هذا الهدف، أعني بناء الشخصية الإسلامية بناء سليماً، هما:

الطريق الأول: أن تقوم ببناء الشخصية من الداخل. وهو ما سيُطرح خلال موضوع محاضرتنا هذه على امتداد مساحتها.

الطريق الثاني: أن نفرض على الشخصية بناء من الخارج؛ لأن الشخصية تتميز بأن لها استعداداً ضخماً للفساد بما فيها من غرائز ملغومة ورغبات عمياء لا تعرف العنصر الخلقي إطلاقاً؛ فغريزة الجمع تطالب بالإشباع، وغريزة الجنس تطالب بالإشباع أيضاً، وكذلك غريزة الأنانية التي توجد عند بعض الناس دون أن يهتمهم مصالح الآخرين بل كل ما يهمهم هو أنفسهم وإشباع أنانيتهم. فالذي يستحوذ على أمثال هؤلاء هو الغرور والتعالي والاتقياد للنفس ورغائبها فيعتدي على العدل والإنسانية والمجتمع إرضاء لغروره. فالغرائز كما قلنا عمياء لا تعرف ما يوجهها.

الأمر الثاني: وظيفة العقل والضمير في حياة الإنسان

أما العقل فلا علاقة له بالغرائز، ولا يتدخل في العنصر الخلقي بل إنه يتعامل مع المحيط ليحافظ على الشخصية أن تتحطم. وهو لا يقرر أن السرقة حرام لكنه يوجه صاحبه إلى خطورتها ويبين له أن السرقة عاقبتها قطع اليد مثلاً أو السجن، أي أنه سيتعرض للعقاب. فوظيفة العقل إذن هي التعامل مع المحيط والبيئة الخارجية دون أن يكون له تدخل في توجيه الجانب الأخلاقي، كما أنه لا تعامل له مع العنصر الأخلاقي أبداً. إن عنصر الأخلاق هو مهمة الضمير الذي يحدد طبيعة عمل الإنسان فيما إذا كان صالحاً أو

طالهاً، فهو مثلاً يئنه صاحبه إلى أن السرقة أمر غير محبذ بل هو أمر مذموم وبالتالي يجب عليه اجتنابه .

ومن هنا فإن وظيفة العقل تحديد الشخصية وحفظها، ولذا كان التعامل العقلي جامداً ليس فيه أريحية الخلق، أمّا الضمير فهو الذي يتوفر على هذه الأريحية والذي يبين أن هذا الفعل صحيح وهذا الفعل قبيح .

إذن فالقرآن الكريم يريد بناءنا من الداخل؛ لأن البناء إذا كان من الخارج فقط كان بناء فاشلاً غير صحي، وأكبر دليل على هذا هو حال البشرية كلها، فلو أردنا أن نعرف كم فيها من الناس الطاهري الذيل لوجدنا أنهم قلة . أمّا الأصناف غير الطاهرة فهم للأسف الكثرة الغالبة . وهذا شيء مؤلم؛ إذ أن المفروض بالإنسان أن يكون فيه قابلية النمو، لا أن يستمر في الهبوط دون أن يستثمر تلك القابلية في الارتقاء إلى مصاف الملائكة عبر تنمية الخلق والكرامة والإيمان . إن من يلتزم بذلك يعدون قلائل إذا ما قيسوا بعامّة الناس؛ ولذا تجد أن القرآن الكريم يذكر هذا ويقرّره بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾^(١) .

فالدين يقول : إن هذه المؤسسات الموجودة هي من صنع الإنسان والمحيط؛ ولذا فإنها فشلت في صنع الإنسان الصالح؛ فالمدرسة فشلت في ذلك وكذلك المصنع . ففي المدرسة تجد النابغة العبقري الذي يحصد العلامات العالية، ثم يدخل المصنع بما يمتلك من أصابع سحرية في مختلف أبعاد المعرفة، لكنه عندما يخرج إلى المجتمع فإنه يكشر عن طبيعته التي لا تكون

بمستوى أدنى من مستوى الوحش الكاسر. على أية حال إن مثل هذا يكون كل همه أن يحقق مصلحته الشخصية حتى ولو هلك شعب بكامله. وهذا هو خلق المستعمر الذي يتعامل به الآن مع الشعوب المستضعفة؛ ذلك أن كل همه أن يجد سوقاً لتصريف بضائعه ومنتجاته ولو كان ثمن ذلك قتل الناس. فالمهم أن يجد مجالاً لاستثمار طاقاته ولو كان على حساب الناس.

إن العلم بما يمتلكه من إمكانيات لم يستطع أن يبنّي الإنسان كما يراد له أن يبنّي حتى الآن، وهذه أوروبا يشهد تاريخها على ذلك مع أنها قد مرت بأدوار حضارية من المفروض أن يصل فيها الإنسان إلى مصاف الملائكة. غير أن واقعه خلاف ذلك، فهم يتعاملون مع الإنسان بلغة (How much?) أي (كم تملك؟)، في حين أن المقابل إنسان له كرامة يجب أن تراعى، وإنسانيّة ينبغي المحافظة عليها، وأن كل هذه الأشياء التي تقاس بالمقياس المادي ستذهب؛ لأنها أشياء تافهة.

وهذه اللغة (كم تملك؟) لا تخلق الإنسان عبر الحياة، بل الذي يخلقه هو الموقف السامي والخلق الإنساني؛ ولذلك تجد الأنبياء ﷺ أعلاماً واضحة على الطريق؛ إذ أنهم صنعوا الإنسان المؤمن الصالح، في حين أن الحضارات صنعت الإنسان المادي الذي يتعامل مع كل الموجودات تعاملًا ماديًا بعيداً عن التعامل الروحي النابع من الإنسان الروحي الذي صنعتها النبوات.

فالإنسان الأوروبي اليوم تجد أن خلقه مبنية على أساس مصلحي؛ لكي يجذبك ويستفيد منك كبضاعة في سوق تصدير بضائعه، وفي أحسن الأحوال يتعامل معك كمستهلك لتلك البضاعة. فالأخلاق في نظره وسيلة للتعامل مع الطرف الثاني لكي يكسبه، في حين أن الأخلاق التي تصنعها

النبوّات هي : «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(١). فهذا هو ما تصنعه النبوّات : «ما صنعت الجميل إلا لأنّي رأيته جميلاً».

إذن فالقرآن الكريم يريد منا أن نبني شخصيتنا من الداخل، وأن يبيّن لنا أن التربية التي تعتمد على ضوابط إنسانية بعيدة عن الدين هي تربية فاشلة؛ حيث إن المدرسة والمصنع والشارع قد فشلت كلها في تحقيق ذلك. أما الحضارة التي صاغت الشخصية فهي لم تقم بشيء سوى تعميق القيم المادية فقط، في حين أنها لم تتمكن من تخليق الإنسان بالشكل الذي يريده الله تعالى. فتعالوا إذن وعمّروا قلوبكم بالصلاة؛ كي تُفتح لكم ويُسرج فيها سراج الإيمان؛ حتى لا تعيشوا في ظلمة.

إن هذا السراج هو ذكر الله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فاجعلوا في قلوبكم هذا السراج، وأنيروا كهوفها المظلمة بضياء الإيمان والحق؛ حتى تسترشدوا في مسيرة الحياة.

المبحث الثالث: معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

لكن ما يقول المفسرون في تفسير هذا المقطع من هذه الآية، وهو قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ إن للمفسرين في هذا المقطع عدّة آراء منها:

الرأي الأول: أنه اذكروني بالرخاء اذكركم بالشدة

ويستدلّون على ذلك بما روي في كتب الصحاح من أن ثلاثة رهط ممن كان قبلنا انطلقوا، فبينما كانوا يتمشّون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار،

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨.

فدخلوه ليبيتوا فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال رجل منهم : قد عملت حسنة مرة ، اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي في طلب شيء يوماً ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً . فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه أمر الصخرة . فانفرجت شيئاً يسيراً لا يستطيعون الخروج معه .

وقال الآخر : قد عملت حسنة مرة ، كان لي فضل فأصابني شدة ، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً فقلت : والله ما هو دون نفسك . فأبت عليّ ، فذهبت ثم رجعت فذكرتني بالله ، فأبيت عليها وقلت : لا والله ما هو دون نفسك . فأبت عليّ وذهبت ، فذكرت ذلك لزوجها ، فقال لها : أعطيه نفسك واغني عيالك . فرجعت إليّ ، فناشدتني بالله ، فأبيت عليها وقلت : والله ما هو دون نفسك . فلما رأت ذلك أسلمت إليّ نفسها ، فلما تكشفتها وهممت بها ، ارتعدت من تحتي ، فقلت لها : ما شأنك قالت : أخاف الله رب العالمين . فقلت لها : خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء ؟ فتركها وأعطيتها ما يحقّ عليّ مما تكشفتها . اللهم إن كنت تعلم أنني قد صنعت ذلك لوجهك ففرّج عنا ما نحن فيه . فانصدع الجبل وانفرجت الصخرة حتى عرفوا وتبين لهم ، غير أنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج .

وقال الثالث : قد عملت حسنة مرة ، اللهم إنك تعلم أنني استأجرت أجراً

يعملون كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجل ذات يوم نصف النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه فعمل في بقية نهاره كما عمل الرجل منهم في نهاره كله، فرأيت علي في الذمام ألا أنقصه مما استأجرت به أصحابه؛ لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: تعطي هذا مثل ما أعطيتني؟ فقلت: يا عبد الله، لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم به بما شئت. قال: فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقه في جانب البيت ما شاء الله، ثم مرّ بي بقر، فاشتريت به فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله، فمرّ بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال: إن لي عليك حقاً. فذكرني حتى عرفته، فقلت: إياك أبغي، هذا حقك. فعرضتها عليه جميعاً، فقال: يا عبد الله، لا تسخر بي، إن لم تصدق علي فأعطني حقي. فقلت: والله ما أسخر بك، إنها لحقك مالي منها شيء. فدفعتها إليه جميعاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك ففرّج عنا. فانصدع الجبل وانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون^(١).

فالمهم أن كل واحد من هؤلاء يقول: قد ذكرت الله تعالى في هذه اللحظة، وهذا هو معنى ما ورد: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك الله في الشدة»^(٢).

(١) صحيح البخاري ٣: ٥١، ٩٦، صحيح مسلم ٨: ٨٩.

(٢) الكافي ٢: ٤٧٢ / ١، الدعوات: ٢١ / ٢١، مسند أحمد ١: ٣٠٧.

وقد وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام روايات كثيرة في الحث على الدعاء في الشدة قبل الرخاء، منها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: صوت معروف ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: إن ذا الصوت لا نعرفه».

الرأي الثاني: اذكروني فوق الأرض اذكركم تحت الأرض

وهذا الرأي مروي عن الجبائي ومجموعة من المفسرين . ومعنى ذلك أن الإنسان يجب أن يذكر الله تعالى في حياته كي يذكره الله تعالى بعد موته ، فهو مازال في الحياة فإنه يملك أن يتكلم وأن يعمل ، وبالتالي فإن عنده فرصة للذكر والعبادة فإذا مات ذهبت هذه الفرصة وغلق بابها . تقول الرواية : «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قيل : يا أهل الجنة ، فيشرفون وينظرون ، وقيل : يا أهل النار ، فيشرفون وينظرون ، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم : تعرفون الموت؟ فيقولون : هو هذا ، وكل قد عرفه . فيقدم ويدبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَأُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)»^(٢) .

فاللسان الذي يذكر الله تعالى به يعد لساناً نظيفاً طاهراً ذا مناعة عن المعصية ، أما اللسان الذي لا يجري عليه غير الألفاظ النابية التي يأبأها الشرع والخلق فإنه لا يعدو أن يكون في حالة ثرثرة؛ لأن الذكر الواقعي

وعنه عليه السلام أنه قال : «من تخوف من بلاء يصيبه فتقدم فيه بالدعاء لم يره الله ذلك البلاء أبداً» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «إن الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج في البلاء» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «من سره أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «كان جدي يقول : تقدّموا في الدعاء؛ فإن العبد إذا كان دعاء فنزل به البلاء

فدعا قيل : صوت معروف ، وإذا لم يكن دعاء فنزل به بلاء فدعا قيل : أين كنت قبل اليوم؟» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «كان علي بن الحسين عليه السلام يقول : الدعاء بعدما ينزل البلاء لا ينتفع به» .

الكافي ٢ : ٤٧٢ / ١ - ٦ .

(١) مريم : ٣٩ .

(٢) بحار الأنوار ٨ : ٣٤٤ ، مسند أحمد ٣ : ٩ ، صحيح البخاري ٥ : ٢٣٦ .

ينظف اللسان عن كل ما نهى الله تعالى عنه .

فكأن القرآن الكريم يخاطب الناس بقوله لهم : أنتم الآن في حال الحياة تملكون الفرصة والطاقة والقدرة وكل الإمكانيات المتاحة لكم فاستغلوها في ذكرى كي أذكركم بعد الموت في حساب القبر وفي الموقف .. اليوم الذي تبقى الروح فيه منتظرة رحمة خالقها : ﴿وَجُودُهُ يُؤَمِّنُ نَاصِرَةً﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةً ﴿١﴾ .

معنى ذكر الله الإنسان تحت التراب

إن معنى أن يذكر الله تعالى الإنسان تحت التراب هو إيصال الخيرات إلى روحه ، أما موضوع الجسد حينها وهل أنه يشعر بالألم أم لا فهذا شيء آخر ، وهو ليس مهماً ذلك أن الجسد غير معروض للصورة في هذه المسألة . وحتى لو قدر أنه انتهى وصار تراباً لكن تبقى المسألة عملية تذكير لنا بمآل هذا الجسد ، فالقرآن يريد أن يذكرنا بأن أعظم مشاكلنا تأتي من هذا الجسد ، فهو إن جاع فيجب أن نشبعه وإن عري فيجب أن نكسوه ، ويجب أن نسكنه في قصر أنيق وأن نركبه في سيارة فخمة وأن نشبع كل غرائزه . وكل هذه الأمور هي في حقيقتها مناشئ للمشاكل ، أي أن الجسد بالنتيجة هو السبب الوحيد لهذه المشاكل ، لكن ما هو مصير هذا الجسد؟ إننا في النتيجة نرميه لقمة سائغة تحت الأرض للديدان تعبت به؛ حيث ينتهي به في نهاية المطاف إلى هذا المصير المؤلم :

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر هل رأيت الأمن والراحة إلا في الحفائز

فأشارت وإذا للود عبث بالمحاجر

الرأي الثالث: أنه اذكروني بالطاعة أذكركم بالرحمة

إن عندنا نوعين من الذكر: ذكر باللسان وذكر بالعمل، ويجب على الإنسان أن يساوق ذكره اللساني ذكره العملي، فإن كان الحال خلاف ذلك لم يكن صاحبهما مؤمناً، ولذلك فإن بعض الناس تجده يذكر الله تعالى بلسانه أما عمله فهو عمل ذئب وربما أشد. ومعنى الذكر بالعمل أن يخلص الإنسان في عمله لله، وأن تكون يده نظيفة ولا يضيّع شيئاً من وقته بأمور تافهة تشغله عن ذكر الله، وخلاصة الأمر يجعل عمله كله خالصاً لوجه الله تعالى سواء كان هذا العمل زيارة مريض أو عطفاً على ضعيف. فكل هذه الأمور هي ذكر لله تعالى وهو من أعظم أنواع الذكر، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «يا عيسى اذكروني في نفسك أذكرك في نفسي»^(١).

إشكال

لكن يبقى أمر لا بدّ من توضيحه هو أن الإنسان لا يستطيع أن يشخص الرحمة، أو أن يشخص لوازمها؛ فربما يتساءل: أين هي الرحمة وهناك أناس يسعون بالشر، وهم مع ذلك يملكون الصحة والمال وكل شيء؟ وهذه الأمور يكون منشؤها عندنا النظرة القاصرة التي لا تدرك حقيقة الأشياء وما وراء الأشياء من حقائق، فهي نظرة محدودة ويجب ألاّ نقيس الأمور بمقاييسنا الخاصة. فالله تبارك وتعالى عندما يعطي ويمنع أو يصحّ ويسقم أو يفقر ويعني فإنما يفعل كل ذلك لحكمة، فالعطاء لمصلحة تقوم بتنظيم المجتمع قد يجهلها الإنسان.

(١) الكافي ٨: ١٣٨/٢، وقريب منه في المحاسن ١: ٤٤/٣٩، الكافي ٢: ٤٩٨/١٢.

المبحث الرابع: حقيقة الشكر

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، الشكر هو مقابلة النعمة والإنفاق منها، فهناك ممن أنعم الله تعالى عليهم من يبارزه بالمعصية صباح مساء، ويكفر به ويضع نعمه في غير مواضعها في حين أن البعض الآخر يفعل عكس ذلك فهو يشكر الله جل وعلا على كل نعمة، ويضع نعمه في مواضعها. هذا الأمر يجب أن يجري في الدنيا مع الإنسان أيضاً، فيشكر أخاه إذا أنعم عليه: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»^(١).

غير أن بعض البشر ممن لا تحكمه القواعد الخلقية أو الضوابط الدينية حينما يقدم له أخوه الإنسان خيراً أو ينعم عليه بنعمة فإنه يقابل ذلك بالإساءة وإلحاق الأذى بمن أحسن إليه، وكأن هذه النعمة أو هذه المساعدة تزيد لونا من الحقد على الآخرين وعلى المنعم نفسه. ومثل هذا الشخص لا يعدو أن يكون جملة من العُقد والازدواجية وأن يكون عبارة عن قطعة من الشر؛ ولذلك فإن الحيوانات في بعض الحالات تفضل على الإنسان فيما إذا كان بهذه الصفة الآتفة، يروى أنه كان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج في بعض متنزهاته ومعه ندماءه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته، فأكلا وشربا، ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين، فعرف الأمر، فأنشأ يقول:

فيا عجباً للخل يهتك حرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصونُ

(١) الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية ١٠: ٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ٢٦٢.

وما زال يرعى ذمّي ويحوطني ويحفظ عرسي والخليل يخون^(١)

فلك أن تتصور أن الحيوانات يكون عندها أحياناً للنعمة وقع حسن، بخلاف بعض الناس الذين يحدث عندهم الإحسان ردة فعل سلبية تجاه المحسن إليهم. إن الأخلاق والدين وقواعد الإنسانية تأمرنا أن نحسن إلى من يحسن إلينا، وأن نستثمر هذا المقلع الإحساني الذي يقبع داخل نفس الإنسان المحسن، ولا نضطره إلى أن يتعامل معنا بعد ذلك تعاملًا سلبيًا فيما لو قابلنا إحسانه بالإساءة. فسوء التربية هو الذي سينتهي بالإنسان حتماً إلى ألا يشكر، مع أن الشكر هو من أبرز المظاهر السليمة في السلوك الإنساني تجاه كل إحسان تقصد به الإنسانية.

والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿اشْكُرُوا لِي﴾ فليس معناه أن الله تعالى مفتقر إلى الشكر، وإن فسّر ذلك بهذا المعنى فهذا يدل على طبيعة فهمنا المخطوء لحقيقة الشكر، ومن هذا ما يتصوره البعض من أن الشكر هو قول الإنسان: الحمد لله، حينما ينتهي من طعامه مثلاً، والواقع خلاف هذا؛ إذ أن الشكر هو تعبير عن إظهار النعمة؛ فإننا قد أمرنا بأن نظهر آثار نعمة الله علينا^(٢).

يروى أن الرشيد كان عندما يخرج من قصره يخرج العبيد معه وهم يحملون بدر الدنانير، فكان كلما مرّ على شاعر جلس قربه واستمع إلى شعره ثم أعطاه بكرة، وكذلك يفعل مع الأدباء وغيرهم من أهل الفن. وقد مرّ ذات

(١) بحار الأنوار ٢٦: ٥٨.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١.

يوم بمنزل الأصمعي، فقال لجعفر: هيا بنا لنمضي إليه. فمضيا إليه خفية ومعهما خادم معه ألف دينار؛ ليدفع ذلك إليه، فدخلوا داره فوجدوا كساء جرداء، وبارية سملاء، وحصيماً مقطوعاً، وخباء قديمة، وأباريق من خزف، ودواة من زجاج، ودفاتر عليها التراب، وحيطاناً مملوءة من نسج العناكب، فوجم الرشيد، وسأله مسائل غثة لم تكن من غرضه، وإنما قطع بها خجله، وقال الرشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفس هذا المهين، قد بررناه بأكثر من خمسين ألف دينار وهذه حاله، لم تظهر عليه آثار نعمتنا؟ والله لا دفعت إليه شيئاً. وخروج من عنده ولم يعطه^(١).

فلسان النعمة يجب أن يكون ناطقاً بالشكر، أي أن الله تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة وجب على الإنسان أن يعتقد بجملة أمور، منها أن هذه النعمة من الله جل وعلا تفضلاً عليه؛ ذلك أن بعض الناس يظن أنه إنما رزق هذه الأموال لما يملك من علم وعبقريته فهو بعلمه وعبقريته جمع هذه الأموال وكدها. مع أن مسألة الرزق ليس لها علاقة بالعبقرية أبداً، إذ من الممكن أن تجد أحداً لا يعقل يمينه من شماله وهو يملك الأموال الطائلة وقد تجد عبقرياً يعوزه الرغيف.

ومن الأمور التي يجب على الإنسان محل النعمة أن يعتقد بها هو أداء حق هذه النعمة بالشكر. والشكر ليس فقط في القلب أيضاً، بل يجب أن يصاحبه شكر اللسان، فلسان المرء يجب أن يلهج دائماً بذكر الله تعالى واليد كذلك يجب أن تساهم في عملية الشكر هذه بأن تمتد إلى المحتاج والجائع والقلب

الكسير والمرأة البائسة يد العون وكلّ مساعدة، أو إلى عائلة لتنقذها من أن تقع في أحضان الشيطان. وهذا هو المعنى الذي يصوّره الشاعر، فيقول:

أفادتكمُ النعماء منّي ثلاثة يدي ولساني والضميرُ المحجّباً^(١)

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فإنما يريد من الشكر أن يأخذ عندنا أبعاداً واسعة متفرقة. ومن أبعاد الشكر الإنفاق، وقد وصل الأمر عند البعض أن يكون شكرهم إنفاق نفوسهم:

كم بين قوم إنما نفقاتهم مالٌ وقومٌ ينفقون نفوساً^(٢)

وأبرز مصاديق هذا الإنفاق هو شكر الإمام الحسين عليه السلام الله على عطائه تعالى له، وكان عاقبة ذلك الشكر ما نراه الآن من أمر الحسين عليه السلام الذي نظر إلى الأجيال نظرة بعيدة، وأدرك أنها سوف تحتضنه فكرة في الرؤوس وشعاراً على الأفواه وروحاً في الضمائر. إن كل هذه الأشياء كان يدركها الحسين عليه السلام. لكن ماذا قدم شكراً على هذه النعمة؟ لقد قدّم نفسه الشريفة المقدسة، وقدم الشباب من آل محمد صلى الله عليه وآله شكراً عليها، وكان أن قدم ولده علياً الأكبر الذي رجع به من أرض المعركة بعد أن سقط شهيداً وهو يحمله على يديه ثم وضعه في الخيمة مع الشهداء من القرابين التي قدمها بين يدي الله جل وعلا ثم جلس عندها وأخذ يطيل النظر إليها وقد غطى الدم كلّ محاسنهم، فهرولت إليه ليلي قائلة:

(١) البيت للإمام الشيباني الشافعي. تفسير القرآن العظيم ١: ٢٤، ٣: ٥٣٦، البداية والنهاية ١٣٥: ١.

(٢) البيت لأبي تمام. ديوان الحماسة ١: ١٨٩، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٦٣.

شـالـفايـده وياك يـبـني أنا الوالـده وهـيـن تـذـبـني

ردتك عليه البيت تبني

يَبْنِي عَلِي يَا فَتْشَةَ الْعَيْنِ يَبْنِي صَوَابِ الضَّاهِدِ وَيْنَ

❖ ❖ ❖

عمود الوسط بالشايل البيت أنه بیش اجیت و بیش ردیت

يا واحدی عندی شخّیت

ومحاً الردي يا قاتل الله الردي منه هلال دجى وغرة فرقى

يا نَجْعَةَ الْحَيَّيْنِ هَاشِمٍ وَالنَدَى وَحُمَى الذَّمَارَيْنِ الْغُلَا وَالسُّودَى

فلتذهب الدنيا على الدنيا العفا ما بعد يومك من زمان أرغيد



القصص القرآني والعبرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أسرار التاريخ

هذه الآية الكريمة نصّت على هدف من أهداف القرآن الكريم التي يريد أن يوجهنا بها. ونحن نعرف أن القرآن الكريم فيه قصص وجوانب تاريخية إضافة إلى ما فيه من أحكام ونصائح وإرشادات ووسائل هدى . فكلّ قصة وردت في القرآن الكريم لها هدف معين يحدد طبيعتها؛ وليس هذا مختصاً بالقصص أو الحوادث التاريخية وحدها بل إن كل ما في القرآن هادف، بمعنى أن الهدف الموجود في القصص القرآنية هو عينه الموجود في كتابة

(١) يوسف: ١١١.

التاريخ، فقراءة التاريخ يراد منها الاتعاظ والاستعبار بما فيه من حوادث وتجارب مرت بها الأمم السابقة وكذلك الحال مع القصص القرآني فهي تعكس تجارب السابقين للآحقين فيسجل اللاحق تاريخه ليصبح وسيلة من وسائل العبرة له ولمن يأتي بعده.

وفي التاريخ أسرار وحكم وخفايا يجب على كل فرد أن يطبقها على المستقبل ليستفيد منها، وهذا هو الهدف من دراسة التاريخ دراسة معمقة؛ حيث يحاول هذا الدارس أن يستفيد العظة والعبرة منه ثم يستنبط منه قاعدة يستطيع من خلالها أن يفسر الكثير من الحوادث اللاحقة أو حتى التنبؤ بها. وكثير من دارسي التاريخ يتخذ له مثلاً أعلى من إحدى الشخصيات التي يجعلها مجالاً لدراسته ويخضعها لأبحاثه، ويحاول أن يجسد شخصية هذا المثل الأعلى. فحينما يقرأ أحدنا سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أو سيرة أي بطل آخر أو سيرة أي إنسان عاش في الجاهلية فلا بد أن يكون لديه هدف واضح دفعه إلى قراءة سيرته، وهذا قد يفسره أنه يريد أن يتخذ من هذا الشخص مثلاً أعلى له في الحياة يحذو حذوه ويسير على خطاه وينتهج منهجه. ولذلك فإن بعض الناس حينما تسأله عن مثله الأعلى فإنه يجيبك على الفور بأنه البطل الفلاني أو العالم الفلاني، أو الأديب الفلاني أو غير ذلك.

إذن هناك عظة وعبرة في التاريخ الذي يشتمل أيضاً على حوادث هي عبارة عن أضواء تنير طريق الإنسانية أمامها. فالإنسان حينما يرى حادثة فإنه يمكن أن يستفيد منها ويتعظ ويعتبر؛ حتى لا تتكرر في حياته سيما إذا كانت عاقبتها غير حميدة. فالإنسان العاقل هو من يتعظ بغيره، ويجتنب تكرار التجارب غير الحسنة، وذلك مثله كمثل من يمشي خلف إنسان ثم يراه

يقع في بئر فإن عقله يجب أن يملي عليه ألا يتقدم في الطريق نفسه ويقع فيما وقع فيه . وبعبارة أخرى أنه يتخذ منه قدوة في هذه الحالة .

المبحث الثاني: فلسفة القصص

إن القرآن الكريم يريد أن يلخص لنا تلك التجارب ويخرج منها بنتيجة نستفيد منها في حياتنا، وهو ما يسمى بفلسفة القصص أو فلسفة التاريخ . فمثلاً قصة هابيل وقايل وقصة إبراهيم عليه السلام وقصة نوح عليه السلام حينما صنع السفينة وأخذ قومه يستهزئون به ، وقصة يوسف عليه السلام ، وكذلك العشرات من القصص غيرها يريد الله تعالى منا أن نأخذ منها العبرة والفائدة . ونحن بدورنا يجب ألا نقرأ تلك القصص قراءة سطحية ، وألا تمر علينا ونحن نتسلى بقراءتها فقط ، بل الواجب علينا أن نتواصل معها لاستنباط السنن المودعة فيها .

وهذا هو شأن الكثير من الناس مع القصص التي وردت في القرآن ، بل ربما تعدى الأمر ذلك إلى مسألة هجر القرآن وعدم القراءة فيه ، فيُقصّر مقتنيه اقتناءه على البركة ولأجلها أما أن يقرأ به كل يوم ويناجي الله تعالى عبره كل صباح فهذا غير وارد في عرف البعض . فالقرآن لم ينزله الله تعالى لأجل البركة فقط ولا أنزل لأجل أن يفرغ محتواه الاجتماعي . إن هذه المحاولات التي ترمي إلى هذا الهدف هي محاولات مدسوسة ولا زالت قائمة حتى الآن؛ حيث إن الكثير من الناس يحاول أن يصرف القرآن عن أهدافه وأن يفرغه من محتواه .

وتحضرني هنا قصة من القصص ذات العلاقة بهذا الشأن ، ذلك أن مروان آخر خلفاء بني أمية حينما خرج بجيشه لقتال جيش العباسيين ، كان تعداد جيشه مئتي ألف مقاتل ، وبعد أن تقابل الجيشان ، أخذ يفكر بطريقة يتغلب

بها على جيوش العباسيين، فانقدحت في ذهنه فكرة استدعى على إثرها خازن أمواله وسأله عن مقدار ما معه من أموال، فأجابه بأنها كثيرة، فأمره أن يخرجها فيضعها بين يدي العسكر وسط المعركة، ثم أمر مناديه أن ينادي بأنه قد خصّص لكلّ من يأتيه برأس جندي من جيش العدو مبلغ مئة درهم من المال، ولمن يأتيه برأس قائد منهم مبلغ ألف درهم. وهو بهذا يتصوّر أنه يشحذ همم الجنود المقاتلين، ويحرز النصر.

فلما أُلقيت الأموال إلى جنب الجند ورأوها مالوا عليها ينتهبونها، فرآهم معسكر العباسيين فتصوّروا أنهم انهزموا، فكروا عليهم بسيوفهم كرّة عنيفة فانهزموا وقتلوا منهم مقتلة كبيرة، فهرب مروان مع عائلته إلى قرية اسمها أبو صير قرب الفيوم في مصر، وهي منطقة أقباط، فدخل إحدى الكنائس هو وعائلته، لكن القائد العباسي عامر بن إسماعيل لحقه بعد أن نمّ عليه أحد غلمانه كما يقول المؤرخون، وكان أن أمر بهذا الغلام فطرح فاستلّ لسانه ورمي به.

ولما انتهى عامر بن إسماعيل إلى بوصير، هرب مروان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه، ولم يكن قد تخلّف معه كثير منهم، فانتهاوا في غبش الصبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق، ليس للخیل عبور إلّا عليها، وعامر وراءهم حتى أدركهم، فلوى مروان دابته إليهم وحاربهم فقتل. وبعد مقتل مروان نُقِفَ رأسه ونفض مخّه، وقطع لسانه وأُلقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان.

ولما قعد عامر بن إسماعيل على فراش مروان، وطلب أن يؤتّى بابنته الكبرى، جاءت مختنقة بعبرتها، ثم قالت له: إن دهرًا أنزل مروان عن عرشه

وأجلسك على فراشه، وتركك تنادم كبرى بناته لدهر أسدى إليك عظة وعبرة^(١).

ولذا فإن القرآن الكريم يحاول أن يبين لنا أنه ليس لمجرد التبرك بل إن فيه أبعاداً يجب على الإنسان أن يستشفها بعيداً عن جعله حرزاً يعلق على الأعناق. فالأمر الذي لا بد من الإذعان به هو أن القصص لا تعدو أن تكون عظات وعبر؛ وما الدنيا إلا مخزن هائل ومنجم من العظات التي يجب على الإنسان أن يقتلع منها كل حين ما يريد. فالقرآن الكريم في حقيقته هو مدرسة تتجلى فيها كل تجارب الآخرين، وكل العلوم التي كان بالإمكان التعرض إليها في ذلك الوقت. والقرآن الكريم هو معلم ومربٍّ ومهذب يجب أن نأخذ منه الاعتبار كما نأخذ منه الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية وغيرها.

المبحث الثالث: التفسير التخصصي للقرآن

وقد يسأل سائل فيقول: كيف يمكن أن نستوحي العبرة ونستنبطها من القرآن؟ وما هي الطريقة المثلى لذلك؟ هل نأخذه من التفسير والتفسير ربما كان معقداً نوعاً ما حينما يقرؤه القارئ العادي فإنه لا يتمكن من فهمه، كما أن بعض كتب التفسير قد يغلب عليها طابع معين، فعلى سبيل المثال كتاب (التفسير الكبير) للفخر الرازي تفسير ضخم لكنك حينما تقرؤه فإنما تقرأ كتاباً فلسفياً بما فيه من دقة المعاني. وحينما تقرأ تفسير (الكشاف) فإنك تجد كتاب معاني وبيان، وعندما تقرأ تفسير (التيان) للشيخ الطوسي فإنما تقرأ

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ٢٤٦، شرح نهج البلاغة ٧: ١٣٠، ١٦٠، ١٨: ٣٦٥.

كتاب لغة وأدب. ولعل أفضل التفاسير من حيث كونه جامعاً هو تفسير (مجمع البيان) للطبرسي؛ لما فيه من تبويب وتفصيل. لكن هل هو تفسير وافٍ بالغرض؟ الجواب: لا، ولقد أشرت أكثر من مرة فيما سبق إلى أن مسألة تفسير القرآن يجب أن يوضع لها منهج غير هذا المنهج المتبع حالياً، وعلماء الإسلام طبعاً هم المسؤولون عن هذا الأمر وتنفيذ هذا المشروع.

والذي أريده من هذا أنه ليس من المفروض أن يقوم بتفسير القرآن رجل واحد متخصص بجهة واحدة فيفسر القرآن على ضوء تخصصه؛ لأن القرآن ليس فيه جهة واحدة بل هو عالم متكامل. ولنفرض أن عالماً مختصاً بالتفسير يقوم بتفسير قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾^(١) الذي معناه: اقصد التراب النظيف وتيمم منه، فإن هذا العالم سوف يشرح هذا المعنى بشيء من الفقه ويذكر الحكم الشرعي المناسب؛ لأن وظيفته هي أن يذكر الحكم الشرعي الموجود في الآية. لكن ربما كانت تلك الآية تشتمل على جوانب علمية أو طبية أو اقتصادية أو اجتماعية أو قانونية أو كان لها علاقة بعلم الفلك؛ فلذا كان لا بد من أن تكون هنالك لجنة تشمل كل الاختصاصات لتقوم بتفسير القرآن الكريم تفسيراً تخصصياً قائماً على أساس التنوع في جهات كل آية وفي جوانبها.

وأنا لا أدعي أن القرآن الكريم هو كتاب علمي التخصص، لكن أقول: إنه يشير إلى القوانين العلمية غالباً، والمفسر الواحد ذو الاختصاص الواحد لا يستطيع أن يحل مشاكل الدنيا كلها، ولو قمنا بهذا لكنا قد أوقعنا أنفسنا في

عمل لا يعد ولا يعتبر عملاً علمياً كاملاً. فالواجب إذن أن تجزأ الآية وتشرح من كل جوانبها المحتملة؛ ليرى ما إذا كان فيها أمور علمية تطبيقية أو قواعد اجتماعية أم لا. فإن كانت كذلك كلف كل طرف في تلك اللجنة بمعالجة الجانب الذي يقع في مجال اختصاصه من الآية.

القرآن ولجان التفسير

إن هنا نقطتين أود أن أشير إليهما:

الأولى: ضرورة معرفة دقائق اللغة العربية قبل الإقدام على التفسير

وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفَرَادَىٰ﴾^(١) فإنه قد يرد تساؤل هو لماذا كانت كلمة ﴿وَفَرَادَىٰ﴾؟ إن ما يمكن أن يقال هنا هو أن الفرد إذا ترك يفكر لوحده فإن تفكيره سيتصف بطابع الموضوعية والاتزان بشكل أكبر مما لو لم يترك لوحده؛ ذلك أن لغة السلوك الجمعي سوف تؤثر فيه وفي آرائه، وسوف يطفئ عليه ذلك السلوك مما يؤدي به إلى أن ينسخ شخصيته دون أن يكون له رأي.

السلوك الجمعي

لقد ذكرت أكثر من مرة أنني رأيت رجلاً ذات مرة يجري في السوق بسرعة وهو ينادي: «خلفهم، خلفهم» أي اعدوا خلفهم واتبعوهم، فقلنا له: من هؤلاء؟ قال: لا أدري، الناس يقولون هذا.

إن هذا المثل يعبر بشكل واضح عن السلوك الجمعي الذي يجذب الإنسان فيجعله لا يعي تصرفاته ولا يشعر بما حوله. والقرآن الكريم قد أشار إلى هذه

الظاهرة النفسية وحدد هذا القانون (قانون السلوك الجمعي)، فالواجب هنا إذن أن نعطي هذا المقطع من الكتاب الكريم إلى عالم النفس أو عالم الاجتماع لشرح لنا قوانين السلوك الجمعي ويبين لنا طبيعته؛ كي يفسر لنا على ضوءه هذا المقطع الشريف، ويزيح الغبار عن غامض معناه. أما إذا أعطينا الكتاب الشريف إلى عالم واحد أو مفسر واحد فإننا يمكن أن نجزم بأننا سوف لن نضمن أن يكون التفسير كاملاً شاملاً؛ لأن قدرات المفسر الواحد محدودة ولا تنهض به لكي يفسر هذا الكتاب العظيم.. القرآن، بل إن مضامين القرآن ستتجاوز قدراته تلك وبالنسبة لن يكون هناك تفسير صحيح؛ وستبقى الكثير من الجوانب خالية بهذا اللحاظ.

الثانية: أن القرآن الكريم لابد لتفسيره من عمل جماعي

وهي نقطة هامة مترتبة على النقطة الأولى ونتيجة لها؛ ولذا ينبغي التنبيه إليها، وهي أنه لابد أن تشرف على تفسير القرآن لجنة تتصف بروح الموضوعية؛ لأن هنالك بعض الآيات التي يمر بها بعض المفسرين فيتجاهلون ولا يشيرون إليها أبداً، فمثلاً تفسير (صفوة البيان) لمحمد حسنين مخلوف - وهو من شيوخ الأزهر - حينما يصل صاحبه فيه إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، فإنه يتجاوزه ولا يذكره أبداً.

والسبب واضح لا يحتاج إلى بيان؛ لأنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، والمفروض أن المفسر حينما يتصدى لهذا الأمر فإنه يجب أن يكون موضوعياً ولا يميل لجانب على حساب جانب آخر، فالآية سواء كانت نازلة في أمير المؤمنين عليه السلام أو في أبي بكر أو في عمر فإن المفسر يجب عليه ألا يتجاوزها بل يفسرها على ضوء ما يمليه عليه ضميره. أما نفي هذا الأمر عن هذا الشخص أو إثباته له فإن ذلك يعتمد على الدليل الذي يكون هو الحكم الفصل في هذا الشأن. وعليه يجب أن تُشرح الآية ولا يُخس أحد حقه إذا كانت نازلة فيه، لا أن تُتجاوز، وغاية ما يحق للمفسر هو أن ينفي صحة هذه النسبة إلى هذا الشخص شريطة أن يكون نفيه مستنداً إلى أدلة لا يرقى إليها الشك ولا يطالها النقص.

ولنا أن نتساءل فنقول : ما الذي يجعل المفسر يتجاوز تفسير آية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام؟ ولماذا هذا الحقد؟ إن القرآن الكريم يجب أن يكون المرآة العالية الصافية التي تعكس عليها المعاني العالية والأخلاق السامية والصفات الصافية، والذي من خلاله تتفاعل مع الدنيا بأكملها، لا أن نملاه حقداً أو نغمر حقائقه ونطمس معالمه.

على أية حال إن الآية الكريمة تقول : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فهي تريد أن تنبهنا إلى أن القرآن حينما يجيء بالقصة فإنه لم يجر بها لأجل أن يتسلى بها قارئها حينما يقرأها أو ليتبرك بها، بل يريد منه أن يستنبط منها ما تحوي من خبرة وتجربة؛ لكي يتحقق الهدف من نزول القرآن ومن قراءته. ذلك أن قارئ القرآن الذي لا يمكن أن يفهم حدود القرآن لا يستطيع أن يحقق الهدف من تنزيل القرآن.

التفرّد في دراسة الحوادث التاريخية

وها نحن قد فهمنا مراد الله تعالى من قراءة القرآن وأنه فهم فلسفة التاريخ ودراسة التاريخ دراسة شاملة واعية ذات عوامل متعددة، لا أنها تعتمد على عامل واحد كما فعل البعض حيث إنهم نظروا إلى جانب واحد وأغفلوا بقية الجوانب الأخرى التي لا يصحّ إغفالها؛ فماركس مثلاً يفسّر التاريخ تفسيراً مادياً بعيداً عن الدين، وفرويد يفسّره بالعامل الجنسي، وقد تجد ثالثاً يفسّره بالعامل الديني دون لحاظ أثر الجانب المادي أو أثر الجوانب الأخرى، لكن بقي علينا أن نشير إلى أن النظر إلى القرآن من جهة واحدة هو أمر مغلوط ونظر للأمور بعين واحدة. فالذي يريده القرآن الكريم هو أن يوضع منهجاً متكاملأً في تفسير أي حادثة تاريخية، فهو حينما يتناول حادثة ما فإنه يضع أصابعه على الأضواء وعلى الظلال. وبالنتيجة فإنه يعالج المشكلة على ضوء العامل المادي والعامل الاقتصادي والعامل الاجتماعي وإلى ما هناك من عوامل يمكن أن توجد في إطار تلك الحادثة.

ولو أخذنا قصة قاييل وهابيل وتأملنا فيها على ضوء المنظار القرآني لها؛ لوجدنا أن القرآن قد شرحها شرحاً كاملاً وبين أسباب قتل هابيل، وصرّح بأنها الحسد، وذلك حينما قربا قربانين فتقبل الله تعالى قربان هابيل ولم يتقبل قربان قاييل. لكنه من جانب آخر وضع يده على منطقة الخير في نفس الإنسان، وذلك حينما راح صراع الضمير الذي اعتلج عند قاييل يخزه بعد أن قتل أخاه ظلماً. كما أنه وضع يده على عامل ثالث فبين كيف يمكن أن يبتعد الإنسان عن مواضع الحسد وهكذا.

وهكذا نلاحظ هنا أن القرآن الكريم هو عبارة عن منهج متكامل لا يفسّر

أحداث التاريخ على ضوء عامل واحد، مما يستلزم بالنتيجة إغفال بقية العوامل الأخرى التي ربما يكون تأثيرها أشد وأكبر من ذلك العامل المنظور.

المبحث الرابع: أن القرآن مصدق لما بين يديه من كتب

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وهذا أول هدف من أهداف القرآن، وهو العامل الذي تتصف فيه روحه دائماً؛ بأنه إنما جاء ليؤيد الكتب السماوية التي جاءت قبله؛ ليدعم الأمم السابقة ويكرمها بذكر أحداثها وطلب الاعتاظ بها. فقد ذكر القرآن أمة موسى ﷺ وأمة عيسى ﷺ وأمة إبراهيم ﷺ، وذكر الجو المحيط بآدم ﷺ وذكر الأحكام مقتبساً منها الكثير مما هو في التوراة أو في الإنجيل وعرضها. وهكذا يكون القرآن قد جاء ليصدق الذي بين يديه.

وهذا يعني أن القرآن لم يأت ليعادي الأنبياء ﷺ الذين عاشوا قبل النبي ﷺ أو يعادي كتبهم أو يصطدم بها أبداً، وإنما جاء ليبين ما تبقى من شريعة عيسى ﷺ فما كان منه صالحاً للحياة أبقاه، وكذلك الحال مع شريعة موسى ﷺ، أما إذا كان الحكم في هاتين الشريعتين مثلاً لا يصلح للزمن الذي نزل فيه القرآن فإنه سينسخ.

وعليه فإن القرآن إنما جاء مصداقاً لما بين يديه من كتب منزلة من السماء. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن هذه الشرائع التي جاءت قبل النبي ﷺ إنما عالجت المشاكل التي وقعت في وقت أولئك الأنبياء ﷺ أما الآن - زمن نزول القرآن - وقد تطورت الحياة واتسعت وازدادت متطلباتها فإن تلك الشرائع لم تعد كافية لوضع حلول لهذه المشاكل المستحدثة؛ فلذا جاء القرآن الكريم ليضع هذا العلاج لها.

إن هذا هو موقفنا من الأديان السابقة، ونحن نسأل: هل وقفت الأديان السابقة منا هذا الموقف؟ الجواب طبعاً: لا؛ لأن أقل نظرة إلى تاريخ أوروبا وهو يمر بالنبى ﷺ نكتشف أنه لا يذكره ﷺ بما ينبغي عليه أن يذكره من التبجيل والإجلال، فهو لا يحترمه فضلاً عن أن يؤمن بأن رسالته من السماء، فالمستشرقون مثلاً حاولوا جاهدين أن يغفلوا الشك في نفوس المسلمين عبر إثارة بعض القضايا، ومنها ما حاولوا تصويره من أن القرآن ليس كتاباً نازلاً من السماء وإنما هو من اختراع النبى ﷺ، ثم بدؤوا ييثون تلك الكذبة بين المسلمين.

وحيثما كانوا يتناولون شخصيته ﷺ فإنهم يصورونه على أنه رجل بدوي، وأن تعاليمه تعاليم غليظة وأنه ليس ذا خلفية حضارية عالية؛ لأنه يعيش في محيط كله بداءة وغلظة، فجاء هو ورجاله وهجموا هجمة بربرية فحطموا الحضارات والتطور وذبحوا العلم والعلماء وأحرقوا المكتبات ومسحوا الدنيا مسخاً.

وحيثما تقرأ تاريخ المستشرقين لحقبة الإسلام تجده لا يعدو الذي ذكرنا، غير أن هذا يهون قياساً إلى مصيبتنا العظمى وهي تلمذة أبنائنا لهم، وتأثرهم الكبير بأفكارهم. وللسامع أن يتصور أبناءنا الذين يدرسون في أوروبا وهم يغتذون من هذا الفكر ويحملونه، أو أنهم حينما يدخلون إلى مكتبة ضخمة ويستمعون إلى بروفيسور كبير ويأخذون عنه فكره ونظريته ثم يبدؤون بمقارنة ما عليه هؤلاء من تطور وما نحن عليه من تخلف وجهل حيث إنهم سيعترضون بأمور - هي من صنع المستشرقين أنفسهم - لعل أولها هو قولهم لنا: إن هؤلاء قد وصلوا إلى القمر، وفتحوا فتوحات واسعة في العلم، وأنتم

لازلم تتكلمون في مسائل الحلال والحرام وتضيعون وقتكم فيها.
 إن مثل هذا التفكير يصعب معه إقناع صاحبه بأن هذا الحلال والحرام إنما هو علم من العلوم؛ فكما أن لديهم تخصصات في مجالات علمية فإن لنا مجالات تخصصنا كذلك، وهذا لا يعني أنه إذا جاءك ذلك الغربي بنظرية صحيحة فإن كل نظرياته التي سوف يطرحها لاحقاً هي نظريات صحيحة، بل يجب أن تنتبه إلى أن وراء هذه النظريات هدفاً استعماريّاً. صحيح أنه يطرح عليك أول ما يطرح نظريات وراءها أهداف تربوية لكن الغرض من هذا هو استلال الإنسان من دينه، ثم بعد ذلك تطرح النظريات ذات الهدف الاستعماري لتؤدي دورها ولتفعل فعلها حينها، وبالتالي تحول الإنسان إلى المسيحية.

وسائل المستشرقين للنيل من الإسلام

وهم يقومون بكل شيء مقابل هذا، فيشوهون التاريخ من أجل أن يشوهوا الدين الإسلامي، ويحرفوا المسلم عن دينه إلى الديانة المسيحية.

قضية الرق

وبعض الكتاب الآن يستغلون نقاط عدة في هذا المجال، ومن هذه النقاط قضية العبيد حيث كان هناك بعض التجار الذين يذهبون إلى أفريقيا ويقولون للناس: إن الإسلام يعتبركم مثل البهائم تباعون وتشرون، وكأنما نبيرون الذي يتلذذ بحرق العبيد هو منا، أو كأن ملاعب روما التي كانت تسيل عليها دماء العبيد هي ملاعبنا، وكأننا لسنا الذين زوجنا العبد من بنت عبد المطلب^(١).

(١) أي زواج زيد بن حارثة ربيب رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش.

ولا نحن الذين جعلنا العبد رئيس أركان جيش المسلمين كله، وهو أسامة الذي كان مملوكاً.

فهؤلاء كانوا يحاولون تشويه صورة الإسلام بكل ما يستطيعون، فهم يأتون إلى كتب الفقه عندنا ويقولون: إن في هذه الكتب باباً مخصصاً لبيع وشراء العبيد. وهؤلاء يتناسون أن هذا الباب موجود فعلاً لكنه ليس من وضع الإسلام؛ فقائون الرق موجود قبل الإسلام، وحينما جاء الإسلام وجدته كذلك، وكان العبيد يباعون ويشرون. فعالج هذه المشكلة بشكل تدريجي ولم يعالجها دفعة واحدة. فهؤلاء المستشرقون استغلوا هذه الظاهرة من أجل أن يثيروا الناس على المسلمين.

قضية الشهادة

ومن القضايا التي أثاروها أيضاً قضية المرأة، حيث إن الإسلام اشترط شهادة امرأتين مقابل رجل واحد. فاستغلوا هذا الأمر وقالوا: هذا دليل على أن الإسلام يعتبرها نصف الرجل. وهذه مغالطة؛ لأن من الفروق بين الرجل والمرأة، أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل؛ وذلك لأن بناء الأسرة يحتاج إلى جو عاطفي وهو مناط دور المرأة داخل الأسرة.

إن خطورة الشهادة في بعض المواطن اقتضت مثل هذا الشرط، إذ أن المرأة في مواطن أخرى تقبل شهادتها لوحدها، ففي حالة الولادة، مثلاً يعتمد في شهادة أن هذا الولد هو ابن هذه المرأة أو العكس على شهادتها لوحدها.

قضية الميراث

أما عن موقف الإسلام من ميراث المرأة، كونه جعل لها النصف، فيجب النظر إليه من منطلق كلي وليس من منطلق جزئي، فنظرية الاقتصاد

الإسلامي لم تكبّد المرأة أي أعباء مائيّة مثلما تكبّد الرجل من صرفيّات السكن وغيرها، ذلك أن دخل الرجل يصرفه ١٠٠٪ على المرأة وعلى المنزل، وبغير هذا التمايز لا تكون في ذلك عدالة؛ إذ الرجل هو المسؤول عن احتياجات المرأة، ذلك أن للرجل الولاية العامة على المرأة وليس لها ذلك؛ لأن الإسلام خصّها بدور آخر داخل الأسرة، والولاية العامة تحتاج إلى أعصاب أقوى من أعصاب المرأة.

وعلى ذلك فإن موقف الإسلام من المرأة ليس موقف تفضيل وإنما هو موقف تفصيل وتقسيم الواجبات والحقوق. هذا في حين أن قانون الإسلام يضع قدم المرأة على رأس الرجل ويضع الجنة تحت أقدامها: «الجنة تحت أقدام الأمّهات»^(١).

وهذا تاريخنا يشهد على احترام الإسلام للمرأة، غير أن الأقلام المغرضة تحاول أن تستغل بعض الأمور لتسيء بها إلى ديننا كالشهادة مثلاً. فهؤلاء يشكلون على مسألة جعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وهذا أمر نظر فيه الإسلام إلى جوانب أخرى لم ينظر هؤلاء من خلالها إلى هذه المسألة، وذلك يتعلق بأسباب عاطفية ودواعٍ تكوينية تتصف بها المرأة، وهو الذي جعل شهادتها بهذه المنزلة. وبالنتيجة فإن هذا لا يعني أن الإسلام ينتقص المرأة وإنما هي مسألة تصنيف ليس إلّا.

إن موقف القرآن الكريم من الأديان الأخرى هو موقف إيجابي كامل فهو يمجّد عيسى عليه السلام ويمجّد أمّه البتول مريم عليها السلام، وهذا خلاف ما عليه اليهود

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مستند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

حيث إنهم بهتوها ورموها بالزنا (تنزهت عن ذلك). أما القرآن الكريم كما قلنا فقد كرمها ونزهها ومجدها، لكن ما نراه الآن هو أن المسيحيين يقفون مع اليهود ويبرّثونهم من دم عيسى عليه السلام ويحملون المسلمين أوزار الأولين والآخرين. وأبرز مثال على هذا هو موقف الأمم المتحدة المتفرج على مآسينا ومصائبنا دون أن تحرك ساكناً أو أن تفعل شيئاً حيال ما يجري على المسلمين في بلادهم، فهناك الكثير من القضايا المصيرية قد بقيت معلقة دون أن تجد لها حلاً عشرات السنين في حين أن القرآن جاء ليصدق ما بين يديه من كتب سابقة.

وعندما تقرأ تاريخ الأندلس تجد كيف كان المسيحيون يعاملون المسلمين، وكيف كانت النساء تتعرض للاغتصاب والأموال للنهب والشباب للذبح وكيف كانت الدماء تسيل فتلعن الإنسانية كلها. فكانت محاكم التفتيش أكبر جريمة ارتكبتها الإنسانية في ذلك الوقت. هذا في حين أن موقف المسلمين بقي ذلك الموقف الرائع، وكان قائد جيش المسلمين قبل أن ينزل إلى ساحة المعركة يوصي جنده قائلاً: لا تتعرضوا للرجال في الصوامع من أحبار ورهبان.

ولما جاء وفد نصارى نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقفوا بباب المسجد وقد حانت صلاتهم، فصلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد المسلمون منعهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوهم». فصلوا إلى المشرق، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، لم تذكر صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟». قالوا: عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد الله؟ قال: «أجل، هو عبد الله». قالوا: فأرنا فيمن خلقه الله عبداً مثله، فهل رأيت مولوداً يولد من غير أب؟ ثم قال السيد والعاقب: فمن أبوه

يا محمد؟ فصمت ﷺ ولم يجبهما وأعرض عنهما، ونزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾.

فقال لهم ذلك، فقالا: أما إنه ليس كما تقول. فقال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما». قالوا: قد أسلمنا. قال ﷺ: «إنكما لم تسلما، فأسلما». قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك. فقال ﷺ: «كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». ثم قال لهم: «فإن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢﴾». فقالوا: نلاعنك.

فخرج رسول الله ﷺ إليهم وقد أخذ بيد علي عليه السلام ومعهما فاطمة والحسن والحسين عليهما السلام، فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء أبناؤنا ونساؤنا وأنفسنا». فهموا أن يلاعنوه، فسأل أحدهم: من هؤلاء؟ فأخبر بهم، فقال لأصحابه: واللّه، إني أرى أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم على الله أن يزيل جبلاً من مكانه لفعّل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. واللّه لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصرى عين تطرف. فامتنع النصرى عن المباهلة وصالحوا النبي ﷺ ﴿٣﴾.

(١) آل عمران: ٥٩ - ٦١. (٢) آل عمران: ٦١.

(٣) انظر: روضة الواعظين: ١٦٤، شرح الأخبار ٢: ٣٣٩، التبيان ٢: ٤٨٤، شواهد التنزيل ١: ١٦٣ - ١٦٤ / ١٧٤، عيون الأثر (ابن سيد الناس) ١: ٢٩٠.

وموضع الشاهد هنا أنهم لما جاؤوا استقبلهم النبي ﷺ وأدخلهم إلى المسجد ومنحهم كامل الحرية في الحديث والنقاش والاعتراض. ونحن نعرف أن المسيحية عاشت على امتداد تأريخها في ظل الإسلام وتنعمت بوجوده وهي تمارس شعائرها وعباداتها في منتهى الحرية، وكذلك اليهود حيث كانوا يعيشون في المدينة المنورة آمنين يمارسون طقوسهم ولم يخرجهم النبي ﷺ منها حتى بدؤوا يعيشون فيها وحاولوا الإيقاع بين الأوس والخزرج^(١) وما تلا ذلك من نقض صلحهم مع الرسول الأكرم ﷺ ودسوا له الدسائس وخلقوا له ألف مؤامرة^(٢)، وإلا فإنهم كانوا يعيشون ملء إرادتهم.

(١) كان شاس بن قيس يهودياً، وكان شديد الكفر والظن على المسلمين، مرّ يوماً على نفر من الأوس والخزرج من أصحاب رسول الله ﷺ في مجلس من مجالسهم يتحدثون مع بعضهم بحبّ ومودة، فغاضه ما رأى من إلفتهم ومودّتهم وصلاح ذات بينهم، فقال: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إن بقوا على هذا من قرار». ثم أمر شاباً من اليهود كان معه أن يجلس معهم، ويذكّرهم بيوم (بعث) [بعث: موضع في نواحي المدينة، دارت به معركة كبيرة بين الأوس والخزرج. وسببها أن الخزرج لما سمعوا بأن اليهود قد عاهدوا الأوس على قتالهم، أعدّوا العدة واستنفروا القبائل معهم، وكذلك فعلت الأوس. انتهت المعركة بانتصار الأوس وقتل قائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. أيام العرب: ٧٣ - ٨٥] وما قبله من أيام الحروب الطاحنة بينهم، وأن ينشدّهم من الشعر بعض ما قالوه في تلك الحروب، ففعل الشاب ما أمره به، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى توابوا وكلّ يقول: إن شتّم عدنا إلى ما كنا فيه.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم بمن معه، فصاح بهم: «الله الله يا معاشر المسلمين، أبدوئى الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهليّة، واستنقذكم من الكفر، وألف بين قلوبكم؟».

فانتبهوا وعرفوا أنها نزغة من الشيطان، فبكوا وأقبلوا يعانق بعضهم البعض. الدر المنثور ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) ومن ذلك أن النبي الأعظم ﷺ حينما خرج إلى غزاة تبوك استخلف على المدينة أمير

فقوله تعالى: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بمعنى أن القرآن جاء دعماً لفكرة رسالة السماء العامة التي نزلت على عيسى وموسى عليهما السلام، ودعماً لكل رسالات السماء التي سبقتهما، في حين أننا نرى من أتباعهما عليهما السلام عكس ذلك؛ فهم يقفون موقفاً سلبياً من الإسلام ومناوئاً له. وهذا الموقف السلبي اتخذ أبعاداً عدة أخطرها ما كان منها على مستوى التشكيك بالعقيدة وتزوير التاريخ والقتال والحروب التي شنوها على مر التاريخ.

المبحث الخامس: الفهم المخطوء لظاهر القرآن

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فما الذي يعنيه ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟ الحقيقة أن فهم ظاهر القرآن فهماً سطحياً يؤدي إلى استخدامه بشكل يسيء إلى القرآن أحياناً، فقد تجد أن بعض الناس يحاول أن يكتب حول معنى من المعاني ويريد أن يجد له سنداً يثبت به صحته فيلجأ إلى القرآن ليأخذ منه ما يحلو له من إثباتات وأدلة بحجة أن في القرآن ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيزج القرآن الكريم في متاهة المعنى الذي يريده. وهناك آراء مضحكة حينما يقرؤها الإنسان لا يملك لنفسه إلا أن يستغرق في الضحك فيما فيها، فمثلاً حول قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَفْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ

المؤمنين عليهم السلام؛ لأنه عليه السلام خاف على دار هجرته، وعاصمة دولته ممن وترهم. وكان أكثر تخوفه من المنافقين الذين تخلّفوا فيها عنه عليه السلام لمقاصدهم السيئة. وفيها قال له الرسول الأكرم عليه السلام: «خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟». انظر: التفسير الكاشف ٤: ٤٣، فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، بعدة طرق، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٨٠٨/٣٠٤، ٣٨١٣/٣٠٤ - ٣٨١٤.

وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْفَعُونَ ﴿١﴾ يكتب أحد المفسرين أربعين صفحة عن النملة وعن اسمها وصفاتها وجنسها. وهكذا غيره ممن يشرح أشياء غريبة ويلصقها بالقرآن.

ومن أراد أن يطلع أكثر على هذه الأمور فليرجع إلى تفسير الطنطاوي وليقرأها بنفسه، ومن هذا قوله: إن من الاستدلال على وجود الله تعالى الاستدلال بالركوع؛ لأن الراكع حينما يركع يرّ الأرض، وحينما يرفع رأسه منه يرّ السماء، ومعنى هذا أن المصلي سيفكر بأن وراء الأرض والسماء إلهاً وهو الله. وهذا في الحقيقة تفسير غريب ورأي أغرب؛ لأن الإنسان يستطيع أن يرى السماء والأرض في كل الأحوال وليس فقط في حالة الركوع انحناءً وقياماً.

وهذه الآراء موجودة حتى عندنا نحن الشيعة فأنت تجد من يفسر لك ﴿كهيعص﴾ (٢) بأن الكاف كربلاء والهاء هلاك العترة والعين عطش الحسين عليه السلام وهكذا. وهذه الآراء موجودة عند بعض المفسرين، وهي في حقيقتها بعيدة عن روح القرآن؛ لأن القرآن عطاء ضخم لا يأتي بمثل هذه المحاولات البسيطة التي لا تعدو أن تكون من تهیّوات امرأة تغزل بمغزلها. وهذا اللون من التفسير لا يُقبل بأي حال؛ لأنه لا يعدو أن يكون من شطحات الصوفية. وكمثال آخر تجد من يفسّر ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ (٣) بقوله: ذل من الذل وذی یعنی النفس ويشفّ من الشفاء، والعين في قوله تعالى: ﴿يَشْفَعُ﴾ من الوعي، وهكذا. فيكون المعنى من ذلّ نفسه يشفّ من الأمراض

النفسية، فافهموا وعوا^(١).

وهذا كلام غريب لا يقبل بحال ولا يؤخذ تفسيراً للقرآن الكريم. كان الأصمعي في طريقه إلى البصرة، وكان معه شخص يضرر له عدواة، فأراد أن ينتقم منه فقال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢)، ما المراد بقوله: ﴿قُوا﴾؟ قال: هو فعل أمر من الوقاية. قال: فكيف يكون للمثنى؟ قال: قيا. قال: فللمفرد؟ قال: ق. قال فلجمع الإناث؟ قال: قين. قال فاجمعها في جملة. فقال الأصمعي: ق، قيا، قوا، قين. فقال له الملاحون: يابن اللخناء تقرأ القرآن بحروف الدجاج؟ ثم راحوا يضربونه حتى أغرقوه في النهر. وفي الواقع هناك الكثير من هذه الأنماط الغريبة من التفاسير، مع أن المفروض بنا أن نجعل القرآن أسمى من هذه المستويات. صحيح أن القرآن فيه تفسير كل شيء لكن ليس بالشكل الذي يرسمه البعض الذين يحاولون أن يصوروا القرآن على أنه حاوٍ لكل شيء كما يمليه عليه ذوقه.

المبحث السادس: التخلق بروح القرآن

ثم قال تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الهدى: من الهداية؛ لأن مسيرة الإنسانية كلها عثرات، فكل إنسان يتعثر في دربه وفي سلوكه وفي أخلاقه؛ فكان لابد أن يكون هناك من يأخذ بيد الإنسانية ويجنبها العثار ويدلها على مكارم الأخلاق والروح العالية. فالإنسان العادي بحكم طبيعته وتركيبته حينما يساء إليه فإن حقه سيدفعه إلى الانتقام ممن أساء إليه لكن

(١) مجمع البيان ١: ١٩.

(٢) التحريم: ٦.

القرآن يقول له : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١).

وهذا المضمون قد جسده الرسول الأكرم ﷺ عبر سيرته العطرة وحياته الشريفة . يقول أحد أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد معه حيناً : إني والله لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي ، وفي رجلي نعل لي غليظة ، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ ، ووقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ ، فأوجعه ، قال : ففرع قدمي في السوط ، وقال : «أوجعتني ؛ فأخر عني» . قال : فانصرفت ، فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني ، فقلت : هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس ، قال : فجئته وأنا أتوقع أن يوبّخني ، فقال لي : «إنا قد كنت أصبت رجلي أمس بنعلك فأوجعتني ، فقرعت قدمك بالسوط ، فدعوتك لأعوضك» . قال : فأعطاني رسول الله ﷺ ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني^(٢).

والقارئ حينما يقرأ السيرة العطرة للرسول الأكرم ﷺ يلمس فيها هذا الخلق السامي والشعور النبيل واضحين على كل حرف من حروفها ، فالخلق النبوي العالي يجسد لنا بحق كل تعاليم القرآن . فالقرآن الكريم يريد أن يأخذ بأيدينا إلى جادة مقابلة الإساءة بالإحسان ، ويعلمنا أن في الحياة شيئاً من الأريحية وشيئاً من العفو ، وأن فيها جانباً مهماً جداً هو جانب الخلق .

(١) فصلت : ٣٤ .

(٢) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا) : ١٢٣ / ٤٠٨ ، تاريخ الطبري ٢ : ٣٦٠ ، البداية والنهاية ٤ :

ف﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ تعني أن رحمة القرآن تعكس رحمة الله ، يقول الرسول الأكرم ﷺ : «إن لله مئة رحمة؛ أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»^(١).

وقد قرأت مرة مقولة لأعرابي أعجبتني كثيراً ذلك أنه حضرته الوفاة فراح أهله ينوحون عليه، فقال لهم: لماذا تبكون؟ قالوا: لأنك ستموت. قال: والذي يموت، أين يذهب؟ قالوا: إلى الله. فقال: من يذهب إلى الله فلا خوف عليه، فلا تبكوا. أي أن هذا الموطن برأيه موطن فرح لا ترح؛ لأنه سيفد على كريم. وسينتقل إلى مصدر الرحمة والعطاء والخير والامتنان. يقول أحد الشعراء:

ربّ روعي طليقة في مناجا	تك والجسم مضفدّ مكبول
بعّد الفرق بين روعي وجسمي	جسدي آثم وروعي بتول
وأنا السائل الملح ويجلو	وحشة الذلّ أنك المسؤول

فهو يخاطب الله تعالى ويناجيه بقوله: أنا لا أشعر بوحشة الذل حينما أسألك؛ لأنك أنت المسؤول وإن كنت سائلاً ملحاً. وكذلك هذا الأعرابي يقول لهم: لا تبكوا علي، بل افرحوا لأنني سأفد على الله. وألمّ بهذا المعنى شاعر الطف عندما أخذ يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

أبا حسن يهنك ما أصبحوا به	وإن كان للقتلى تقام المآثم
لأورثتهم مجداً وما كان حبة	ولكن نصباً في بنيك المكارم

(١) الغارات ١: ٢٤٠، الطرائف: ٣٢٢، مسند أحمد ٣: ٥٦، صحيح مسلم ٨: ٩٦.

فالواقع أن هذا الجانب الذي ينقله هو جانب مهم، لكن هذا لا ينفي جانب اللوعة في الحدث ولا ينافيه؛ فهذه الثلة الطاهرة في الوقت الذي افترعت به المجد افتراعاً سقطت على الأرض تخضب صعيد الطف بدم الشباب.. خضبوا التربة الطاهرة بدماء آل محمد ﷺ وأنصارهم.. الدماء التي غمرت الثرى في كربلاء.. الدم الذي سال كل مسيل.. الدم الذي يشير إليه أيضاً أحد شعراء الطف وهو الكوازي حيث يقول:

خضبوا وما شابوا وكان خضابهم	بدم من الأوداج لا الحناء
ومغسلين ولا مياة لهم سوى	عبرات تكلى حرّة الأحشاء
أصواتها بُحّت فهن نوائح	يغدين قتلاهن بالإيماء ^(١)



(١) ديوان الشيخ صالح الكوازي / العلويات / القصيدة الأولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ومنها:

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ	أقمار تسبح في غدير دماء
رقدوا وما مرّت بهم سنة الكرى	وغفت جفونهم بلا إغفاء
متوسدين من الصعيد صخوره	متمهدين خشونة الجصاء
مدثرين بكربلاء سلب القنا	مزملين على الرّبي بدماء
أطفالهم بلغوا الحلوم بقربهم	شوقاً من الهيجاء لا الحسناء
ومغسلين ولا مياة لهم سوى	عبرات تكلى حرّة الأحشاء

المسجد الحرام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ
سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: ضرورة الارتباط بمهد الدعوة

إن مهمة فكرة الحج من وجهة نظر الإسلام أساساً أنها ترتبط بعملية وصل المسلمين وربطهم مع بعضهم بمهد الدعوة، فلقد اختط الإسلام جملة من المشاعر كانت مهمتها ووظيفتها هي أن يجتمع المسلمون حولها فيوحدوا مشاعرهم تجاه مكان ليس هناك مكان آخر يقاربه منزلة أو هو أعظم منه، وهو مكة المكرمة. والإنسان تارة يعيش الفكرة ضمن مشاعره وتارة يقف عليها وقوفاً ميدانياً أشبه ما يكون بوقوف المتفرج. والوقوف الميداني

لا يهدف إليه الإسلام ولا يريد للمسلمين أن يكونوا عليه أو تحت طائلته، بل إنه يريد منهم أن يعيشوا الفكرة بكل أبعادها وأهدافها ضمن مشاعرهم وأحاسيسهم وقلوبهم. وهذه هي وظيفة الحج، تلك الشعيرة التي تستهدف كل مسلم لتهدبه ولتعود به إلى مهد الدعوة التي انطلقت منه كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، المهد الذي انطلق منه صوت بلال وارتفعت منه دعوة التوحيد.

وهذه المنطقة بالذات يعتبر الوقوف عليها أمراً يشد المسلم إلى ذلك المهد الأول.. مكة المكرمة التي هي في الواقع الأم الروحية لكل مسلم حيث إنه يأوي إليها ويزورها ويشد الرحال إليها؛ لأنها كما قلنا منبع صوت الحق وصوت التوحيد الذي استهدف أن يسبك المسلمين في قناة واحدة هي بوتقة الإيمان. وهذا الهدف هو هدف كبير جداً استهدف من ورائه المشرع أن يجعل كل مسلم مشدوداً بقناة إيمانية إلى هذه البقعة المباركة.

ومن بعد هذا البيان أودّ أن أشير إلى أنه يلاحظ على أهمّ سمة من سمات هذه الآية الكريمة أنها جاءت بمضمون يدور حول الكعبة الشريفة. وهي بذلك تتضمن مجموعة من الأبحاث أعرض لها تباعاً إن شاء الله :

المبحث الثاني: كيف يعق الإنسان إنسانيته

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشير إلى أن كفار مكة أناس عقّوا إنسانيتهم وأسأؤوا إلى فطرتهم، بمعنى أنهم بتصرفهم هذا لا يسيئون إلى الله عزّ وجلّ بل إنما يسيئون لفطرتهم وإنسانيتهم؛ لأن هذا الكافر في واقع أمره لا يضير كفره الإسلام بشيء، فهو بكفره لن يزيل السماء عن مكانها ولن يزحزح الأرض ويخرجها عن مدارها، ولن يغير نظام الكون ولن يوجد فيه

أي اختلاف. إن شيئاً من هذا لا يمكن أن يحدث أبداً، وكل ما في الأمر أن هذا الكافر إنما يزري بعقله وفكره ومشاعره؛ لأن الإنسان الذي ليس لديه عقل يقوده إلى العلة الأولى يكون بطبيعة الحال هو والبهيمة على حد سواء؛ إذ أن من المفروض بالعقل أن يكون دليلاً ومرشداً يقود الإنسان إلى الاعتراف بوجود الله تعالى ويوصله إلى الإقرار بوحدانيته.

فالإنسان حينما منحه الله تعالى العقل فإن من المفروض عليه أن يستخدمه في عملية التفكير بالكون ومنه إلى التفكير بالميكون، وبعبارة أخرى يوصله إلى حالة الانتقال من الأثر إلى المؤثر. فإذا كفر الإنسان بهذه المقومات فهذا يعني أنه كفر بفطرته؛ لأن الإنسان يولد وتولد معه فطرته وهي إقراره بالعلة الأولى.

إن علماء الاجتماع يتنازعون حول الطفل لحظة ولادته وقبل أن يتفاعل مع المجتمع ويدرك الجزئيات، فإنك حينما تعطيه شيئاً ثم تحاول أن تأخذه منه فإنه سيبيكي ويمتنع عن التنازل عنه؛ وهذا يدل على وجود غريزة مولودة معه، أي أنه يولد معه شيء آخر وهو العلة الأولى أو ما يسمى بقانون السببية الذي يتصرف على ضوءه في كل جزئيات حياته، فبمجرد أن تعطيه لعبة فإنه يسألك عن المصدر الذي جئت بها منه، وحينما تقول له: اشتريتها أو استعرتها فإنه سيسكت عن السؤال؛ لأنه يدرك أن هذه اللعبة لم تأت من لا شيء، بل إن لها سبباً هو الذي أوجدها، فهو يولد ويولد معه الإحساس بوجود العلة الأولى وبقانون السببية.

إذن فالإنسان بفطرته يؤمن أن هناك سبباً ومسبباً، وعندما يكفر بوجود الله تعالى فإنما يكفر بفطرته، أي بشعوره الذي يولد معه وبإنسانيته. والقرآن

الكريم ينعى على هؤلاء كفرهم بفطرتهم وبإنسانيتهم .

المبحث الثالث: معنى الصدّ عن «سَبِيلِ اللَّهِ» وأقسامه

ثمّ قالت الآية الكريمة : «وَيُضْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، فهؤلاء كفروا بفطرتهم أولاً، ثم صدّوا عن «سَبِيلِ اللَّهِ» ثانياً. والمقصود بـ «سَبِيلِ اللَّهِ» هنا أمور :

الأول : منع المسلمين من الوصول إلى البيت الحرام

فالمقصود به هنا هو منعهم عام الحديبية قبل الصلح من الوصول إلى بيت الله الحرام؛ حيث وقفوا دونهم والبيت .

الثاني: منعهم المسلمين الأوائل من الالتحاق بالرسول ﷺ

وبعد ذلك قاموا بمنع الرواد المسلمين الأوائل من الالتحاق بالرسول الأكرم ﷺ . وهم بهذا لم يكتفوا بأن منعوهم عن الحجّ ، وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فصدّوهم عن سبيل الله تعالى والولوج في دينه والالتحاق بنبيه ﷺ . ومن هذا نعرف السبب الذي من أجله كان العبء الأكبر على عواتق المسلمين الأوائل ومنهم خباب بن الأرتؓ الذي جاؤوا به إلى الصحراء ورفعوا ظهره عن مستوى الرمل ووضعوا حطباً تحت ظهره وأوقدوه حتى أطفأ ودك ظهره النار ، وهم يقولون له قل : أشهد أن اللات والعزى حق . فيقول : فرد أحد ، لم يلد ولم يولد . وبقي على هذا الموقف لم يتزعزع عنه .

ومنهم بلال الحبشيؓ وهو مؤذن الرسول ومؤذن المسلمين ، وكان من أمره أن أميّة بن خلف كان يخرجهم إلى الصحراء ويضعه على صخرة حارّة ، ويسلّط عليه الشياطين حتى يرتفع لحمه معها ، ويطلب منه أن يكفر ، فيقول : أحد أحد .

ومن هؤلاء أيضاً غمار بن ياسر وأبواه ياسر وسمية (رضوان الله عليهم) .

الذين أسلموا وتعرضوا لأشد أنواع العذاب فكان أن استشهد ياسر وسمية تحت وطأة التعذيب والقسوة في سبيل العقيدة والمبدأ.

وهكذا كان حال كل الأوائل من المسلمين الذين عرضوا لمثل هذا، فلم يهنوا ولم يركنوا إلى الذين كفروا.. تحملوا كل ذلك بما كانوا عليه من صلابة؛ لأنهم يشعرون أن هذا العبء ملقى على عواتقهم ولا بد من أن يقوموا به. ولذا حاربهم المشركون ومنعواهم من الالتحاق بالرسول الأكرم ﷺ.

الثالث: الصد عن الإيمان بالمشاعر

وهذه الآية فيها إطلاق كما يقول علماء الأصول، ومتعلق هذا الإطلاق متعدّد، وأحد أقسامه هو الصدّ عن الإيمان بهذه المشاعر. وذلك كأن يقول أحد لشخص يريد الحجّ: إنك إنما تبذل هذه الأموال الطائلة وتقطع آلاف الأميال وتتحمل الألم والمشقة من أجل أن تذهب لتلمس حجراً، فهل عندك قدر من التعقل وأنت تفعل هذا؟ إن هذا هو منهج الإلحاد الذي يبتني على التشكيك عبر طرح أسبابه لإبعاد المسلمين عن عقائدهم وعباداتهم التي من جملتها الحج.

أقسام التكاليف الشرعية

فهؤلاء يقولون: إن ما تقصدونه في الحج ما هو إلا مجموعة من الأحجار يطوف الإنسان حولها، وهو لا يعي ما يفعل دون أن يرجع إلى عقله ويفكر في المبرر الواقعي لهذا الفعل. ويرد على هذا أن التكاليف الشرعية نوعان:

النوع الأول: التكاليف التي فيها مساحة للعقل

إن هذا القسم من التكاليف يترك فيه مجال للعقل أن يتحكم به، ومثاله الزكاة فإن الله تعالى حينما أمرنا بإخراج الزكاة وأدائها فإننا نعرف أنه تعالى

إنما أمرنا بها تحقيقاً لمبدأ إعادة توزيع الثروة وتضخمها؛ وذلك للقضاء على حالة سوء التوزيع التي تتخم العالم، فلا يبقى هناك جانب متخوم وجانب محروم، وتتحقق العدالة بإعادة التوزيع هذه والقضاء على وجود كل مظاهر الفقر والفاقة والحاجة. وبعنوان آخر إن الإسلام لا يريد أن يبقى هناك بائس أبداً. وهذه المعدة التي قد تسبب مشاكل للمجتمع على المجتمع المتخم أن يشبعها ويسد حاجتها كيلا يسمح لها أن تتحول إلى عنصر إثارة قد تؤدي إلى خلق المشاكل له.

ومثال تلك الأحكام أيضاً الصوم، فنحن نعرف مثلاً أن الهدف من الصوم هو تنظيم أمر الجسم وخلق إرادة قوية عند الإنسان وأن يشعر بالتساوي ما بينه وبين المسلمين كافة باشتراكهم في ساعات الصوم والجوع، وذلك لحظة انتظار كل مسلم غروب الشمس حيث تمتد الأيدي إلى السماء وهي تدعو وتنتظر الإفطار. فهنا يوجد أيضاً مساحة للعقل ولتحكيم قوانينه.

النوع الثاني: التكاليف التي ليس فيها مساحة للعقل

وهناك تكاليف لم يترك فيها أي مجال للعقل ليحكم بها، والسبب في هذا أن الله تعالى أراد أن يتعبد العقول ويخاطبها ليبين لها بأنها لا يمكن أن تدرك أسرار كل شيء. وفي هذا إشارة إلى أن العقل يجب ألا يطغى ولا تطغيه حالاته التي هو فيها وما خصّ به من تقدير؛ لأن العقل إذا طغى على ربه فمعنى هذا أن العقل قد أصبح رباً.

إذن فالعقل ينبغي أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه، وليس له أن يتحكم، بل عليه أن يذعن بما تعبد المولى به ويشعر صاحبه بضرورة الطاعة لله تعالى، ويفرس عنده حب الامتثال والانقياد. وذلك مثل السقاط الحصى

ورجم الشيطان به ، فمثل هذا العمل لا يملك العقل أن يتدخل فيه بل عليه أن يقر بما تعبد به الله تعالى به .

وما ورد في آية المقام هو أحد المجالات التي يريد الله عز وجل أن يعوّدنا فيها على النظام وعلى التعبد وعلى تسيير العقل . وهناك كثير من العبادات التي تدخل في هذا المعنى : معنى سحب العقل إلى ساحة التعبد . وفي مثل هذه الحالة فإننا عندما نلتمس الحجر أو نرجم الشيطان فإنما نمثل لأمر الله . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إنه ورد أن الحجر يحشر ويشهد لمن التمسه^(١) .

وحتى مع غير ذلك فإن الله جل وعلا هو سيد الموجودات والمتصرف فيها ، فحينما يأمرنا فإن علينا أن نقف امتثالاً لأمره . فالمسألة إذن هي مسألة امتثال أوامر السماء وليست مسألة حجر ملموس ، فعلينا أن نمثل للأمر الذي بعثنا ودعانا إلى اللمس وهو الله تعالى .

وفي واقع الأمر أن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ملحدين ويهزؤون بمن يلتمس الحجر والشعائر أو غير ذلك من الشعائر عندما يرجع أحدها إليهم فإنه سيجد عندهم نوع ألوهية داخل أنفسهم وإن كانوا هم لا يعبرون عنها كذلك . فحتى أشد الفرق إلحاداً في الدنيا لا يمكن أن تخلو في قرارة نفسها من وجه من وجوه الإحساس بحالة من حالات العبادة ، ولو فرضنا أن شخصاً بعيد المادة فتسأله : هل لك أن تفسر لنا هذا الكون وكيف نشأ؟ فإنه سيجيبك بأنه خلق وفق قوانين ووفق مادة لم تستحدث ولن تفنى . ولو سأله ثانية : هل إن هذه المادة لها صفة عقلية أم هي جامدة؟ لأجابه بأنها ذات صفة عقلية ؛

(١) شرح الأزهار ٢: ١٠٧ ، الدر المنثور ١: ٢٣٥ .

لأنها إن كانت جامدة فهذا غير معقول؛ لأن الجامد لا يصدر عنه هذا الإنتاج الضخم، وإن كانت عاقلة كانت هي الله تبارك وتعالى، ويتحول النزاع حينها إلى ما يسمى بالنزاع اللفظي.

فالملاحظ هذا في قرارة نفسه يؤمن بوجود محرك أوجد كل هذا الكون ويؤمن بضرورة العبادة، غير أنه يترك عباداته حتى لا يقال عنه: إن هذا تمسك بما يتمسك به الرجعيون مثلاً. فهو يريد أن يعطي نفسه لونا من الحداثة، وإلا فإنه في قرارة نفسه يملك قيماً وأخلاقيات وتوجهاً للعبادة أو قيمة من القيم الاجتماعية أو قانوناً من القوانين العلمية، وهذه كلها آثار المبدع الخالق تبارك وتعالى.

إذن فهؤلاء يصدون عن سبيل الله تعالى بواسطة غرس الشك في نفسية المسلم بما يقوم به من شعائر وعبادات.

المبحث الرابع: سبب التسمية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وإنما سمي مسجداً حراماً لأنه يحرم أن يفعل فيه القبيح، وهو مشتق من الحرمة. وألفت نظرك هنا لنقطة مهمة وهي أن الله تعالى لا يعاقب الإنسان على نواياه، وذلك منصوص عليه في الفقه الإسلامي، وإنما يعاقب المتلبس بها والذي يمارس الفعل واقعاً. فإذا نوى شخص أن يسرق دون أن ينفذ السرقة فإنه لن يعاقب على نيته، نعم يعاقب عليها فيما إذا وجد متلبساً بالسرقة أو قام الدليل على أنه قد فعلها.

هذا في غير مكة المكرمة أما فيها فإن الأمر يختلف، ذلك أن جماعة كبيرة من الفقهاء يذكرون أن من نوى فيها شراً يحاسب على نيته وإن لم

يخرجها إلى الواقع؛ لأن مكة بلد حرام لها من الحرمة والمكانة ما ليس لغيرها من البلاد. فكل من قرّ في نفسه لون من السوء عاقبه الله تعالى عليه على هذا الرأي؛ ومن هنا جاءت تسميتها بالبلد الحرام، كما أنها من جهة أخرى أمنا العقيدية؛ كونها منبع الرسالة ومهداها.

فالأم المادية يعطيها الإسلام لوناً من الحصانة أو يعطيها سياجاً يحمي مكانتها من أن تتعرض للاعتداء، فما بالك بالأم الروحية العقيدية؟ فالقرآن الكريم حينما يعطي الأم المادية تلك المنزلة ويجعل الجنة تحت أقدامها، فإنه حتماً سيعطي الأم الروحية قدراً أكبر من المكانة والاحترام والقداسة؛ لما هي عليه من سيادة الإنسان المسلم وجعله بالكيفية التي تدفعه لاحترام أمه المادية. يروى أن الإسكندر كان يحترم معلّمه أكثر من احترامه لأبيه، فقيل له: لماذا؟ فقال ما حاصله: لأن أبي أخرجني جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرفاً لأنني أشارك فيه حتى الحشرات، كما أنه أخرجني إلى عالم الظلمة والفساد، أما المعلم فقد أخرجني من عالم الظلمة إلى عالم النور، وأنشأني فكراً، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره لا بدمه ولحمه.

فالمعلم أخرجني من كون الجهل إلى كون النور ومن ظلام الجهل إلى نور العلم والعطاء والفكر، فهذا أولى أن أحترمه؛ وهو أحق بالاحترام من أبي المادي.

إذن فمكة هي أمنا التي أخرجتنا من الإلحاد والضلال والشرك إلى عالم النور والإيمان والهداية؛ حيث ارتفع منها صوت «لا إله إلا الله». فهي من هذه الناحية أجدر باحترام الأم التي ولدتنا، وعليه فالإساءة فيها تصل إلى حد

الفضاعة؛ بحيث إنها تعد أكبر من الإساءة إلى الأم المادية.

والغريب أن بعض مؤرخينا حينما يمرون بمن أساءوا إلى مكة تجدهم يقفون منهم موقفاً إيجابياً في غاية البرودة، أي أنك لا تجد ذلك الحماس الذي ينبغي أن يكون عندما تتعرض مكة إلى الاعتداء.. الحماس في إعطاء هؤلاء ما يستحقون وإعطاء مكة ما تستحق من الدفاع عنها. وإلا فإن الشخص الذي يأمر بأن توجه المنجنوقات إلى مكة وهدمها وإحراقها وهدر حرمتها، ويصل الأمر حد إخراج عبد الله بن الزبير وابن ذات النطاقين وصلبه فيها وجعل دمائه تسيل عليها^(١) هل يمكن بحال من الأحوال أن يسمى أمير المؤمنين؟

إن هناك في تاريخنا الكثير من المفارقات التي يصعب عدم التوقف عندها أو المرور بها مرور الكرام، ونحن لسنا بحاجة إلى جانب الكم من التاريخ بقدر ما نحن بحاجة إلى جانب الكيف فيه، وهذا بعيد عن كتبنا التاريخية ومن كتبها.

إذن من هذا نستطيع أن نفهم تسمية مكة المكرمة بالبيت الحرام، فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿يُضَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنه يريد أن ينبّه إلى هذا المعنى.

(١) انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤/ ١٢، سنن ابن ماجه ١: ٦٢٣/ ١٩٣٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، وقد ضعف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨/ ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤/ ٣٨٨، ١٨٧/ ٣٣٨، ١٠: ١٤١/ ٢٩٧، ١١: ٣١٦/ ٦٠٠، ينابيع المودة ٣: ٣٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥/ ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدى والرشاد ٦: ٢١٤.

المبحث الخامس: أحكام التملك في البيت الحرام

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، وهذا المقطع الشريف فيه معركة بين الفقهاء، فحينما نرجع إلى الفقه الإسلامي نجد أن فقهاء المذاهب الإسلامية كافة ينقسمون على رأيين حوله:

الرأي الأول: أن المقصود مكة المكرمة كلها

فهؤلاء يقولون: إن هذه الآية تتناول مكة بأكملها على أنها بلد حرام فهي حرام لجميع الناس سواء كانوا عاكفين أو بادين. فجميع الحرم هو للناس سواء، ويرتبون على ذلك حكماً مؤداه أن جميع بيوت الحرم لا تملك ولا تباع ولا تشرى ولا تؤجر، ومن حق من يرد مكة أن يدخل في أي بيت من بيوتها وليس لساكن البيت أن يمنعه، بل إن عليه أن يضيفه؛ لأن هذه الدار من ضمن الدور المشمولة في الآية. وعلى هذا الرأي بعض الفقهاء كعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسفيان الثوري ومجاهد وجملة من علماء الإمامية.

ووفق هذا الرأي تكون ملكية هذه البيوت ملكية مسلوقة، فقوله تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يحتم هذا المعنى، أما إذا كان هنالك ملكية فإن هذه الدور لم تصبح سواء أبداً، وهو خلاف تصريح القرآن الكريم، فالذي يملك والذي لا يملك ليسا سواء.

ففرض المسألة هنا على هذا الرأي هو أن تلغى الملكية والكراء. وسنبين لاحقاً إن شاء الله تعالى، السر في ذهاب هؤلاء إلى هذا الرأي.

الرأي الثاني: أن المقصود به المسجد الحرام فقط وأدلته

وعلى هذا الرأي فإنه ليس لابن مكة الحق في أن يحرم البادية من

الصلاة بالمسجد أو الطواف فيه، بل كلهم سواء في هذه الناحية وليست هنالك أولوية لأحد على أحد البتة. ومعنى هذا أن الناس متساوون في إقامة الشعائر والعبادات، أما أرض مكة وبيوتها فإنها تملك وتباع وتشتري ويحق كرايتها.

ويستدلون على هذا بأمور، منها:

الأول: قوله تعالى: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

فإن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾^(١)، وهو تعالى أضاف هنا الديار إلى المسلمين الذين أخرجتهم قريش، ولو لم يكونوا يملكونها لما صحت هذه الإضافة.

الثاني: قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من لا؟»

فالرسول الأكرم ﷺ حينما دخل مكة عام الفتح قال له أصحابه: أين تنزل يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من لا؟»^(٢). ذلك أن عقيلاً باع كل منازلهم، مما يدل على أنهم كانوا يملكونها، ولذا عبّر عنها بلسان الملكية.

الثالث: شراء عمر داراً للسجن فيها

إذ أن هؤلاء يستندون إلى ما يروى من أن عمر بن الخطاب اشترى بها داراً بأربعة آلاف درهم، وجعلها سجناً^(٣).

وهذه الأدلة صريحة في أن بيوت مكة تقع ضمن دائرة الملكية الفردية.

(١) الحج: ٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٠٨، فتح الباري ٣: ٣٦٠.

(٣) تلخيص الجبير ٨: ٢٣٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤، عون المعبود ٨: ١٧٨.

منشأ الرأيين

وهذا الرأيان نشأ من اختلاف الآراء حول فتح مكة ، وهل أنها فتحت عنوة أم أنها فتحت صلحاً أي أن الرسول الأكرم ﷺ استولى عليها وصالح أهلها على البقاء بها؛ والمؤرخون هنا قسمان: قسم يذهب إلى أنها فتحت عنوة بدليل أن الرسول الأكرم ﷺ قتل بعض الناس حينما فتحها، وأمر بملاحقة البعض حتى لو كانوا متعلقين في أهم الأمكنة. فهذا دليلهم على أنها فتحت عنوة.

وقسم يذهب إلى أنها فتحت صلحاً وبقيت على هذا. وهذا الرأي يذهب إليه الشافعي والحسن وجملة من الفقهاء من الإمامية^(١) وغير الإمامية^(٢). ومعنى هذا أن ديار مكة تملك ويحق لمالكها أن يتصرف بها.

وهذا الرأي هو السائد الذي عليه العمل الآن، وعليه يكون المراد من الآية أن الناس سواء داخل الحرم؛ فلا يحق لأحد من داخل المسجد أن يمنع أحداً من خارجه من الصلاة فيه أو الطواف في أي وقت من الأوقات؛ لأن المفروض أن المساجد لله تعالى والناس عباد الله تعالى ومكة حرمه وأم البلدان، والأم الروحية للمسلمين، والمهد الأول للدين الحنيف. فعلى ضوء هذه الامتيازات التي خصت بها مكة المكرمة كان لابد من التسوية فيها بين المسلمين.

والمقصود من التسوية بينهم هو احترام آدميتهم وإسلامهم وعقائدهم، وألا

(١) جامع المقاصد ٤: ٩٧.

(٢) انظر: المجموع شرح المذهب ٧: ١١٥، ٤٦٦، ٩: ٢٤٨، فتح الوهاب ٢: ٣٠٦، مغني المحتاج ٤: ٢٣٦.

يتطفل البعض فيرقى المنابر في مكة ويوحي للناس بأنه يحمل راية «لا إله إلا الله»، وهو في حقيقته لا يحمل في داخله إلا الحقد والكراهية لأتباع راية «لا إله إلا الله»، محمد رسول الله». ونحن ببالغ الأسف مصيبتنا - كما يقول الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده - هي أن الإسلام يؤخذ على أنه المذهب الإسلامية عينها والمسلمون ينظرون إلى هذا المذهب أو ذاك على أنه دين الله تعالى مع أن هناك فرقاً بين الإسلام وبين المذاهب الإسلامية؛ لأن المذهب غير مقصود لذاته بل المفروض أنه طريق مؤدية إلى الشرع. فالمذهب ليس غاية وإنما هو وسيلة وطريق تؤدي إلى الوحدة لا إلى تمزق المسلمين؛ فتكون المذاهب روافد متعددة تؤدي إلى غرض واحد هو الإسلام.

فالفقيه ليست له وظيفة غير نقل الحكم الشرعي بعد بيان دليله، ونحن يجب ألا نعبد الفقهاء، وعليه فإذا كان رأي الفقيه يخالف الخطوط العامة للدين فعلينا ألا نأخذ به. وبالمناسبة أذكر هنا موقفاً لأحد المسلمين مع أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنه عليه السلام كان خارجاً من المسجد فرآه خارجاً، فسأله عن سبب تخلفه عن الجماعة، فقال له: أنا لا أبايعك، ولا أخرج معك لقتال، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنا لا أكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»^(١).

وهذا نابع من كون الهدف من طاعة الفرد للإمام هو حفظ النظام، فإذا كان المسلمون في أمان من شخص ما ولم يكن يشكل خطراً على مصالحهم أو

(١) مرّ هذا ولم نعرّث عليه، وذكرنا هناك أن قريباً منه ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب. انظر: الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤، وج ١ ص ٢٠٠ من كتابنا هذا.

مصالح دينهم فليس للإمام أن يعاقبه وإن لم يخرج معه. فتأمل هذه النفس الكبيرة التي اتصف بها ﷺ، أو بالأحرى هذا الفهم المعمق لطبيعة الإدارة والحاكم والمحكوم. فالمسألة ليست شخصية أبداً.

على أية حال نحن لا نعبد شخصيات مطلقاً بل نعبد الله تعالى عن طريق المذهب الذي تعبدنا الله تعالى به. فعبادة الله تعالى هي الغاية، والمذهب وسيلة يوصلنا إلى تلك الغاية. والله تعالى غداً يسأَلنا عن اتِّباعنا دينه لا عن اتِّباعنا مذهباً من المذاهب. غاية ما في الأمر أن البعض يرى أن الطريق إلى دين الله تعالى يكون عبر هذا المذهب، والبعض الآخر يرى أنه يكون عن طريق مذهب غيره وهكذا، لكن المفروض أن الأمر لا يتعدى هذا ويصل إلى حدّ تأليه الشخصيات وجعل المذاهب ديناً. هنالك حادثة ذكرت كثيراً، وهي - كما يرويها الخطيب البغدادي - أن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ حين توجه إلى الشام، وبعد أن وصل إلى المدائن قال جرير بن سهم التميمي (شاعر الإمام ﷺ وأحد أصحابه):

عفت الرياح على رسوم ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
وإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد

فقال له الإمام ﷺ: «أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾»^(١) أي أن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء كفروا النعم فحلت بهم النقم. ثم قال: «إياكم وكفر النعم - ثلاثاً - فتحل بكم النقم».

ثم نزل وقال: «هَيِّثُوا لِي مَاءً أَصَبَّ عَلَيَّ». فهيَّئُوا لَهُ مَاءً، فَدَخَلَ فَإِذَا صُورٌ فِي الْحَائِطِ، قَالَ: «كَأَنَّ هَذِهِ كَانَتْ كَنِيسَةً؟». قَالُوا: نَعَمْ كَانَ يَشْرِكُ بِاللَّهِ فِيهَا كَثِيرًا. فَقَالَ: «وَكَانَ يَذْكُرُ فِيهَا اللَّهَ كَثِيرًا»^(١).

فهو عليه السلام يبين لهذا القائل: أَنَّهَا أَيْضًا كَانَتْ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا؛ فَالْمُسْلِمُ يَعْبُدُهُ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ الْمَسْجِدِ، وَذَاكَ الْمَسِيحِيُّ يَبْحَثُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَيَعْبُدُهُ عَنْ طَرِيقِ الْكَنِيسَةِ. فَهُوَ عليه السلام يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَفْقَهُ وَاسْعًا وَأَكْبَرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ كَيْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقِيقَتِهَا.

وَيَتَسَاءَلُ أَحَدُ الْكُتَّابِ فَيَقُولُ: كَيْفَ لِهَذِهِ الصَّحْرَاءِ أَنْ تَخْرُجَ مِثْلَ هَذَا النَّتَاجِ؟ يَقْصِدُ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حَيْثُ إِنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِأَفْقٍ غَرِيبٍ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ.

عَلَى آيَةِ حَالٍ فَإِنَّ الْمَفْرُوضَ بِنَا حِينَمَا نَتَّبِعُ مَذْهَبًا مِنَ الْمَذَاهِبِ إِلَّا نَجْعَلُ الْمَذْهَبَ هَدَفًا لَنَا، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي إِلَّا نَعْطِيهِ أَكْثَرَ مِنْ صِفَةِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تَوْصِلُنَا إِلَى أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَتَشْرِيعَاتِهِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي إِذْنُ أَنْ نَعْبُرَ الْحَوَاجِزَ إِلَى اللَّبَابِ، وَإِلَّا نَقِفُ دُونَهُ مَتَمَسِّكِينَ بِالْقَشُورِ الَّتِي تَبْعَدُنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِهِ.

أمنية

أَعُودُ لِلْمَوْضُوعِ، فَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يَأْمُرُنَا بِعَدَمِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَمَنْ هُمْ خَارِجُهَا فَلَا يَمْنَعُ ذَاكَ هَذَا عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ وَالطَّوَافِ فِيهِ. وَهَذَا الَّذِي نَتَمَنَاهُ وَنَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ وَتَصْبُو النَّفْسُ

إلى تحقّقه، لكن الهم الإسلامي الغالب على هؤلاء لم يجد من يقدره؛ لأن من يبذل أمواله وجهده ويجيء إلى مكة حاملاً على كاهله عبء ثمانين سنة لأداء المناسك التي فرضها الله تعالى عليه لا بدّ من أن ينال تقديره واحترامه اللائقين به؛ لأنه إنما جاء لله وفي طاعة الله. وهذا يجب أن يقدر لا أن يتخذ أمر الاختلاف معه في الرأي وسيلة وذريعة لتكفيره ومحاربته ووصمه بسمة الانحراف أو لصق لقب من الألقاب التي لا يقرها الإسلام به.

إذن الهم الإسلامي والحس الإسلامي الواعيان هما اللذان ينبغي أن يكونا طاغيين في تلك اللحظات، وينبغي على المسلم أن يتصرف حينها على ضوء ذلك فيحترم المكان الذي جمع فيه ﷺ المسلمين، ويراعي حرمة المكان الذي كان ولا زال منطلق الوحدة بين المسلمين. فيجب ألاّ تمحى عنه صفة أنه منطلق الوحدة، ولا يحول إلى مكان للنفرة والتباغض بين المسلمين.

المبحث السادس: في معنى الإلحاد في الآية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ومعنى الإلحاد هنا هو الميل، يقال: ألحد أي مال وانحرف عن الصواب^(١). فما المقصود به هنا؟ هنالك عدة آراء للمفسرين في هذا المورد نذكر منها:

الرأي الأول: أنه الشرك

فالمشرك بطبيعة الحال يعرض نفسه إلى عذاب أليم نتيجة ما اقترفه في حق نفسه وحق ربه. والشرك نوعان: فتارة يشرك الإنسان بربه ثم يتحداه بشركه ويبارزه المعصية، وتارة يشرك بالله في قرارة نفسه لكنه ظاهراً مع

(١) المين ٣: ١٨٢ - لحد.

المسلمين يظهر الإسلام ويتعبد معهم في مساجدهم ويقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». ومثل هذا لا يضر المسلمين أمره مادام لم يستغل حالته تلك ضدّهم لصالح عدوهم كأن يتجسس عليهم له، أو يقوم بمحاولة تفتيت الجبهة الداخلية بما يبث من دعايات وإشاعات. فإن لم يكن كذلك فلا شأن للمسلمين به بل يترك هو وربه، وكذلك يجب ألا يبارز الله تعالى بالمعصية. إن البعض من هؤلاء يحاول أن يتحدى مشاعر أمة بأكملها في سبيل تحقيق رغباته أو رغبات أعداء الإسلام.

الرأي الثاني: أنه دخول مكة بدون إحرام

وهذا الرأي عليه جملة من الفقهاء والمفسرين، وكأن الآية - على ضوء هذا التفسير - ترد على من يقول: لماذا لا بدّ من دخول مكة بالإحرام؟ إن مثل هذا المتسائل ينكر هذه الشعيرة الواجب الاعتقاد بها؛ وهو بهذا يكون كافراً، أما إذا كان الامتناع عن الإحرام تهاوناً في أمره وليس إنكاراً لوجوده وحقيقته فصاحبه يعدّ عاصياً، والعاصي يعزر ويعاقب. فالبعض يحمل هذه الفكرة؛ ولذا فإن أصحاب هذا الرأي يؤكّدون على أن الآية واردة في مقام ذمّ من يدخل مكة بدون إحرام.

الرأي الثالث: أنه طواف المشركين بمكة عراة

وهنا يمكن أن يكون في الآية إشارة لمعنى آخر وهو ذمّ من يطوف بمكة عارياً، فقد ورث بعض العرب هذه الصفة الذميمة من عادات الجاهلية وبقوا عليها، فكانوا يطوفون بالبيت عراة بحجة أنهم يتقربون إلى الله بهذا. فالعاري يطوف وليس على بدنه ثوب فيه شبهة؛ لأنهم كانوا يرون أن هذه الثياب التي يرتدونها إنما كانت عليهم حين ارتكابهم المعاصي، أي أنها ملوثة بالذنوب،

ولكي يتخلّصوا من هذه الحالة كان عليهم التجرّد منها، كيلا يواجهوا الله تعالى بثوب ارتكبت فيه المعصية^(١).

فهم يتصورون أن عملهم هذا صحيح، مع أن الحقيقة خلاف هذا؛ لأن الله عزّ وجلّ تعبدنا بالظاهر فقال لنا: إن هذا الثوب طاهر وهذا المكان طاهر فالبس هذا الثوب ولا تشكّ في طهارته. وهذه المسألة تتسحب على كثير من العبادات، ذلك أن البعض ممّن يريد أن يتوضأ مثلاً تجده يعاني من مسائل الشك فيظل يتساءل: هل وصل الماء إلى تمام البشرة؟ وهكذا تراه يعيد الغسل بعد الغسل. مع أنه يدرك أن الله تعالى أكبر من هذا؛ ولذا فإنه يجب علينا أن نسكب الماء كما أمرنا الله؛ ذلك أنه تعالى تعبدنا بهذا الفرض الظاهر، فليس من مسؤوليتنا أن ننظر فيما إذا كان الماء قد وصل إلى قرارة كلّ شعرة أم لا.

أو أن يقول قائل: هل يجب أن أخرج الضاد من مخرجها عندما أقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٢) أم لا؟ يروي المحدثون أن رسول الله ﷺ كان في غزاة، فأشرفوا على وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم، فقال ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا

(١) كانت ضباعة بنت عامر بن قرط تطوف بالبيت وهي عريانة، وتقول: من يعيرني تطوفاً؟ ثم تنشد:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله
فنزلت هذه الآية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١. انظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٨٩.

(٢) الفاتحة: ٧.

تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم»^(١).

فهو ﷺ يقول لهم: تجاوزوا هذه الشكليات واجعلوا الروح هي التي تتحكم بكم لا الشكليات مطلقاً وفي كل حال، مع أن الشكليات قد تكون مطلوبة نوعاً ما في بعض الأحيان لكن على ألا تصل إلى درجة الهوس. إذن البعض يقول: لماذا أدخل إلى مكة محرماً بملابس فيها شبهة حرام؟ فيكون جواب القرآن هو: اترك عنك هذه الوسائس، ودع عنك هذا الشك وتعبد الله تعالى بالظاهر، الله تعالى الذي أمرك أن تأكل من الحلال وأن تلبس هذا الثوب من حلال، وهذا يكفي.

الرأي الرابع: أنه الصيد داخل الحرم

فهذه المنطقة أراد لها الله عزّ وجلّ أن تكون آمنة، أي يأمن فيها كل حي، فحتى الشجر لا يجوز قطعه فيها. والغرض من هذا هو أن يعود الله تعالى المسلمين فيها على مشاعر إسلامية تقوم على احترام الدم داخل البلد الحرام؛ لأن هؤلاء كانوا يعيشون على الدم وفيه إلى أنوفهم، بل أكثر من هذا أن أحدهم إذا شرب الماء ولم تكن فيه رائحة الدم فإنه يراه شراباً ليس فيه بطولة. ودونك نصوصهم الشعرية التي تؤكد هذا المعنى:

وما يريدُ بنو الأقيالِ من رجلٍ بالنبلِ مشتملٍ بالجمْرِ مكتحلٍ

لا يشربُ الماءَ إلا من قليبِ دمٍ ولا ينامُ له جارٌ على وجلٍ

وهذا اللون من الاستهتار بالدم وعدم حفظه وعدم إعطائه أية حرمة

(١) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صحيح البخاري ٤:

١٦٨، ١٦٦، ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

عندهم؛ بحيث إن الأعراض كانت تهتك والدماء تسفك والأموال تنتهب، هذا اللون أراد الإسلام أن يغيره فوضع لهم هذه الشعيرة في مكة، وأمرهم باحترام الدم حتى إذا كان دم بعوضة.

إن هذه المحاولة هي ترويض للطباع الجانحة على احترام الدم، وغرس السلام داخل نفوسهم حتى يترعرع فيها وينبع منها. وليس في هذا الترويض أي سلب أو هدر لرجولتهم أبداً، فرجولتهم محفوظة لكن سفك الدم في غير مكانه لا يريده الإسلام بحال. وهذا هو الذي يعبر عنه القرآن فيقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المبحث السابع: دواعي الثورة الحسينية

وهذا المعنى المارّ في المبحث السابق هو الذي حتم على الحسين عليه السلام أن يخرج من مكة؛ لأنه عليه السلام عندما دخل إليها وطاف مع الناس أعلن على رؤوسهم أنه في طريقه إلى التضحية: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقية، كاني بأوصالي هذه تقطعها عسلان القلوات بين النواويس وكريلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً^(١). لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصباحاً إن شاء الله^(٢). وبمجرد أن خرج من الكعبة سأله عبد الله بن مطيع وجماعة: يا بن رسول

(١) السغب: الجوع. مختار الصحاح: ١٦١ - سغب.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٢٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨، مثير الأحزان: ٢٩، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

الله، لَمْ تخرج من مكة الآن، وبينك وبين الحج سويغات؟ فقال عليه السلام: «لو لم أعجل لأخذت»^(١). وقال: «إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش»^(٢).

فهو عليه السلام يبين له أنه لا يريد أن تهتك حرمة مكة بسببه أو أن تنتهك قدسية هذا البيت الطاهر بقتله فيه، وأنه عليه السلام يريد أن يحافظ على حرمة الكعبة في مشاعر الناس؛ ذلك أن هؤلاء لا مانع عندهم من أن يقتلوه داخل الكعبة وإن كان متعلقاً بأستارها؛ لأن الدم لا حرمة له عندهم وحفظ كرامة الناس غير واردة في منهجهم. وبالفعل فإن هذا هو الذي حدث في أكثر من مورد؛ ففي واقعة الحرة وصلت الدماء إلى قبر الرسول ﷺ، وفي مكة المكرمة كذلك. ولذلك أراد الحسين عليه السلام أن يرسخ فكرة احترام الكعبة في أذهان المسلمين ويعمق نظرية الحفاظ على كرامتها وقديسيته وطهارتها.

إن الحسين عليه السلام ضرب لنا بهذا المثل السامي الذي يجب أن يحتذى في إعظام شعائر الله تعالى واحترام قدسيّتها. ولما كان الحسين عليه السلام بهذا المستوى من التفكير الرسالي السامي أراد الله تعالى أن يكافئه على ذلك بأن جعل له بيتاً محترماً في قلوب الناس وفي نفوسهم، ومشهداً يؤمه الملايين من المسلمين للزيارة والدعاء واستذكار الواقعة والهدف السامي الذي قامت من أجله. وفعلاً فإن الله تعالى جعل له هذا البيت؛ لأن الله تعالى هو رب الوفاء ورب الكرم والعطاء:

(١) مثير الأحران : ٢٨.

(٢) شجرة طوبى ١ : ١٢٥، تاريخ الطبري ٤ : ٢٨٩، البداية والنهاية ٨ : ١٧٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف) : ٦٦.

إن تهاوى الضريحُ والجدرانُ ما تهاوى الشموخ والعنفوانُ
إنما تهدم الحجارة والمضد عون يبقى مع المدى ويُصانُ

فالمسألة إذن ليست أحجاراً تشيد على الأرض، وإنما هي مكانة ومكان
له وضعهما الله تعالى في مشاعر الناس وقلوبهم، وجعل أفئدة من الناس
تهوي إليه، يقول أحد الأدباء:

لا تطلبوا قبر الحسين من بشرق أرض أو بغرب
ودعوا الجميع وعرجوا نحوي فمشهده بقلبي

نعم هو في مشاعر الناس وقلوبهم؛ لأنه حمل كل هموم الناس وقتل من
أجل أن يدافع عنها وعنهم.. حمل آلام المجتمع ومعاناته وقتل من أجلها،
فأعطاه الله عز وجل مكانة في مشاعر الناس وجعل ضريحه مهوى تلك
المشاعر، تطوف الأفئدة حوله وتقف على هذا الثرى الذي جسد موقفاً هو
من أروع المواقف التي يمكن أن يمر بها التاريخ فيقف عندها ليتحدث عنها.
إن الزائر لا يقف على الثرى وإنما يقف على هذا الموقف الذي جسده
الحسين عليه السلام، فهو ثرى مشبع بالمواقف الرجولية النبيلة التي احتضنت كل
مشاعر الإنسان وأقامت الدين وأنقذته من الضياع. إنه تراب مشبع
بالبطولات، وصعيد أريقت عليه دماء زاكيات وهي تدافع عن المبدأ والعقيدة:

فدمٌ أَرَقَتْ كَأَنَّهُ مِنْ جِدَّةٍ لَأَنَّ يَعْبِقُ بِالثَّرَى وَيُخَضِّبُ
وَتَرَكْتَ لِلْأَجْيَالِ حِينَ يَلُزُّهَا عَنَّتْ السُّرَى وَيَضِيقُ عَنْهَا الْمَهْرَبُ
جُثَّتِ الضُّحَايَا مِنْ بَنِيكَ تُرِيهُمُ أَنَّ الْحَقُّوقَ بِمِثْلِ ذَلِكَ تَطْلُبُ

إذن نحن لا نطوف على تراب ولا على عظام، وإنما نطوف على دم طاهر

وصوت يسمع وهو ينبعث من التراب : «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرُّ فرار العبيد»^(١). وأول من طاف على هذه الشاكلة حول قبر الحسين عليه السلام هم عائلته الشريفة وذلك عندما رجعت من السبي ولاحت لها أعلام كربلاء ، فقالت زينب (سلام الله عليها) : يا بن أخي قل للدليل فليعرِّج بنا على كربلاء. فعرِّج الدليل بهم ، وما كادت تلوح لها قبور أهلها وأنصارهم حتى نزلت من على ظهر الناقة ، وأقبلت من ورائها مسبيات الطف ، يدفن دفناً إلى قبر الحسين عليه السلام وما إن وصلتته حتى احتضنته :

واعيونك يبو السجّاد	لون يَمَك يَخْدُونِي
أحط راسي على مبرك	وارشّه بدمعة عيوني
واكضي العمر كلّهُ اهنّاك	واكلهم لليلوموني
شليّ بالعمر بعدك	شنهو عيشتي بليّاك

* * *

يا نازلين بكربلا هل عندكم	خبر بقتلانا وما أعلامها
ما حال جثة ميت في أرضكم	بقيت ثلاثاً لا يزار مقامها
بالله هل واريتموها في الثرى	وهل استقرّت في اللحد رمائمها ^(٢)



(١) الإرشاد ٢ : ٩٨ ، تاريخ الطبري ٤ : ٣٢٣ ، البداية والنهاية ٨ : ١٩٤ ، وفيها : أقرّ إقرار .
(٢) وفيات الأئمة : ١٦٧ .

دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ
بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ
الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: علاقة النص القرآني مع البيئة التي ينزل فيها

مما يجدر ذكره والتنويه إليه أن قضية تفسير كتاب الله جلّ وعلا هي قضية مشكلة؛ ذلك أن إناطة تفسير بعض النصوص القرآنية بالإنسان يعدّ عملاً غير علمي وغير منهجي فيما إذا كان ممن لا يملك إماماً بوضع الجزيرة العربية قبل الإسلام. والسبب في ذلك أن الآيات الكريمة عادة تكون مرتبطة بالبيئة التي تنزل فيها، وبالخصوص منطقة شبه الجزيرة العربية التي كانت تميّزها خصوصيّاتها في مجال الميراث العقيدي والاجتماعي وغيرهما، إضافة إلى أنها كانت مسكناً لليهود الذين كانوا يمسون بالجانب العلمي

(١) الشعراء: ١٩٧ - ١٩٩.

وفق المستوى السائد آنذاك باعتبارهم أهل كتاب وعندهم التوراة. وكانوا يعدّون ممّن اختصّوا بمعرفة التاريخ والحوادث التاريخية.

وبهذا كانوا يعدّون أهم مرجع في هذا المجال، بحيث إن أي أحد من سكان الجزيرة العربية كان إذا عرضت له مشكلة يلجأ إليهم مستفسراً منهم عن حلّها.

وهذا الأمر بقي حتى نهاية القرن الأوّل من التاريخ الإسلامي تقريباً، وكمثال على هذا كعب الأحبار الذي بقي متمسكاً بهذا، وقد سأل أحدهم في مجلس عثمان: هل يجب على من دفع زكاة أمواله في حول أن يدفعها ثانياً في حول ثانٍ؟ فتسرّع كعب وقال: لا؟ وكان أبو ذر جالساً فرفع عصاه وضرب بها رأس كعب وقال له: يابن اليهودية، من الذي جرّأك على الفتيا في ديننا^(١)؟

وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يأخذون بأزمة الأمور العلميّة حتّى في عصر صدر الإسلام وما بعده.

القرآن يوظف معرفة اليهود لإثبات النبوة

وقد وظف القرآن الكريم هذه الظاهرة، كيف؟ أمر العرب بالرجوع إليهم كونهم ممّن يعتقدون بنزول القرآن من السماء، فأراد القرآن الكريم إلزام العرب عن هذا الطريق، فهو يقول لهم: إذا كان هؤلاء مرجعكم الذي ترجعون إليه فاسألوهم عن القرآن: كيف نزل؟ ومن أين نزل؟ وهل نزل من الله أم

(١) بحار الأنوار ٣١: ٢٧٢، نقلاً عن تاريخ الثقفي، الفتنة ووقعة الجمل: ٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ١٩٧ - ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٤١٧، ٤١٨، سير أعلام النبلاء ٢: ٦٨.

لا؟ لقد كان لهؤلاء بصمات واضحة على تاريخنا وفقهائنا، وهي بصمات مرّة؛ لأنهم نقلوا ما عندهم من سلبات وأفكار منحلّة ورواسب مزيفة محرّفة في أذهانهم وسكبوها في تاريخنا وعقائدنا وفي تفاسيرنا.

وهناك جملة من المراجع الإسلامية قد تأثرت بالفكر الإسرائيلي تأثراً بالغاً وصل إلى الحدّ الذي ينبغي معه على العلماء التحرك نحو غربلة هذا التراث وتسليط الأضواء عليه لتنقيته من هذه الشوائب والمظاهر. ودعني أضرب لك مثلاً من هذه الإسرائيليات التي غرست في فكرنا ومؤلفاتنا عبر اليهود الذين أسلموا وانضوا تحت راية المذاهب الإسلامية، وكان هؤلاء يتدخلون في موضوع العقائد والأحكام والتاريخ، ومن هذا ما يرويه مسلم^(١) والبخاري^(٢) في صحيحيهما من أن النبي الأكرم ﷺ قال: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت، وإنّي لا أراها إلّا الفار، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت». والأمة: الجماعة من الناس، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(٣).

ثمّ يعقب النووي على هذه الرواية فيقول: «معنى هذا أن لحوم الإبل وألبانها حرّمت على بني إسرائيل دون لحوم الغنم وألبانها؛ فدلّ بامتناع الفأرة من لبن الإبل دون الغنم على أنها مسخ من بني إسرائيل»^(٤). وأنا لا أدري فيما إذا كان هذا قد ساءل عقله: هل إن الفار مكلف حتى

(٢) صحيح البخاري ٤: ٩٨.

(١) صحيح مسلم ٨: ٢٢٦.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨: ١٢٤، فهل المسوخ مطيع لله؟ ولو كان مطيعاً لله فكيف مسخه؟ فكيف يمتنع إذن عن لحوم الإبل وألبانها طاعة لله من عصي الله فمسخه فأراً؟ هذا فضلاً عن مسألة التكليف التي أوردها المحاضر.

يحرم عليه شرب لبن الإبل ؟ إن هذه الرواية وأمثالها من الروايات تدفعنا إلى الدعوة إلى تنظيف تراثنا وفكرنا من هذه الإسرائيليات، وهذا اللون من الإسفاف.

ومثال آخر ما يروى عن زيد بن أسلم أن النبي نوحاً عليه السلام لما سلك في السفينة من كل زوجين اثنين شكاه أصحابه الفأرة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله تعالى إليه أن امسح جبهة الأسد فمسحها فخرج منه سنوران ذكر وأنثى، فأكلا الفار إلا ما أراد الله أن يبقى منه، فاخبتأت الفأرة منهما. ثم تأذوا بأذى أهل السفينة، فشكا النبي نوح عليه السلام ذلك إلى الله، فأوحى الله إليه أن امسح ذنب الفيل، فمسحه فخرج منه خنزيران، فأكلا الفضلات^(١).

البخاري والإمام الصادق عليه السلام

فهذا الذي لا تطاوعه نفسه أن يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أو أحد من الأئمة من ولده، بل ويأبى ذلك، نراه يروي أمثال هذه الروايات التي يصفها بعض الأدباء بقوله:

قضية أشبه بالمرزئة	هذا البخاري إمام الفئة
بالصادق الصديق ما احتج في	صحيحه واحتج بالمرجئة
ومثل عمران بن حطان أو	مروان وابن المرأة المخطئة
مشكلة ذات غوار إلى	حيرة أرباب النهى ملجئة
وحق بيت يمتته الوري	مغدة في السير أو مبطنة

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣١، وفي الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٧ عن ابن عباس.

إن الإمام الصادق المجتبي بفضله الآي أتت منبئة
أجل من في عصره رتبة لم يقترف في عمره سيئة
قلامة من ظفر إبهامه تعدل من مثل البخاري مئة^(١)

والآ فإن هذا الكتاب الذي يُنظر إليه على أنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى - بحيث إنه وصل بهم الأمر إلى القول بأن من روى عنه البخاري جاز

(١) النصائح الكافية : ١١٩. قال ابن أبي عقيل قبلها : « وإليك بعض ما ذكروا عنه ، أي الإمام الصادق عليه السلام :

قال في (تهذيب التهذيب) : « سئل يحيى بن سعيد القطان عن جعفر الصادق فقال : في نفسي منه شيء ، ومجالد أحب إلي منه . وقيل لأبي بكر بن عيَّاش : مالك لم تسمع من جعفر وقد أدركته ؟ قال : سألتُه عما يحدث به من الأحاديث : شيء سمعته ؟ قال : « لا ، ولكنها رواية رويناه عن آبائنا . » وقال ابن سعد : كان جعفر كثير الحديث ولا يحتج به ، ويستضعف ؛ سئل مرة : هل سمعت هذه الأحاديث عن أبيك ؟ قال : « نعم . » وسئل مرة ، فقال : « إنما وجدتها في كتبه » ... » .

ثم قال - يعني ابن حجر - : « يحتمل أن يكون السؤالان وقعا عن أحاديث مختلفة ، فذكر فيما سمعه أنه سمعه وفيما لم يسمعه أنه وجده . وهذا يدل على تثبته ... » . تهذيب التهذيب ٢ : ٨٨ - ٨٩ / ٥٦ .

قلت : احتج الستة في صحاحهم بجعفر الصادق إلا البخاري ، فكأنه اغترّ بما بلغه عن ابن سعد وابن عيَّاش وابن القطان في حقه ، على أنه احتج بمن قدمنا ذكرهم ، وهنا يتحير العاقل ولا ندري بماذا يُعْتذر عن البخاري .

ثم نقل الأبيات الآتفة ثم قال : « إن ما أصاب أهل البيت النبوي وشيعتهم أساسه وأصله معاوية الطاغية ، وما بثه ونشره وأيده بقوة السيف من سب علي وأهل بيته ، وانتقاصهم ووبال ذلك كله عائد عليه في الآخرة .. » (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) آل عمران : ٣٠ . انتهى كلام ابن أبي عقيل . وليعلم أن البخاري في صحيحه ٢ : ٤ / باب العيدين والتجمل فيهما ، يروي بسند فيه عبد الله بن أبي سرح الذي أمر الرسول الأكرم ﷺ بقتله مع جماعة ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، كما سيأتي ذلك في ذكر جملة من أحواله في محاضرة (النصرة والقرابة) .

القنطرة^(١) وصل بهم سابقاً أنهم إذا نزل الطاعون في بلد فإنهم لا يقرؤون القرآن، بل يقرؤون (صحيح البخاري) حتى يذهب عنهم البلاء والداء^(٢) - والذي يحظى بهذه الأهمية والاعتبار نجده يروي مثل هذه الرواية. في السنة الماضية^(٣) وقف أحد المحدثين وقال: إنما لم يرو البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه، مع أن الوشاء يقول: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعة آلاف شيخ في حلقات درسهم كلاً يقول: حدثني جعفر بن محمد الصادق^(٤)، فهل ليس من هؤلاء الأربعة آلاف شيخ ثقة ينقل عنه البخاري ويصحح طريقه إلى الإمام الصادق عليه السلام، لكن أن يخرج فأر من عطسة فيل يعتبر طريقها صحيحاً؟

والمأساة تكمن هنا، وهي ليست على مستوى قضيتنا نحن كشيعية، بل على مستوى الإسلام كله، وإلا فإن المستشرق حينما يأتي ليدرس ديننا، ثم يسأل عن أهم كتاب عند المسلمين تؤخذ منه الأحكام فيرشد إلى (صحيح البخاري)، فما هو الحال الذي سيكون عليه تصوّره وانطباعه عن هذا الدين؟ فهل هذه هي المضامين الصحيحة؟

شيخ البخاري: الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة عنزة

أحد شيوخ البخاري وهو محمد بن مثنى العنزي يقول - كما ينقل عنه في

(١) انظر: إرشاد الساري ١: ٢١، هدي الساري: ٣٨١.

(٢) قواعد التحديث (القاسمي): ٢٤١.

(٣) تاريخ هذه المحاضرة هو الحادي عشر من صفر عام إحدى وعشرين وأربعمئة وألف هجرية (على مهاجرها أفضل الصلاة وأتمّ التحية).

(٤) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

ترجمته - : نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقالوا له : كيف؟ قال : إن رسول الله ﷺ قد صلى إلينا^(١).

لكن أتدري ما هي القصة؟ إن القصة تكمن في أن رسول الله ﷺ كان يخرج أحياناً إلى المقابر يقرأ لهم الفاتحة وشيئاً من القرآن، وكان ﷺ أحياناً يرغب في الصلاة هناك، وبما أن الصلاة بين القبور مكروهة، فلذا كان ﷺ يضع عنزة - أي عصا^(٢) - بينه وبين القبر الذي يصلي إليه كحاجز عرقي، ثم يصلي^(٣). فكان أن تصوّر هذا الشيخ أن الرواية حينما تقول : صلى إلى عنزة فإنما تقصد قبيلته.

وهذه فعلاً مأساة، وإلا فأنت حينما ترجع إلى تراثنا الإسلامي وتجدّه يأتي عن مثل هذا الطرق أو عبر هذه المضامين فإنك ستشعر بالأسى والألم والمرارة، بل ويبيح على الألم، لأن من يمتنع عن الرواية عن أهل البيت عليه السلام فإنما يمتنع عن الرواية عن عدل الكتاب وآل بيت النبي ﷺ الذين يعبر عنهم أبو العلاء بقوله :

أخذ الخمسة الذين هم الأشد جاح في كل منطقي والمعاني^(٤)

رجع

فعلماء بني إسرائيل الذي يحفظون الكثير من هذه الروايات قاموا بدسّها في تراثنا، وهؤلاء ورواياتهم حقائق ثابتة لا يمكن إنكارها أو نفي وجودها،

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ : ١٢٥، وادعى أنه قالها مازحاً.

(٢) العين ١ : ٣٥٦ - عنز.

(٣) مسند أحمد ٤ : ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١ : ١٢٧، ٤ : ١٧٥.

(٤) ديوان سقط الزند : ٩٤.

لكن الأدهى والأمرّ أنهم قلبوا الأمر ضد الشيعة فقاموا باختراع شخصية وهمية ادعوا أن اسمها عبد الله بن سبأ فاخترعوا له وبه ما اخترعوا، ثم نسبوا المذهب الشيعي له، وجعلوا كل العقائد الشيعية يهودية المنشأ والأصل لأن عندهم عبد الله بن سبأ. وهذا من أعجب العجب، فمن في علمائه ورواته أكثر من عشرين يهودياً لا يعدّ فكره وعقائده يهودية أما نحن فمن فرية شخص واحد يهودي جعلت كل عقائد الشيعة يهودية.

وعلى أي حال فإن القرآن يصف هؤلاء بأنهم علماء؛ لأن لهم أثارة من علم، فهم يتوفرون على جنبه علمية نسبية استقوها من التوراة. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الإسلام لا يبخص أحداً حقّه أبداً، ولذا وصفهم بما وصفهم من العلم.

نبل الإسلام مع أهل الكتاب

ثم إنه لم يكتف بذلك بل عطف عليهم وتعاطف معهم، ومن ذلك أن المسلمين كانوا يسألون الرسول الأكرم ﷺ حول إعطاء أهل الكتاب من المحتاجين والمعوزين، فكان الرسول ﷺ يأمر بأن يعطوا من الصدقات المستحبة فقط، أمّا والواجبة فلا يجوز إعطاؤهم منها. وهذا رأي أيّمتنا وعلمائنا قاطبة، وهذا هو رأي القرآن الكريم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١). وهذا موقف في غاية النبل والمروءة. ومما يروى في هذا الصدد أن الشريفين المرتضى والرضي كانا يقودان حركة علمية في بغداد، وكانت تعد من أكبر

الحركات العلمية المعروفة آنذاك. وكان من أمرهما أن الشيخ المفيد رأى في منامه كأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين ﷺ صغيرين، فسلمتهما إليه وقالت له: علمهما الفقه. فانتبه متعجباً من ذلك، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت عليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريتها وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضى وهما صغيران، فقام إليها وسلم عليها، فقالت له: أيها الشيخ، هذان ولداي قد أحضرتكما لتعلمهما الفقه. فبكى أبو عبد الله وقال: هذا تأويل رؤياي، ثم قص عليها المنام، وتولى تعليمهما الفقه وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بقي الدهر^(١)، وكان هذا ببركة الزهراء ﷺ.

المهم أن المرتضى ﷺ أصبح يقود بعد ذلك أكبر حركة علمية وأضخم معهد علمي وديني آنذاك، وكان من أبناء هذه المدرسة وروّادها الأوائل الشيخ الطوسي ﷺ، فكان يأخذ عطاءه اثني عشر ديناراً ذهباً، وكذلك من أبنائها القاضي ابن البرّاج وكان يتقاضى راتباً شهرياً مقداره ثمانية دنانير ذهبية، وهكذا كل من فيها من الطلاب. وفوق هذا وضع لهم في المدرسة مخزناً يؤمّن الطلاب كلما احتاجوا لشيء من الأطعمة والوقود وأدوات الكتابة وغيره، وكان أمين المخزن يتولى تلبية حاجاتهم وتوفيرها لهم. وكان هناك بعض اليهود المعوزين الذين انتحلوا صفة طالب العلم كي يحصلوا على هذا العطاء

(١) الدرجات الرفيعة: ٤٥٩، لسان الميزان ٤: ٢٢٣، شرح نهج البلاغة ١: ٤٦.

الضخم - وفق حسابات تلك الفترة - غير أن الشريف المرتضى رحمه الله لم يفرقهم عن الآخرين مع علمه بحقيقة حالهم، فأمضى جرايتهم اليومية أو الشهرية واستمرّ معهم إلى أن أسلم بعضهم.

فالواقع أن الإسلام أظهر تعاطفاً واضحاً معهم ولم ينظر إلى غير الحريين منهم نظرة تدلّ على احتقارهم أو ازدراءهم، بل على العكس كان ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف وتودّد حتى استطاع بهذا أن يكسب بعضهم إلى الإسلام، مع أن هذا كان على عكس موقفهم من ديننا حيث حاولوا جهدهم تضليل الناس عبر دسّ الكثير من عقائدهم الفاسدة في عقائدنا وكتبنا، وكان موقفهم سلبياً إزاء هذا؛ ولذلك تجد أن المستشرقين قد تأثروا بالأقلام الحاقدة على الطائفة الإمامية، وكتبوا عنها كتابات غير صحيحة. وهذا كما قلنا ناشئ عن تأثرهم ببعض الكتاب الحاقدين الذين كتبوا عنا بدوافع من الحقد الأعمى.

فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أليس في هذا دليل على أن القرآن الكريم هو من الله؟ وفيه إشارة إلى أنهم يجب أن يطمئنوا إلى هذه الحقيقة؛ لأنهم لما كانوا يرجعون إليهم في قضاياهم ومسائلهم، ويطمئنون إليهم في إجاباتهم، فليرجعوا إليهم في هذه المسألة أيضاً؛ فهم أعلم بحقيقة أن القرآن هو كتاب الله تعالى المنزل؛ لأنهم قد شهدوا بهذا^(١).

المبحث الثاني: لماذا لم ينزل القرآن على أعجمي؟

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، والمقصود بالأعجمي:

(١) وهو ما صرح به تعالى بقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ٧١.

غير العربي، سواء كان كردياً أو إيرانياً فارسياً أو تركيا أو غير ذلك^(١). وإنما عبّر عنهم القرآن بـ ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ لأنهم لا يعربون كلامهم، أي ليس لهم القدرة على الإفصاح والإعراب عن معاني القرآن بلغتهم. وكلّ من لا يستطيع أن يعبر عن مقاصده فهو أعجمي وإن كان عربياً^(٢).

تداعيات حكم النبي سليمان ﷺ في قضية الزرع

وأحبّ أن أشير لك إلى مسألة نصّ عليها القرآن الكريم في بعض قصصه التي ساقها لنا، فقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾^(٣)، والنفش هو أن تعيث الحيوانات في الزرع فساداً ليلاً^(٤)، فإن كان ليلاً أو نهاراً فهو همل^(٥).

والآية الكريمة تشير إلى حادثة وقعت زمن نبي الله داود ﷺ؛ فقد جاء اثنان فادعى أحدهما أن غنم الآخر قد عاثت في زرعه فساداً في الليل، وأتلفته، وكان كرمأً، وقد بدت عناقيده، فحكم نبي الله داود ﷺ بالغنم لصاحب الكرم، فقال النبي سليمان ﷺ: «غير هذا يا نبي الله». قال: «وماذا؟». قال: «يُدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتُدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله»^(٦).

(١) مجمع البيان ٧: ٣٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٣٨.

(٢) لسان العرب ١٢: ٣٨٦ - عجم. (٣) الأنبياء: ٧٨.

(٤) ترتيب إصلاح المنطق: ٣٨٥ - نفش. (٥) تهذيب إصلاح المنطق: ٤١١ - همل.

(٦) التبيان ٧: ٢٦٧، مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٧، تفسير القرآن

فنزلت الآية الكريمة : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ... ﴾ ^(١).

رأي العلماء في حكم النبي سليمان عليه السلام

وهنا نطرح سؤالاً: هل كان هذا اجتهداً أم لا؟ وهل نسخ هذا الحكم أم لا؟ وهل هو بداء أم لا؟ أنا لا أريد أن أدخل في هذه المتاهة ^(٢)، لكن سأعرض لك آراء المذاهب الإسلامية في حكم الضمان هنا:

أولاً: رأي الإمامية

إن علماء الطائفة الحقّة يرون أن صاحب الأغنام إذا كان قد أهمل غنمه فهو ضامن للزرع، وإلا فلا ضمان عليه ^(٣).

ثانياً: رأي الشافعية

أما الشوافع فيرون أن صاحب الغنم لا يضمن إن كانت الغنم قد عاثت في الزرع نهاراً؛ لأن من شأن الناس أنهم يكونون موجودين في أماكن عملهم وزراعتهم وقت النهار، وهم مسؤولون عن حمايتها حينها، وعليه فلو وقع ذلك لم يضمن صاحب الغنم. أما إذا وقع النفس (أي ليلاً) فإن صاحب الغنم يضمن إذا كان قد أهمل غنمه؛ لأن الناس يتركون زروعهم ومصالحهم ويأوون إلى النوم، فعليه أن يحفظ حيواناته، وإلا فلا ضمان عليه ^(٤).

ثالثاً: رأي الأحناف

وهنا موضع الشاهد؛ إذ أن أبا حنيفة يرى أنه لا ضمان على صاحب الغنم

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) انظر: مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٩.

(٤) الإقناع ٢: ٢٠١، مغني المحتاج ٤: ٢٠٥.

(٣) المقنعة: ٧٧٠.

إلا إذا كان معها أحد^(١) لقول النبي: «جرح العجماء جبار»^(٢)، والمقصود بالعجماء: الحيوان؛ حيث إنه أعجم لأنه لا يستطيع أن يعرب عما في نفسه، فكل حيوان أعجم^(٣). فالحيوان لا يستطيع أن يعبر عن ألمه إذا تألم، ولا يستطيع أن يعبر عن جوعه إذا جاع وكذلك العطش وغيره من الإحساسات والمشاعر الأخرى. يروى أن أحد الصلحاء كان إذا أصاب القوم عام جذب أو مخل فإنه كان يشتري العلف لدابته قبل أن يشتري الطعام لنفسه، فلما سئل عن سبب ذلك أجاب بأنه يملك أن يعبر عن شعوره بالجوع والألم أما الحيوان فلا يملك هذه القدرة على التعبير عن ذلك؛ ولذا فإن الواجب أن أرحمه حتى يرحمني الله^(٤).

أسباب رفض نبوة الأعجمي

إذن كل ما لا يعقل ولا يتمكن أن يفصح عما في نفسه يسمى أعجمياً. والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، أي على ابن أمة لغة غير العربية، فسوف لن يؤمنوا به. وذلك يعود لعدة أسباب منها:

السبب الأول: دافع الأنفة والكبرياء

فالبعض لا يؤمن بما يأتيه به الأعجمي لما يحمله من شعور في نفسه بأنه أفضل من بقية الأقوام؛ فهو يأنف من أن يتبع من هو أدنى منه. وألفت نظرك

(١) قريب منه في الشرح الكبير ٥: ٤٤٦، وفيه حول الكلب العقور.

(٢) مسند أحمد ٢: ٤٧٥، سنن الدارمي ١: ٣٩٣.

(٣) لسان العرب ١٢: ٣٨٩ - عجم.

(٤) قال عليه السلام: «أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء». الفقيه ٤: ٢٧٩/٨٠٦، مسند

أبي يعلى ٨: ٤٧٥/٥٠٦٣.

إلى أن هذا التفكير قد وقع به حتى فقهاء المذاهب الأربعة حيث إنهم يرون أن الأعجمي ليس كفتاً للعربية في الزواج، وهذا الرأي كما قلت يذهب إليه جميع فقهاء المذاهب الأربعة باستثناء مالك وبعض الفقهاء الموالك^(١)، وكذلك فقهاء الإمامية فإنهم يرون أن المسلم كفء المسلم ولو كان أعجمياً.

والمسلم هو من يقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ»، ولم يخالف ضرورة من ضروات الإسلام، وقد قال ﷺ: «المؤمنون تكافأ دماهم، ويسمى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٢)، ومع هذا فإن فقهاء المذاهب الأربعة عدا بعض الموالك كما ذكرنا يذهبون إلى عدم تكافؤ الأعجمي والعربي. وهذا الرأي نستطيع أن نمنحه صفة الطابع القومي وأن ندرجه تحت غطاء أبعد من أن يكون ذا طابع إسلامي؛ لأنه يبتعد كل البعد من تعاليم الإسلام، وإلا فآين ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣)؟ إن هذا بعيد كل البعد عن تعاليم الإسلام وعن روح الإسلام وهو لا ينسجم مع نظرة الإسلام الواحدة إلى كل الأقوام والأجناس. إن أي فكر من هذا القبيل يعدّ فكراً بعيداً تمام البعد من الإسلام.

والغريب أن المذاهب التي لا ترضى للزوج أن يكون أعجمياً ترضى للخليفة أن يكون غير عربي، مع أن الخلافة قيادة مجتمع في حين أن الزواج

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢: ١٤.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجه ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ - ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

(٣) الحجرات: ١٣، وقال ﷺ: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى» مسند أحمد ٥: ٤١١.

قيادة أسرة. ومن يذهب إلى هذا الرأي هو أبو حنيفة؛ حيث إنه يقول بجواز كون الخليفة غير عربي. وهو بهذا يخالف جميع المذاهب الإسلامية التي تستند إلى قول الرسول ﷺ: «كلهم من قریش»^(١)، وهو حديث مروي في الصحاح. فأليس تناقضاً أن تقبل للأعجمي بأن يقود المجتمع، ثم لا تقبل له أن يقود أسرة؟ وأليس هذا نوعاً من الترفع والتكبر الذي تأباه طبيعة دين الإسلام وروحه. ومما يمكن أن يستشهد به في هذا الصدد أن عبد الله بن عمر كان يقول: لقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لأن تكون لي ولحده منهن أحب إلي من حمر النعم: زوجته رسول الله ﷺ ابنته وولدت له، وسد الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر^(٢).

وإذا كان يرى هذا، فلنا أن نسأله: لماذا امتنعت عن بيعته ﷺ إذن^(٣) مع ما ذكرت له من خصال ومناقب؟ ولقد ذكرت في محاضرات سابقة مواقف هذا الرجل تجاه أمير المؤمنين ﷺ؛ إذ أن له مواقف^(٤) معه تجعل منا أصحاب حق في أن ننحو هذا المنحى معه، ونأخذ منه هذا الموقف. فالأمر لم يقتصر عند امتناعه عن البيعة فقط، بل إنه اتخذ بعداً أكبر من هذا.

إننا لا نستطيع أن نقف موقفاً سلبياً من أي شخص ما لم يكن أهلاً لذلك الموقف، فلا تصدر الأحكام اعتباطاً، ولا تحكماً، وليس عندنا قوالب جاهزة مسبقة على ضوء تصوراتنا وآرائنا ثم نصيها على الناس. وإلا فإن

(١) مسند أحمد ٥: ٨٧ - ١٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٢٧، صحيح مسلم ٦: ٣ - ٤.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٦، المستدرک على الصحيحين ٣: ١٢٥، وقال بعده: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٣٦ / ٥٠٠، مسند أبي يعلى ٩:

٥٦٠١ / ٤٥٣. (٣) انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٩، ١٠، ١١.

(٤) بل مع كل أحرار الإسلام، ومنها موقفه يوم الحرّة، انظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢.

علي بن أبي طالب هو إمام المتقين^(١) الذي قام الإسلام كله على ساعده وسيفه^(٢) هل يجوز لأحد أن يقف منه هذا الموقف الذي هو كله نصب وعداء؟ أين ولاية المؤمنين بعضهم للبعض الآخر^(٣)؟

(١) وإليك جملة من الروايات التي نقلها جلال الدين السيوطي في الجامع الصغير ٢ : ١٧٦ -

١٧٨ / ٥٥٨٦ - ٥٦٠١ عن رسول الله ﷺ :

«علي أخي في الدنيا والآخرة».

«علي أصلي ، وجعفر فرعي».

«علي إمام البررة وقاتل الفجرة ، منصور من نصره مخذول من خذله».

«علي باب حطة ، من دخل منه كان مؤمناً ، ومن خرج منه كان كافراً».

«علي عيبة علمي».

«علي مع القرآن والقرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يرثي علي الحوض».

«علي مني وأنا من علي ، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي».

«علي مني بمنزلة رأسي من بدني» أي أنه ﷺ جعل نفسه الشريفة بمنزلة الجسد ، وجعل

أمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة الرأس ؛ لعظيم منزلته ، وشرف دوره في رفع راية الإسلام الحنيف.

«علي مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا إنه لا نبي بعدي».

«علي بن أبي طالب مولى من كنت مولاه».

«علي يزهر في الجنة ككواكب الصبح لأهل الدنيا».

«علي يعسوب المؤمنين ، والعال يعسوب المنافقين».

«علي يقضي ديني».

(٢) قال ابن أبي الحديد :

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاما

فهذا بمكة آوى وحامى وذاك يثرب شام الحساما

تكفل عبد مناف بأمر وأودى فكان علي تاما

فلله ذا فاتحاً للهدى ولله ذا للمعالي ختاماً

شرح نهج البلاغة ١٤ : ٨٤ ، وانظر الصراط المستقيم ١ : ٣٣٤ ، الدرجات الرفيعة : ٦٠ .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ

وهذا طبعاً من الآراء التي نشأت فيها الشعوبية وتبرعت؛ فقد ولدت الشعوبية كردة فعل لهذا التوجه، فراح الشعوبيون يؤكدون على شتم العرب واحتقارهم، وراحوا يشوهون حضارة العرب تشويهاً كاملاً، ثم عمدوا إلى محاولة هدمها عبر كتاباتهم وأقلامهم، يقول أبو نؤاس:

عاج الشقي على ربع يسائلهم وعدت أسأل عن خفارة البلد^(١)

وعندما تقرأ هذه القصيدة تجد فيها الكثير من هذا النوع، وهناك الكثير من النصوص التي تصب في هذا المصّب، بل وصل الأمر ببعض أن رأته يقول: إن الله عز وجل لم يبعث نبياً من العرب. وهذه عملية ردة فعل، يقول النبي ﷺ: «من شتم أباه، فهو بعيد عن رحمة الله». ف قيل له: يا رسول الله، أويشتم الرجل أباه؟ فقال ﷺ: «نعم، يشتم أبا الرجل فيشتم ذلك الرجل أباه»^(٢).

وهذا من ذلك النوع عينه، فهو لاء أوجدوا الفعل وردة الفعل، فلينتظروا ما وراء ردة الفعل؛ ففي الوقت الذي كان العرب يعدّون غيرهم غير أكفاء لهم فيه كان عليهم أن يتوقعوا أن الآخرين أيضاً سينتقصونهم ويعدّونهم غير أكفاء. ولهذا تبرعت حركة الشعوبية وترعرعت، ثم اتسعت بعد ذلك ووصلت إلى

عَزِيزٌ حَكِيمٌ التوبة: ٧١، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠.

(١) ديوان أبي نؤاس: ١٨٨، ومنها.

ولا شفى وجد من يضبو إلى وتدي
لا درّ درك قل لي من بنو أسد
ليس الأعاريب عند الله من أحد

لا يرقى الله عيني من بكى حجراً
قالوا ذكرت ديار الحي من أسد
ومن تميم ومن قيس وإخوتهم

(٢) مسند أحمد ٢: ٢١٤.

حدود بعيدة ومجالات كبيرة، فلبست ثوباً آخر، حتى وصل الأمر أنهم كلما كرهوا أحداً وأبغضوه رموه بالشعوبية. وقد فاجأني أحد الأساتذة مرّة، باتّهامه دِعْبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إني من القوم الذين سيوفهم قستلت أخاك وشرفتك بمقعدي
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهدي^(١)

فكيف يجترئ ويحمل على الخليفة العباسي؟ ولنا أن نسأل: ما هي علاقة هجائه المأمون بالشعوبية هنا؟ لكن الظاهر أن الكراسي تقدّس الرجال عند هؤلاء، وأن من يصل إلى كرسي الحكم فلا يجوز القدح به أبداً؛ ولذا فإنهم يأخذون أحكامهم من عبد الملك بن مروان. ومن هؤلاء مثلاً الدميري حيث يقول في كتابه (حياة الحيوان): «وكانت خلافته - أي الإمام الحسن عليه السلام - خمسة أشهر وستة أيام، وهي تكملة ما ذكره رسول الله ﷺ من أمر الخلافة، ثم يكون ملكاً عضواً ثم يكون جبروتاً وفساداً في الأرض، وكان كما قال ﷺ. لكنه يرجع بعدها مباشرة فيقول: «خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان (رضي الله تعالى عنه)»^(٢). وكأنه نسي قوله: إن خلافة الإمام الحسن عليه السلام هي تكملة الخلافة الراشدة التي ذكرها الرسول ﷺ ثم يكون بعدها فساد وإفساد! ويريد بالخلافة التي ذكرها الرسول الأكرم ﷺ هو قوله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون عاماً، ثم تكون ملكاً عضواً»^(٣).

(٢) حياة الحيوان ١ : ٨٤.

(١) ديوان دعبل : ٦٤.

(٣) مسند أحمد ٥ : ٢٢١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ : ٢٠١، فتح الباري ٨ : ٦١.

السبب الثاني: الامتناع بدافع العناد

وكان هذا النوع من التفكير موجوداً، فكان هؤلاء يأتون إلى الرسول ﷺ ويقولون له: ألم يجد الله غيرك لبيعته لنا^(١)؟

السبب الثالث: عدم قدرة الأعجمي على إعراب اللغة

وهذا هو موضع الشاهد هنا؛ ذلك أن النبي الأعجمي لا يستطيع أن يعرب عن خواص اللغة كي يوصل المعنى والأحكام خلالها. وهذا موجود فعلاً وسيوضح مما سأذكره من أمثلة على ذلك.

نماذج من خواص اللغة

ففي اللغة العربية نماذج كثيرة على هذا أذكر منها:

النموذج الأول: مفهوم العدد

فنحن حينما نقرأ القرآن الكريم ثم نصطدم ببعض تعبيراته فإننا نفهمها، لكن حينما يأتي أحد من حضارة غير عربية ويقرأ الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢) فإنه سيقول: حينما يستغفر لهم خمساً وسبعين مرة فهل الله سيغفر لهم؟ وهذا طبعاً أمر ناشئ من عدم فهم خواص اللغة. وهذا ما يعبر عنه علماء الأصول بمفهوم العدد^(٣). وهذا الأمر

(١) قال تعالى: ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف: ٣١. وكذلك قال أهل الطائف لرسول الله ﷺ عند ذهابه إليهم: أما وجد الله نبياً غيرك لبيعته؟ انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ يعقوبي ٢: ٣٦ - ٣٧، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١. (٢) التوبة: ٨٠.

(٣) قال الشيخ محمد رضا المظفر: «لا شك في أن تحديد الموضوع بعدد خاص لا يدل على انتفاء الحكم فيما عداه، فإذا قيل: صم ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه لا يدل على عدم استحباب صوم غير الثلاثة الأيام. فلا يعارض الدليل على استحباب صوم أيام آخر. نعم لو كان الحكم للوجوب، وكان التحديد بالعدد من جهة الزيادة لبيان الحد الأعلى فلا

أشبهه ما يكون بما حصل لمعاوية فقد صعد أحد ولاته المنبر وقال : لعن الله المجوس؛ فقد بلغني أنهم يتزوّجون أمهاتهم، والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم لما تزوّجت أمي. ولما بلغ الخبر معاوية قال : يبدو أن هذا لو أعطي أحد عشر ألف دينار لكان قد فعلها وتزوّج من أمّه ثمّ عزله^(١).

فإذا كان ابن اللغة والحضارة يغفل عن بعض خصائصها فكيف بمن لم يكن كذلك ؟

النموذج الثاني: أسلوب التوكيد

ومن ذلك ما نقرؤه في الكتاب المجيد من قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾^(٢)، فقد يقول قائل : لماذا استخدم لفظة ﴿فَوْقِهِمْ﴾ ؟ وهل يكون السقف إلّا من فوق ؟ فما وجه ذكر ذلك إذن ؟

إن مثل هذا التساؤل ينمّ عن عدم معرفة بخلفية اللغة العربية وخواصّها، ذلك أن هذه اللفظة قد اعتاد العرب على استعمالها في المكاره. وهذا فيه لون من ألوان التوكيد لهذا المعنى.

وهكذا توجد هناك الكثير من خواص اللغة لا يعرفها إلّا ابن اللغة المتضلع فيها وفي خلفياتها البلاغية ووجوه استعمالاتها، فهذا التراث لا يفهمه إلّا أهله. ولذا فإن القرآن الكريم يصرّح بأنه لو أنزل على أحد غير هؤلاء لما أدّى رسالته بالشكل الصحيح المطلوب منه تأديتها به ؛ لأن اللفظ يشترك مع

شبهة في دلالة على عدم وجوب الزيادة، كدليل صوم ثلاثين يوماً من شهر رمضان. ولكن هذه الدلالة من جهة خصوصية المورد لا من جهة أصل التحديد بالعدد حتى يكون لنفس العدد مفهوم. فالحق أن التحديد بالعدد لا مفهوم له». أصول الفقه ١ : ١١٩.

(١) شرح نهج البلاغة ١٨ : ١٦٦، وهو دال على جهل معاوية بأحوال اللغة العربية.

(٢) النحل : ٢٦.

المعنى في أداء الصورة الشاخصة والفكرة المرادة التي يُريدها الإسلام.

على أي حال فإن مسألة بعثة النبي من غير العرب لاقت وتلاقي عقبات كثيرة كان أهمها عقبة الأنفة والتكبر، ولذلك فإن الله تعالى اختار رسوله الكريم بما يمتلك من خصائص ومزايا وقابلية على تذويب هذه العقبات بما وهبه من خلق عالٍ. وإلا فإن غير الرسول ﷺ لم يكن يستطيع أن يفعل ما فعله هو، ولم يمكن للشرعية الإسلامية أن تأخذ هذه المكانة العالية. لكن الرسول ﷺ تحلى بمزايا ذوبت كل هذه العقبات التي وقفت بطريقه فكان يأتي إلى معاطن الإبل ليدعو الأعراب إلى الإسلام. ويخاطبه أحدهم بغلظة البداوة ذات مرة بعد أن وزع الغنائم وكان قد أمسكه ﷺ من رداءه وسحبه حتى أثر الرداء في عنق النبي ﷺ واحمرت رقبتة وقال له: اعدل يا محمد، فليس المال لك ولا لأبيك. فقال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو كان لي جبلان من ذهب وفضة لفرقتهما عليكم ثم لا تجدونني بخيلاً»^(١). ومع أن أسلوب الأعراب لا يرتقي عن هذا المنطق اللفظي فإننا نجد أن النبي ﷺ لم يكن يأنف عن الجلوس إليهم ودعوتهم فيهدي هذا ويُرشد هذا ويطوف على بيوتهم ويحمل ذلك الخلق الكبير وتلك الرحمة التي لا حدود لها؛ لأنه ﷺ يعلم حجم العقبات التي تعترض طريقه وطريق دعوته فتمنعها

(١) لم نعثر على حديث الرسول ﷺ هذا ضمن هذه الحادثة، بل إن في هذه الحادثة قال الرسول ﷺ: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل». بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجه ١: ٦١.

أما ما أورده المحاضر ﷺ من حديث له ﷺ فقد أورده المتقي الهندي في حادثة أخرى. انظر كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩، وفيه: «فوالذي نفسي بيده لو كان معي مثل شجر وطائر نعم حمر لقسمته بينكم ثم لا تجدونني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

من الوصول إلى قلوبهم .

وإلا فإن مجتمعاً نشأ على الجاهلية وشبّ وشاب عليها يصعب التعامل معه وتذليل شُموسه، فهو مجتمع قاسٍ وصلت به قسوته إلى درجة أن أحد الصحابة كان يقول : كلما تذكرت حادثة وقعت لي ازددت تألماً. فقليل له : وما تلك الحادثة؟ فأخبر أنه ما ولدت له بنت قط إلا وأدها، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يحدثه فقال له : كنت أخاف سوء الأحداث والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها، وما رحمت منهمنّ موءودة قط إلا بنية لي ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً.

ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت : من هذه الصبية، فقد أعجبني جمالها وكيسها؟ فبكت ثم قالت : هذه ابنتك كنت خبرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى انشغلت عنها، ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها، وهي تقول : يا أبت ما تصنع بي؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول : يا أبت أمغطيّ أنت بالتراب؟ أطاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريثها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريثه غيرها. فدمعت عينا النبي ﷺ ثم قال : «إن هذه لقسوة، وإن من لا يرحم لا يرحم»^(١).

(١) الأغاني ١٤ : ٧٠ - ٧١، والصحابي هو قيس بن عاصم.

فهو يقول: هذه الصرخة التي سمعتها منها قد آذتني. وهذه الأمة أمة عجيبة، يقول أحد الشعراء مخاطباً النبي ﷺ:

يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ حب في دنيا من صدى الجلود

فالأولاد ثمار الأكباد. وأنا لا أريد أن أقول: إن المجتمع العربي كان كله على هذا الشاكلة، ففيهم من يتصف بالرقّة والحنان، ونحن لا ننسى قول شاعرهم:

لولا بنّيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنت عيني من الغمض^(١)

لكن كان النمط القاسي الذي يتصف بمجانبية العطف هو النمط الأعم الأغلب، فلما جاء النبي ﷺ يحمل لهم القرآن الذي يفيض حباً وعطاءً ذلّ تلك العقبات واستل منهم الحقد والبغضاء، وحبب أبناءهم إليهم، فأمنوا بالله تعالى وبكتابه. وهنا وقف الرسول ﷺ يؤكد هذا الجانب: «من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، وأوسع عليها من نعمة الله التي أوسع عليه، فلم يثدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده (أي الذكور) عليها، أدخله الله الجنة، وكانت له منعة وسترأ من النار»^(٢).

وبالفعل مشى ﷺ معهم على هذا المستوى إلى أن جعل بناتهم محبيات

(١) ديوان الحماسة ١: ٢٨٧، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٦١.

(٢) تفسير الثعالبي ٣: ٤٧١، فتح الباري ١٠: ٣٥٩، المعجم الكبير ١٠: ١٩٧، كنز العمال

إليهم كأبنائهم، أي أنه استل منهم هذه الأحقاد والبغضاء وزرع في نفوسهم الحب والعطف والحنان.

وقد طبق ﷺ هذا السلوك عملياً على نفسه بمعاملته لابنته فاطمة رضي الله عنها، فقد كان ﷺ يعاملها معاملة لفتت أنظار الصحابة. وكان عقيل بن علفة غيوراً موصوفاً بشدة الغيرة، وكان يأتيه رؤساء العرب يخطبون إليه ابنته فيرفض، وحمل يوماً ابنة له وأنشأ يقول:

إني وإن سيق إلي المهرُ ألف وعبدان وذودٌ عشرُ

أحبُّ أصهاري إلي القبر^(١)

فهذا يصل به الأمر إلى أن يصبح ذائباً في عاطفته إزاء ابنته، وهكذا عودهم رسول الله ﷺ الذي كان إذا جاءت فاطمة رضي الله عنها إليه وهي طفلة خفت لها يحملها ويقبلها. وكان قبل أن يذهب إلى محرابه يمرّ ببیت فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، فيقول: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»^(٢)،^(٣).

فتخرج إليه فاطمة رضي الله عنها، فيضع رأسه على رأسها، ويشبعها لثماً وتقبيلاً، ويقول: «إني أشم فيها ريح الجنة»^(٤)، ثم يقول: «باب فاطمة بابي، وحجابها حجابي»^(٥). وفي هذا المقال إشعار منه ﷺ بأهمية هذا الباب وهذه الدار،

(١) أمالي المرتضى ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢:

١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٤) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٤ / ٥.

(٥) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

ولذا كان عليه السلام يباركها كل يوم ستة أشهر قبل أن يذهب إلى صلاته ومحرابه .
وأقول : يا رسول الله ، يا أبا الزهراء ، ليتك تقف على هذا الباب لترى ما
جرى عليها ، لقد طرق أحد الشعراء هذا المعنى وهو يتجه إلى باب فاطمة
الزهراء عليها السلام ، فيقول :

يا باب فاطم لا طرقت بخيفة ويد الهدى سدلت عليك حجابا
نفسى فداك أما علمت بفاطم وقفت وراك تناشدُ الأصحابا
أفهل درى المسمار يوم أصابها من قبلها قلب النبي أصابا
أوما رقت لضلعها لما انحنى كسراً وعنه تزجر الخطابا

يقول المؤرخون : فتحت عليها السلام عينها فوجدت إلى جانبها ابنتها الحوراء
زينب ، فلم تسألها عما جرى لها ولا لجنيها بل سألتها عن أمير المؤمنين عليه السلام ،
فقالت لها : أمّاه ، لقد أخرجوه من الدار . فخرجت تقوم ويقعدها الألم ، ولما
وقع بصر الرجل عليها قال لغلامه : ويلك عد إليها . فرجع إليها يلوح بالسوط
أمام وجهها ، فلم تتراجع حتى حاذت قبر أبيها فتوجّهت إلى أبيها قائلة :

بويه الوغد عمداً ضربني ومن سطرته للكاع ذبني

من الناس ما واحد حشمني

* * *

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألا يشمّ مدى الزمان غواليا
صُبّت عليّ مصائب لو أنها صُبّت على الأيام صرن لياليا^(١)



(١) المغني (ابن قدامة) ٢ : ٤١١ ، نظم درر السمطين : ١٨١ ، سبل الهدى والرشاد ١٢ : ٢٨٩ ،
٣٣٧ ، مغني المحتاج ١ : ٣٥٦ .

النصرة والقراة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ
وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم
مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: وشيجة الروح

إن الهدف الأساسي والهيكل العام لهذه الآية الكريمة - كما يشير إليه الجوّ العام لها - ينصبّان على محور هامّ جداً في حياة كل مجتمع وجماعة، وهو أن وشيجة الروح أقوى من وشيجة الجسد^(٢).

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجه ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ - ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

فالحياة بما فيها من علاقات تعتمد على وشائج عدّة تختلف بحسبها. وهذه الوشائج بعضها أمتن من بعض وأشدّ حسب رؤية من تربطهم تلك الوشائج. فالإنسان مثلاً يرتبط بأسرته بوشيجة الدم باعتباره جزءاً منها باللحم والدم، ولكنه يرتبط برسول الله ﷺ أو بالمعصوم أو بالدين والمسلمين بوشائج روحية. والوشيجة الروحية عادة تكون أقوى من وشيجة الدم ومن النسب المادي، والمؤمن عادة يضحي بوشائج الدم في سبيل وشيجة الروح^(١).

وقال أبو فراس الحمداني رحمه الله :

كانت مودةً سلمانٍ له رحماً ولم يكن بين نوحٍ وابنه رجمٌ
ديوان أبي فراس الحمداني : ٢٥٥.

(١) قد مرّ - وهو دليل على هذا - طلبُ عبد الله بن عبد الله بن أبي من الرسول ﷺ أن يقتل أباه لأنه هدّد بإخراج الرسول ﷺ من المدينة. انظر: مجمع البيان ١٠ : ٣٧٣ - ٣٧٥، جامع البيان : المجلد ١٤ ج ٢٨ : ١٤٢ - ١٤٨. وقد مرّ في ج ٥ ص ٣٧١ من كتابنا هذا. في حين أن الخليفة الثالث حينما هدر النبي ﷺ يوم الفتح دم عبد الله بن أبي سرح أخيه من الرضاعة - وكان قد ارتدّ - ولجأ إليه، غيبه عنده حتى هدأ الناس واطمأنوا، فجاء به إلى النبي ﷺ، وطلب منه أن يؤمنه، فأعرض عنه النبي ﷺ، فأخذ عثمان يقول : آمنته يا رسول الله ﷺ؟ والنبي ﷺ يعرض عنه ولا يجيبه، ثم قال : «نعم».

ثم قال النبي ﷺ لأصحابه : «أعرضت عنه مراراً؛ ليقوم أحدكم فيضرب عنقه». وكان عباد ابن بشر قد نذر إن رآه أن يقتله، فقال له النبي ﷺ : «انتظرتك أن تفي بنذرك». فقال : يا رسول الله خفتك، فهلا أشرت إليّ بعينك؟ فقال ﷺ : «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خاتنة الأعين». انظر: السنن الكبرى (النسائي) ٧ : ١٠٦، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨ : ٥٣٦ / ١٥، فتح الباري ٦ : ١١٢، ١١ : ٨.

وكان يقول لقريش : إني أصرف محمداً كيف شئت، فكان يملي علي (عزيز حكيم)، فأقول : أو (عليم حكيم)، فيقول : نعم كلاهما صواب. وكلّ ما أقول، يقول : اكتب، فهكذا نزلت. جامع البيان : المجلد ٥ ج ٧ : ٣٥٤، الصارم المسلول (ابن تيمية) ٢ : ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، الثقات ٣ : ٢١٤، الاستيعاب ٣ : ٩١٨، تخريج الدلالات السمعية ١ :

والقرآن الكريم يلفت أنظارنا ويوجّه انتباهنا إلى أن الدين يستهدف بناءنا وتربيتنا، فهو بهذا اللحاظ حتماً يعدّ أهم من وشائجنا الدموية. مع أن في مجتمعاتنا علاقات لا يحدّها إلاّ الإنجاب، فكم من أب لا تربطه بابنه أي علاقة سوى أنه أنجبه، فليس هناك بينهما أي تناغم روحي، فلا الابن ينسجم مع أبيه ولا الأب ينسجم مع ابنه. فنادرًا ما نجد أسرة فيها اندماج كامل، والسرّ في ذلك هو ضعف التربية الروحية.

ثم إن القرآن الكريم يحاول أن يقضي على كل الوشائج التي تؤدي إلى حصول حالات من العصبية المقيتة بين الناس، ويخضعها إلى الوشيحة

١٧٩، السيرة الحلبية ٣: ٣٦ - ٤٢٢.

أو كما فعل مع مروان حيث ردّه إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله ﷺ مع أبيه إلى الطائف؛ لأنّ أباه الحكم أسلم يوم الفتح كرهاً ونفاقاً، وكان يستهزئ بالنبي ﷺ إذا غاب، ويتجسّس للمشرّكين أخباره، ويحكيه في مشيته، وقد قيل: إنّ النبي ﷺ كان إذا مشى يتكفّأ والتفت يوماً فرآه يمشي خلفه ويحكيه، فقال ﷺ: «كذلك فلتكن». فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ. أسد الغابة ١: ٥٨٨، الإصابة ٢: ٩٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٨٩، النزاع والتخاصم (المقريري): ٣٩. وفيهما قال بولس سلامة:

إيه عثمان كيف جئت بوغدٍ	تستجير الأنوفُ من أدراجه
حكم كان خصمَ أحمد حتى	ضجّ منه العداء في عدوانه
لم يسعه حلم الرسول وطه	منبع الحلم دافق من جنانه
جاء عثمان بابن صلّ طريد	وحباه الدفيء من أحضانه
واصطفاه الولي صهراً حبيباً	فأظّل الهنا به أم أبانه
هزل الدهر أن مروان صهر	وكنوز الإسلام رهن بنانه

وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون».

المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٧٩ ثم قال الحاكم بعده: صحيح الإسناد، السيرة الحلبية ١: ٥٠٩.

وانظر رائق الضمير ١: ١٢٠ - ١٢١.

الدينية ؛ لأن الوشيجة الدينية وشيجة عالمية تربط الإنسان بأخيه عبر علائق إنسانية تجعله يحب أخاه ويضحّي من أجله . وبعبارة أخرى ، يريد أن ينتقل بالإنسان ويرتقي به من تأثير غرائزه إلى ما هو أعلى من ذلك ، أي إلى كائن حضاري يرتبط مع أبناء نوعه برباط الدين والإنسانية وينبذ القتل والقتال .

فالغرائز تهبط بالإنسان إلى أدنى مستوياته ، وتجعله مخلوقاً متوحشاً يحكمه قانون الغاب ، فيظل يتقلب بين القتل والسلب والنهب واغتصاب حقوق الآخرين وأعراضهم ، وسلب كراماتهم وهدر حرياتهم . وملخص القول أن الإنسان إذا لعبت به غرائزه أصبح وحشاً ضارياً لا توقفه أخلاق ولا يحدّ من غلوائه دين . وهاهو العالم الذي نراه اليوم حيث يأكل فيه القوي الضعيف ، ويصادر فيه المستكبر حق المستضعف ، ولا تجد لليافطات التي ترفعها هيئة الأمم المتحدة أو المؤسسات الإنسانية الأخرى أي صدى أو أثر ، بل تجد أن هذه المؤسسات عينها مغيبة فضلاً عن اليافطات التي ترفعها والشعارات التي تنادي بها ، وأشدّ من ذلك أنك تجد أن أصحاب القوى والنفوذ وأصحاب القرار النافذ هم المتنفذون فيها والمتحكمون بقراراتها الصادرة والمسيطر على مقدراتها :

النواميس قضت أن لا يعيش الضعفاء

إن من كان ضعيفاً أكلته الأقوياء

ولذا فإن القرآن الكريم والدين يريدان أن يريانا على حب الآخرين وأن يربيا فينا الشعور بالآخرين والإحساس بمعاناتهم وبأن الوشائج الروحية أقوى من كل الوشائج الأخرى مهما تعددت وتنوّعت واختلفت متعلقاتها .

المبحث الثاني: في ولاية الرسول ﷺ على المؤمنين

تقول الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وفي هذا المقطع عدّة مضامين سنشير إلى بعض منها:

المضمون الأول: قراءة أبي لهذه الآية

يروى القرطبي في تفسيره أن عمر مرّ بابن عباس وهو يقرأ: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أب لهم). وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: احككها يا غلام. قال: أقرأنيها أبي وإنها في مصحفه. فأرسل إلى أبي بن كعب فجاءه، قال: فرفع صوته عليه، فقال أبي: كان يشغلني القرآن إذ كان يشغلك الصفق في الأسواق. فسكت عمر^(١).

وهذه الصورة التي نقلتها لك هي عينها التي يرويها القرطبي بنصّها وحذافيرها.

المضمون الثاني: موقفنا من القراءة والرواية

أما موقفنا من الرواية فهو سلبي جداً؛ ذلك أننا لا نأخذ إلا بما هو متداول بين الناس من المصاحف اليوم. وهو موقف واضح قد رسمه لنا أيّمتنا عليه السلام^(٢). ومع أن هذه الرواية موجودة عند فرق المسلمين^(٣) لكننا لا نعتدّ بها؛ لأن هذا

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٥، ولم يصرح باسم ابن عباس، وهو مصرّح به في تفسير القرآن (الصنعاني) ٣: ١١٢.

(٢) عن قيس بن عباد قال: قرأت على علي - يريد: أمير المؤمنين عليه السلام - «وطلح منضود» الواقعة: ٢٩. فقال علي: «ما بال الطلح؟ أما تقرأ؟ وطلع؟». فقل له: يا أمير المؤمنين، أنحكها من المصحف؟ فقال: «لا يهاج القرآن اليوم».

انظر: التبيان ٩: ٤٩٥، جامع البيان، المجلد: ١٣، ج ٢٧: ٢٣٤، كنز العمال ٢: ٤٦٤٨/٥١٩.

(٣) انظر إضافة إلى الهامش قبل السابق: جامع البيان، المجلد: ٧، ج ١٢: ١١١، المجلد:

الباب خطر جداً على اعتقادات المسلمين ، وإذا فتح على مصراعيه فسوف لن تبقى هناك ثقة بالقرآن الذي هو ما بين الدفتين كما قلنا . سأل الإمام الرضا عليه السلام أحد أصحابه فقال له : يابن رسول الله ، كيف نقرأ التوحيد؟ قال عليه السلام : « كما يقرؤها الناس »^(١) . والقرآن « هو ما بين الدفتين »^(٢) .

المضمون الثالث: النبي ﷺ له حق التشريع المالي

ويستدل الاقتصاديون من قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ على أن النبي ﷺ له الحق في أن يضع التشريعات المالية لسد حاجات المجتمع إذا أعوزت التشريعات الموجودة في القرآن الكريم عن ذلك . ولكي أوضح لك الفكرة أضرب مثلاً يقربها إليك ، فلنفرض أن المشرع الإسلامي أراد أن ينشئ دولة إسلامية ، فهو في هذه الحالة يعلم أن مشروعه هذا يحتاج إلى أموال ضخمة لتمويل فروعها وجهاتها ووحداته الإدارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ويعلم أنه لا بد من وجود وزارة للمالية تتولّى شؤون هذه المسؤولية وتسيّرهما ، وتعتمد المصادر المشروعة لها من ضرائب واستثمار الطاقات المودعة في الأرض والموارد فيها من معادن ونفط وغيرهما .

مع العلم أن المشرع الإسلامي يعطي المعادن ملكية فردية غير أنه يفرض

٢١ ، ج ٢١ : ١٤٧ ، معاني القرآن ٣ : ٣٦٨ ، أحكام القرآن ٣ : ٣٢٧ ، المستدرک علی الصحیحین ٢ : ٤١٥ الجامع لأحكام القرآن ٥ : ٣٥٩ ، ١٤ : ١٢٣ ، تفسير القرآن العظيم ٢ : ٤٦٩ ، ٤٧٧ ، تفسير الثعالبي ٤ : ٣٣٧ ، كنز العمال ٢ : ٥٩٦ / ، زاد المسیر ٦ : ١٨٢ ، الدر المنثور ٣ : ٣٤٢ ، ٥ : ١٨٣ ، فتح القدير ٢ : ٥١٦ ، ٤ : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(١) الكافي ١ : ٩١ / ٤ ، التوحيد : ٩٥ / ١٤ .

(٢) انظر نهج البلاغة / الكلام : ١٢٥ ، وانظر تصحيح اعتقادات الصدوق : ٨٤ .

عليها ضريبة، وفي بعض الحالات يؤمّمها. فإذا أردنا أن نرجع الآية إلى موضوع التشريعات التي تموّل صندوق المالية لوجدناها منحصرة بالزكاة، لكن الزكاة إنما جاءت صندوق ضمان لجهات عاجزة وليس جهة مالية. فالمالية إذن موكلة إلى النبي ﷺ وإلى نظر الحاكم المسلم الحق؛ ذلك أن النبي ﷺ له الحق أن يمدّ يده إلى رؤوس الأموال فيأخذ منها ما يشاء لسدّ حاجة المجتمع، فيضع الضرائب التي يراها صالحة لذلك دون أن تضرّ بمصالح الأفراد.

مدرك الحكم

ومدرك رأي المفسّرين هذا - أن النبي ﷺ له حق التشريعات المالية - هو دليل الأولوية. وتقريره أن من هو أولى من المؤمن بنفسه فهو (من باب أولى) أولى منه بماله.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إننا نعرف أن طاعة النبي ﷺ واجبة على كل مؤمن، وهي أنفذ على المؤمن من طاعته نفسه؛ لأن طاعة النبي ﷺ مقرونة بطاعة الله تعالى حيث أمرنا الله تعالى بذلك^(١) وباتباع ما جاء به الرسول ﷺ^(٢)؛ ولذا فإن رسول الله كان يقول: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وترك ضياعاً فإلي»^(٣)، والضياع تشمل الأموال التي لا قيم عليها. أي الأموال العامة. فالرسول يقول: أنا أولى بهذه الأموال.

(١) قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المائدة: ٩٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ الحشر: ٧.

(٣) انظر: أحكام القرآن ٢: ٢٣١، الطبقات الكبرى ١: ٣٧٧، كنز العمال ١١: ١٣ / ٣٠٤١٤.

ونسب من طرقنا إلى الإمام الصادق عليه السلام، انظر: الكافي ٧: ١٦٨ / ١.

المبحث الثالث: سبب نزول الآية الكريمة

ولنسأل الآن حول سبب نزول هذه الآية الكريمة ليتّضح هذا الأمر أكثر؛ ذلك أن السبب يحدد لنا المعنى. ويذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه حينما أراد النبي ﷺ غزوة تبوك، وأمر الناس بالخروج، قال جماعة من الصحابة: يا رسول الله، دعنا نستأذن آبائنا وأمهاتنا في الخروج إلى الجهاد. فنزلت الآية تخبرهم أن طاعة النبي ﷺ أهم وأولى من طاعة الآباء والأمهات؛ لأن رابطة الإنسان بأبويه هي رابطة دموية. ومع أن في هذه الرابطة عطفًا وحنانًا يحددان علاقة الأب بابنه والابن بأبيه لكنّ الأبوين مهما بلغا من حب وعاطفة وإشفاق فإنهما لن يبلغا عطف السماء ورأفتها، بل يظلّان دون ذلك بكثير ذلك أنه ليسا هما اللذان خلقاك، فالسماء هي التي خلقتك، وهما لم يكونا سوى واسطة في عملية الخلق هذه. فأمر النبي ﷺ إذن هو أمر السماء.. أمر الله الذي خلق الخلق، أما رابطة الإنسان بدينه ونيّته فإنها رابطة روحية قائمة على أساس التوغل إلى خفايا الروح لتهدئتها والولوج إلى خبايا النفس لتأديبها، أما هذا الجسد الذي يغذوه الأبوان فسيذهب إلى الأرض فتأكله الديدان. كان أحد الفلاسفة يخاطب والده قائلاً: لقد أخرجتني إلى كون الفساد، والله أخرجني إلى كون النور.

فهو يقصد أن أباه بالزواج أخرجته إلى هذه الدنيا التي هي كون فساد يترتب عليه تكوين أسرة وجمع ثروة، وهذه الأمور لا يحسّ الإنسان بفراقها حتى يحوزها؛ لأنه لولا أنها موجودة لما أحس الإنسان بلوعة الفراق. وهذا الكلام صحيح، لكنه أحد وجهي العملة، أما وجهها الآخر فهو أن

الوجود فيه خير وعطاء و«الدنيا مزرعة الآخرة»^(١). والإنسان هنا يمكن أن يفعل البرّ والمعروف والإحسان إلى الناس أو إلى نفسه بأن يطلب العلم. وكذلك ينبغي أن نسأل: من قال: إن هذا البلاء الذي يمرّ على الناس في الدنيا سيمرّ دون عوض؟ إن الله تعالى سيعوّض الإنسان عن كل بلاء ومكروه يقع فيهما أجراً في الدنيا أو في الآخرة، ثم إن الأجر في المفهوم الإلهي لا بد أن يكون أكبر من مسبّبه؛ لأنه إن كان أقل من المصيبة كان ظلماً، وإن كان مساوياً لها كان عبثاً؛ فكان لا بد من أن يكون أكبر منها، وهذا ما تبه إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

المبحث الرابع: معنى الأنفس في الآية

والآن لنسأل: ما هو المقصود بالأنفس في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؟ إن المراد من النفس الذات، فيكون المعنى: أولى بهم من ذواتهم. فلماذا سميت الذات نفساً؟ هناك رأيان لهذه التسمية:

الأول: أنها أنفس ما عند الإنسان

إن حياة الإنسان هي أنفس شيء عنده، أما من يفضّل أمواله على حياته - كما هو شأن قلة من الناس - فهذا لا يمكن أن تسميه إنساناً، بل هو مخلوق ضعيف مسكين. على أية حال إن النفس هي أثن شيء، والإنسان إنما يتعب جسمه ليريح نفسه ويرفّه عنها مادياً ومعنوياً، بزيارة الأرحام وطلب رضا الله تعالى، فعليكم بأعزّ الأنفس إليكم، وأعزّ الأنفس على الإنسان نفسه.

(٢) البقرة: ٢١٢.

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٦٧ / ٦٦.

إذن فالذات إنما سميت كذلك؛ لأنها أنفس شيء عند الإنسان، والإنسان أنفس ما في الوجود.

وقد يقول قائل: إن منطق الإنسانية غير هذا؛ فهناك حروب وهناك مذابح مروعة تقع من أجل مصالح مادية أو كرسي موهوم. وبعبارة أخرى إن المنطق السائد هو منطق الغابة الذي يفضل المصلحة المادية على الإنسان، فيأكل فيها القوي الضعيف، وتشنّ الحروب لأجل أن يبقى الحاكم الفلاني على كرسيه أو ليستولي على كرسي غيره، أو ليضع يده على المادة الخام في بلاد أضعف من بلده. وليس الإنسان في نظر هؤلاء إلا سلعة رخيصة، بل هو أرخص سلعة في الوجود من وجهة نظرهم، والحال أنه أثمن ما في الوجود. والجواب: أن هذا التساؤل صحيح، لكن هذا الأمر ناشئ من أن الإنسان نفسه لم يقدر وجوده ولم يعط إنسانيته حقها وقيمتها التي جعلها الله تعالى له.

الثاني: أنها مأخوذة من النفس

أي أن الإنسان إنما يتحرك باستعمال نفسه. وليس هذا أمراً ذا شأن، وإنما ذكرته للفائدة.

وعليه فإن المقصود من قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه ﷺ أولى بهم من ذواتهم.

المبحث الخامس: أمهات المؤمنين

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. والمقصود أن نساءه ﷺ يحرم من على المؤمنين بعد وفاته؛ فلا يجوز لأحد التزوج منهنّ بحال من الأحوال؛ وذلك تكريماً لفراش النبي ﷺ. فهن أمهاتهن من هذه الناحية. وتروى في المقام رواية كان الخليفة الثاني يتشجّع إزاءها، يقول عبد الله بن

عباس : دخلت على عمر بن الخطاب ، فتنفس تنفساً شديداً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما أخرج هذا منك إلا هم . فقال : نعم ، فويل لهذا الأمر لا أدري من له بعدي . ثم نظر إليّ فقال : لعلك ترى أن صاحبك لها؟ يعني علياً عليه السلام . فقلت : يا أمير المؤمنين ، وما يمنعه؟ أليس بمكان ذاك ، في قرابته من رسول الله ﷺ ، وسوابقه في الإسلام ومناقبه في الخير؟ فقال : إنه لكذلك ، ولكن فيه بطالة وفكاهة . قلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال : الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه ، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أصيبت يده ، مع هناة كانت له على عهد رسول الله ﷺ . قلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من الزبير؟ قال : وعقة لقس؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ قال : نعم المرء ذكرت ، وهو ضعيف ، ولا يقوم بهذا الأمر إلا القوي في غير عنف واللين في غير ضعف ، والجواد في غير سرف . فقلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من سعد؟ قال : صاحب فرس وقوس .

قلت : يا أمير المؤمنين ، فأين أنت من عثمان؟ قال : أوّه ، ووضع يده على رأسه وقال : والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس ، فكأنني أنظر إلى العرب قد سارت إليه حتى تضرب عنقه . والله لئن فعل ليفعلن ، والله لئن فعل ليفعلن ذاك به . ثم أقبل عليّ فقال : أما إن أحراهم إن وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة نبيهم صاحبك ، يعني علياً عليه السلام .^(١)

والهناة هي الذنب ، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل

(١) تاريخ المدينة ٣ : ٨٨٢ ، أنساب الأشراف ٥ : ١٦ ، منتخب كنز العمال ٥ : ١٨٩ ، وليس

فيها : مع هناة كانت له على عهد رسول الله ﷺ .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتَكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(١) أمر الرسول الأكرم ﷺ نساءه ألا يكلمن الناس إلا من وراء حجاب، فقال طلحة هذا: أيحببنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. وفي رواية: لنتزوجن فلانة من بعده. فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ، فأنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَخِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾^(٢) تعنّفه^(٣).

ونحن نقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا رشح طلحة للخلافة إذن^(٤)؟ على أية حال فزوجة النبي ﷺ لا يجوز لأحد أن يتزوج منها أبداً، وإن كان الأمر كذلك فهل يصح أن ترمى زوجة النبي ﷺ بالانحراف من بعده؟ معاذ الله ذلك؛ لأن ذلك إساءة للنبي ﷺ قبل أن يكون إساءة لزوجته، والله تعالى كرم الأنبياء وطهر أعراضهم من الدنس، وهو تعالى لم يتل نبياً من أنبيائه بذلك أبداً؛ لأنه نقص وعيب بحق النبي ﷺ. ثم إن الأنبياء عليهم السلام مثال الكمال، وهم القدوة في الدنيا، ولهم مكانة كبرى في نفوس الناس. ولذا فإنه

(١) الأحزاب: ٥٩. (٢) الأحزاب: ٥٣.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.

(٤) في مجلس الستة الذين رشحهم ليتولّى أحدهم الأمر من بعده.

لا يصحّ مطلقاً أن يرمى عرض النبي ﷺ أبداً بمثل هذا، وفاعله مرتكب لأكبر الكبائر والأوزار. إن هذا هو مذهبنا الذي نقول به، لكن حينما تقرأ بعض الكتب تجد فيها فتاوى تأمر بقتل بعض المسلمين والانتقام منهم بذريعة أنهم يسيئون إلى أم المؤمنين عائشة ويسبونها. فمن هؤلاء الذين أسأؤوا إليها؟ هل هم الذين يدينونها لأنها خرجت تقاتل إمامها^(١)؟ وهل إن الإدانة هي سب وشتهم؟

فالمسلم لا يفعل ولا يقول ما يسيء إلى الرسول ﷺ، وهؤلاء الذين سطروا هذه الأكاذيب ضدنا في كتبهم لهم موقف عسير أمام الله يوم القيامة؛ لأنهم ادعوا شيئاً لا أساس له ولا وجود، شيئاً نتحداهم جميعهم أن يشتبوه. إذن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين من جهة أن المسلم لا يجوز له أن يتزوج واحدة من أزواجه ﷺ بعد وفاته. أما ما توسّع فيه البعض في هذا المجال فأطلق على أخت زوجة النبي ﷺ خالة المؤمنين وعلى أخيها خال المؤمنين^(٢)، فهذا ما لا يقبل به أحد، ولا يقرّه عاقل. وحتى الإمام الشافعي^(٣) كان لا يرى هذا الرأي أيضاً، فيرفض هذه الألقاب لإخوان زوجات النبي ﷺ أو أخواتهن.

(١) أم أولئك الذين ينسبون إليها ما لا يجوز بحقها مطلقاً، من قبيل أنها كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحبّت من الكبار أن يراها ويدخل عليها. انظر المجموع شرح المذهب ١٨: ٢١٢.

(٢) انظر: مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، دفع شبه التشبيه: ٢٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٧، سير أعلام النبلاء ٢: ٢٢٢، مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، السيرة النبوية (ابن كثير): ٢٧٣، نظم درر السمطين: ٩٧، وغيرها كثير.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٦.

يروى أن إحدى النساء دخلت على عائشة فقالت لها: السلام عليك يا أمّاه. فقالت لها: أنا لست لك بأم لكن، إنما أنا أم رجالكن^(١). وهذا لكي يصون الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ عن وصمة لا تليق به.

هل يصح الزواج من زوجة الإمام؟

وقد توسّع أحد علمائنا في هذا الأمر، فبحث مسألة جواز الزواج من زوجة الإمام عليه السلام بعده. وهذا الأمر مبني على قاعدة أن الإمام عليه السلام له ما للنبي ﷺ من خواص باستثناء مسألة النبوة والوحي. وقد خلص من بحثه هذا إلى أن زوجة الإمام عليه السلام لا يجوز الزواج بها بعد وفاته، واستدل بما روى من أن أمانة بنت أبي العاص زوجة أمير المؤمنين عليه السلام قد تقدم لخطبتها جماعة بعد استشهادها عليه السلام، فأبت وروت بذلك رواية. وأنا لا أريد أن أناقش هذا الرأي هنا وإنما ذكرته لأجل التنبيه له.

إذن فقله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ فيه تنبيه للمؤمنين إلى حقيقة أن بيت النبي ﷺ قد ربّى المؤمنين روحياً وعقيدياً وهو يربّيهم عاطفياً؛ لأن أزواجه أمهاتهم؛ فلا يسعهم الزواج منهن؛ فلهن حكم الأمومة من هذه الناحية، ناحية الاحترام. فالمسلم كما يجب عليه أن يحترم حضن أمّه فكذاك يجب عليه أن يحترم حضن زوجة النبي ﷺ. فبيوت الأنبياء عليهم السلام يجب أن تحترم، وهو ما تؤكد عليه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٧٠، الطبقات الكبرى ٨: ٦٤، ٦٧، ١٧٩، ٢٠٠، زاد المسير ١٢٣: ٦.

ذِكْرِ اللَّهِ ^(١)، وَ﴿أَذِنَ﴾ بِمَعْنَى أَمَرَ ^(٢).

فبيوت النبي ﷺ بيوت مؤهلة للاحترام، واللّه أمرنا باحترامها لذلك.

المبحث السادس: مبدأ التوازن في توزيع الثروة

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾. وهذا المقطع يعالج مشكلة اقتصادية، فالإسلام حينما جاء لم يكن هناك توازن بين المسلمين في عملية توزيع الثروة؛ فقد كانت هناك طبقة كبيرة من المسلمين جائعة وفقيرة، بل لا تملك شيئاً من متاع الدنيا. وهؤلاء هم على الأغلب من المهاجرين، فقد كان أصحاب الرسول ﷺ في مكة من الفقراء؛ ولذلك فإن جبابرة قريش حينما جاؤوا إلى النبي ﷺ ليسمعوا منه القرآن قالوا له: إنما يمنعنا من سماع القرآن هؤلاء الأعباء - يعنون فقراء المؤمنين - فلو طردتهم جلسنا إليك. فقال ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣). فقالوا: إذن فأقمهم عنا إذا جئنا. فقال ﷺ: «نعم».

وكان هذا منه ﷺ طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤) تردّ عليهم ^(٥).

الثالث المقدس

فهؤلاء كان معظمهم فقراء؛ فلذا أراد الله أن يضع وشيجة بينهم وبين

(١) النور: ٣٦ - ٣٧.

(٢) العين ٨: ٢٠٠ - أذن، زاد المسير: ٣٦٤، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٠٣، تفسير الثعالبي

٤: ١٨٩. (٣) الشعراء: ١١٤.

(٤) الأنعام: ٥٢.

(٥) جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

الأغنياء من أبناء دينهم، وهذه الوشيعة هي وشيعة الإسلام، حيث أمرهم بمخالفة المهاجرين. فكانت هذه الأمور الثلاثة: الإسلام، والهجرة، والتحالف والإخاء من مسببات الميراث أول الإسلام؛ فقد كان الأمر أن الأنصاري يرث ويورث المهاجر كما يرث الأخ أخاه. وهكذا كان الإسلام أهم وشيعة قام بموجبها حكم التوارث هذا. أما التحالف فقد كان إضافة إلى أثره هذا يلزم أحدهما بالدفاع عن الآخر إذا تعرض للاعتداء.

وهذه الأمور كما قلنا كانت من مسببات الميراث مبدئياً، لكن حينما تمكنت وشائج الإسلام بينهم، وأصبحت الثروة ميسورة والحال أحسن من ذي قبل نزلت هذه الآية تنسخ هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. وفقهاؤنا يستدلون بهذه الآية على الميراث عامة، فمثلاً لو أن رجلاً مات وخلف بنتاً واحدة فإنها ترث الثروة كلها؛ نصفها بالفرض ونصفها بالرد^(١)؛ لأنها ابنة مباشرة، وهي أقرب الناس إليه بلا واسطة، أما عند المذاهب الإسلامية الأخرى فإن البنت ترث النصف فقط والنصف الثاني يعطى للعصبة^(٢)، وهذا ما تحدث بسببه مشاكل كثيرة.

وإننا إنما حكمنا لها بذلك استناداً إلى الآية الشريفة، وأخذاً بحالتها التي هي أمس إلى الرعاية والحاجة بناءً على ذلك، وخصوصاً في مجتمعاتنا التي تتصف بطابع عجيب وغريب حيال هذه المسألة، فهي لا تحصل على عناية

(١) الخلاف ٤: ٦ / المسألة: ٢، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٣٨٦. وكذا الحال مع الأخت

الواحدة فيما لو لم يكن وارث من الطبقة الأولى. انظر الوسيلة: ٣٨٨.

(٢) انظر: بدائع الصنائع ٧: ٣٢٨، أحكام القرآن ٢: ١٠٧، المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٩٧،

٩٨، تحفة الفقهاء ٣: ٣٥٨ - ٣٥٩.

ورعاية واهتمام منه ؛ ولذا فإن الإسلام ينظر إليها من هذه الناحية ويعطيها ذلك الحق كنوع من التعويض لها . فإعطاء ذلك الحق الخاص بها إلى مجموعة من الرجال لهم القابلية والقدرة على مصارعة الحياة وأخذ ما يريدون منها ليس بعدل أبداً .

فالأية الكريمة تبين أن أولي الأرحام أولى من المهاجرين أو الأنصار في وراثة أقربائهم ؛ لأن أولئك يتوارثون أيضاً فيما بينهم حسب الضوابط الشرعية المبنية على أولوية أبناء كل طبقة من الطبقات الثلاث حسب مرتبتهم ومرتبتهما .

وأحب أن ألفت النظر هنا إلى نقطة هامة هي أن لفظة الميراث إذا أطلقت فإنما تنصرف إلى الأمور المادية إلا أن تضاف ، كأن يقال : ورث أخلاق أبيه أو علم أبيه أو عادات قومه ، وهكذا ، أما إذا أطلق اللفظ وقيل : ورث أباه ، فإن الذهن ينصرف مباشرة إلى الأمور المادية . ولذلك فإن القرآن الكريم حينما يقول : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾^(١) فهو يعني أنه ورث منه كل ما عنده من أمور مادية وغيرها . وهذا من جملة استدلالات الزهراء عليها السلام ضد القوم على أنها ترث أباه رسول الله ﷺ ^(٢) .

فالأية الكريمة حينما تقول : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ فهي إنما تؤسس نظرية الميراث في الإسلام ، ونظرية الميراث عند المشرع الإسلامي تقوم على هذا الأساس وهو أن البنت أو الولد حينما يخرجهما أبواهما إلى الوجود فإنهما يعطيان كل خواصها الجسدية ، ولذا فإن من العدل أن يمنحانه

(١) النمل : ١٦ .

(٢) مرّ هذا المطلب في أكثر من موضع في كتابنا هذا .

كل ثروتهما؛ لأنه ليس من العدل أن يورثا أبناءهم مشاكلهم الجسدية ولا يورثاهم أموالهم. فنظرية الميراث عندنا تقوم على أساس التوازن هذا، وعلى أساس هذه المعادلة.

أما ما تذهب إليه النظم الحديثة والمعاصرة من أن مسألة الميراث إنما تقوم على أساس إعطاء فرصة للبعض وحرمان البعض الآخر من هذه الفرصة فهذا ما لا يمكن أن يقرّه عاقل. فالماركسيون مثلاً يُشكلون فيقولون: ما معنى أن يموت أحد ويخلف لابنه ملايين الدولارات، وآخر يموت ولا يخلف لابنه شيئاً؟ لكن هذا لا يصمد أمام الواقع، وإلا فماذا يمكن أن يكون الجواب على هذا التساؤل: لماذا يرث البعض وجهاً جميلاً من أبيه ولا يرثه آخر من أبيه؟ بل إنه ربما كان الوارثان أخوين لكن أحدهما يولد جميلاً وضيعاً والآخر يولد قبيحاً، فلماذا ورث هذه المولود الجمال، وورث هذا المولود القبح؟ أو أن هذا يولد عملاقاً حسب قانون الوراثة والآخر يولد قزماً صغيراً ضعيف البنية؟ فماذا تسمي هذا؟ ولماذا تسمي تلك الوراثة فرصة؟ إن قانون الوراثة عادل ويقوم على أسس عقلية سليمة؛ فإن كل أسرة منفصلة عن الأخرى ولا يمكن أن نحمل حالة هذه الأسرة على حالة تلك الأسرة.

المبحث السابع: ميراث المخالف في العقيدة

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾. يقول أحد الكتاب: إن المسلمين يعاملون الناس على أساس التفرقة؛ فإنهم إذا خالفهم الوارث في العقيدة، وكان على غير ملتهم حرموه من الميراث.

والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: صحيح أن من أوليات الميراث عند المسلمين أن الكافر لا يرث المسلم، لكن هذا لا يعني أنه لا يرثه مطلقاً؛ فإن

الأب المسلم لو أوصى لهذا الكافر بثلثه كانت وصيته نافذة ويجوز إعطاؤه له .
والمذاهب الإسلامية إزاء هذه المسألة على رأيين :

الرأي الأول: أنه حق لمطلق الوارث

وهذا الرأي للمذاهب الإسلامية الأربعة ؛ حيث إنهم يقولون : إن أي قريب للمتوفى الوصي مهما كانت درجة قرابته له الحق في أن يقبض الثلث منه فيما لو أوصى له به .

الرأي الثاني: أنه حق للطبقة الأولى فقط

أي أنه حق للأبوين والأولاد دون غيرهما من الورثة . وعلى هذا الرأي علماؤنا من الإمامية . فالمسلم يجوز له أو يوصي بثلثه أو يقسم منه لولده الكافر أو لأبويه الكافرين فقط .

إذن النبض الإنساني موجود عندنا ، ويعيش في ذهن إسلامنا ؛ ويمكن أن يقال هنا : إن وجهة نظر المشرع الإسلامي أن هذه الثروة التي جمعها هذا المسلم ستهدر وستنفق في موارد الفجور والفسق فيما لو أعطيت إلى الكافر الذي ليس عنده إيمان ولا قيم . وهذه الأموال هي في حقيقتها طاقة يمكن أن يستفيد منها المجتمع ، فإن توجه إنفاقها إلى مجالات لا يرضى بها الله تعالى ولا تعود بالفائدة على المجتمع فإن هذا ممّا يهدر الطاقة ويجعلها عبثاً ، والله لا يريد لأحد أن يتصرف بشكل عبثي .

فالكافر الذي لا تحكمه القيم والأخلاق يصبح عضواً مشلولاً في المجتمع ، يبدّد ثروته أو يستخدمها فيما لا نفع فيه للمجتمع ، بل ربما استعملها فيما فيه ضرر على المجتمع وليس على نفسه فقط .

وعليه فقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يعني أنه تعالى لا

يمنعنا من الإحسان إلى أقربائنا ممن هم ليسوا على ديننا ولا يغلق في وجوههم أبواب المعروف، والله تعالى هو مقتن الأخلاق فهو الذي علّمنا على هذا الخلق الكريم وحثنا عليه، يقول الرسول الكريم ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق الله»^(١). ومع أن الكثير من الناس من يصبح على الكفر بالله والتجديف، لكن الله تعالى لم يقطع عنه رزقه، بل يعطيه عمراً وثروة وصحة، وإمكانات مادية وعلمية، ويقيّض له إمكانية الاستفادة من كل ما خلقه لأجل الإنسان، مع أنه كل يوم يبارز الله تعالى بالمعصية. وهذا ما يقرره الدعاء الوارد عن أهل البيت عليه السلام: «خيرك إلينا نازل وشرنا إليك صاعد»^(٢). فنحن نواجه الله تعالى كل يوم بالمعصية والكفر، وهو تعالى مع ذلك لا يواجهنا إلا بالبرّ والإحسان، ولا يبخل علينا بجوده وعطائه ورحمته؛ فهي نعمه تغدق علينا صباح مساءً على الرغم من معاصينا وعدم استحقاقنا (نسأل الله تعالى ألا يحرمنا من عطائه ورحمته).

فالسماء علّمتنا هذا الخلق العالي النبيل، وأمرتنا بأن نحسن إلى من يخالفنا بالرأي والعقيدة ولا نقطع عنه ما يقوم ذاته. ولقد كان عطاء النبي ﷺ يصل إلى بعض الناس ممن هم أشد الخلق عدواة له، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام؛ فقد كان عطاؤه يصل إلى بيوت تتقرّب إلى الله بشتمه كسلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث إنه كان قد اعتزل القتال مع أمير المؤمنين عليه السلام هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان عليه السلام يرسل إليهم عطاءهم ويقول: «لا نمنعكم حقكم من الفياء لأنكم

(١) بحار الأنوار ٥٨ : ١٢٩.

(٢) مصباح المتجّد: ٥٨٦، الإقبال بالأعمال الحسنة ١ : ١٦٢.

مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا»^(١).

فلم ينقطع عطاؤه عن مثل هؤلاء ومثل عبد الله بن الكوّاء والأشعث بن قيس، بل حتى ابن ملجم الذي أخبره رسول الله أنه سيقتله^(٢)، كان يوصل عطاءه إليه. وهكذا كان عليه السلام يوصل عطاءه إلى بيوت تظن أنها تتقرب إلى الله بثتمه. وهذا تطبيق حيّ لما رسمه الله تعالى له من خلق نبيل وعالٍ، وقد جرى عليه كل الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ لأنه الخلق الذي أراد الله لنا.

فلاحظ منطوق الآية ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ حيث جعلت الحاجة سبباً من أسباب العطاء، فالاقتصاديون الإسلاميون حينما يعمدون إلى ذكر أسباب توزيع الثروة في الإسلام يذكرون من جملتها الحاجة، وهذا الأمر مأخوذ بنظر الاعتبار في وجهة نظر القانون الاقتصادي الإسلامي، فالحاجة سبب مشروع ومبرّر واقعي لإعطاء الأموال وتوزيعها.

المبحث الثامن: موقف العباس من الحسين عليه السلام على ضوء الآية

ولنعد الآن بعد هذا البيان إلى المسألة التي تناولناها وطرحناها أوّل البحث، وهي أن وشيعة الروح أقوى من وشيعة الدم والجسد، ولناخذ على ذلك مثلاً حياً من تاريخنا وهو موقف العباس عليه السلام من نهضة أخيه أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولنر ماذا يقول الإمام المعصوم في زيارته لعمة العباس، إنه عليه السلام يخاطبه بقوله: «سلام الله وسلام ملائكته المقربين، وأنبيائه المرسلين،

(١) الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

(٢) كمال الدين: ٨٢، مسند أحمد ١: ١٠٢، بغية الباحث: ٢٩٦، الآحاد والمثاني ١: ١٤٥،

أسد الغابة ٥: ٢٧٣، ولم تشر لاسمه، غير أنه عليه السلام كان يعرفه باسمه ورسمه، انظر: الإرشاد

١: ١٣، تذكرة الخواص: ١٨٦.

وعباد الصالحين، وجميع الشهداء والصدّيقين، الزاكيّات الطيّبات فيما تغتدي وتروح عليك يا بن أمير المؤمنين. أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي ﷺ»^(١).

ويقول عليه السلام: «السلام عليك يا أبا الفضل العباس بن أمير المؤمنين، السلام عليك يا بن سيد الوصيّين، السلام عليك يا بن أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً، وأقومهم بدين الله وأحوطهم على الإسلام. أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك، فنعم الأخ المواسي»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد الله عليه السلام وأبلى بلاء حسناً ومضى شهيداً»^(٣). ثم لزم ما الذي يقول العباس عليه السلام، وهو يسطّر أروع أمثلة البطولة والنبيل في ملحمة كربلاء:

والله إن قطعتم يميني إنني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين نجل الإمام الطاهر الأمين^(٤)

فهو عليه السلام يقول: أنا لم أخرج مع الحسين عليه السلام لأدافع وأحامي عن وشيعة الدم والجسد، وإنما خرجت لأدافع عن إمام حق يقوم بالحق ويقعد بالحق، ولأدافع عن ديني المتجسّد في هذا الشخص. وهكذا كان حال إخوته؛ لأن

(١) مصباح المتهجّد: ٧٤٢ / ٨١٤.

(٢) المزار (المفيد): ١٢٣ - ١٢٤، المزار (المشهدى): ٣٩١.

(٣) عمدة الطالب: ٣٥٦: سرّ السلسلة العلوية (أبو نصر البخاري): ٨٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٧٦.

(٤) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

الذين قتلوا في الطف من أبناء أمير المؤمنين عليه السلام كانوا تسعة على رواية، وعاشرهم الحسين عليه السلام، وهم أولاده الصليّون، وهناك رواية تقول: إنهم ثمانية والحسين عليه السلام تاسعهم. ولكن من هم أبناء أمير المؤمنين عليه السلام الذين قتلوا في الطف دون سيدهم وأخيهم الإمام الحسين عليه السلام؟ هم عبد الله ومحمد وأمهم ليلى بنت مسعود النهشلية، وقد استشهدا في ساحة الشرف في أول حملة من حملات أهل البيت عليهم السلام على الجيش الأموي.

ويحيى وعون وأمهما أسماء بنت عميس، وكانت تحت أبي بكر وأولدها محمداً ثم تحت جعفر فأولدها عبد الله وعبيد الله. وأبو بكر لم ينصّ المؤرخون على اسم أمّه. وأربعة لأم البنين، والحسين عليه السلام عاشرهم. وهذا على الرواية التي يشير إليها شاعر الطالبيين حيث يقول:

عينٌ جودي بعبرة وعويل واندبي إن نذبت آل الرسول
تسعة كلهم لصلب عليٍّ قد أبيدوا وسبعة لعقيل^(١)

وعلى العموم فالذي يعنينا في بحثنا هذا هو أبناء أمّ البنين الأربعة الذين كانوا مثال الطاعة والالتقياد لإمامهم أبي عبد الله عليه السلام، وكانوا حقاً خير من جسد قاعدة أن وشيعة الروح أقوى من وشيعة الدم، وبالذات العباس عليه السلام الذي كان يملأ أسارير الحسين عليه السلام غبطة إذا رآه، وكان عمره يوم الطف أربعة وثلاثين سنة، أي أنه كان في قوّته وفي أشدّه، ثمّ يتسلسل إخوته الباقيون من بعده. وقد أصرّ عليه السلام على أن يقدم إخوته أمامه كي يرزأ بهم دون الإمام الحسين عليه السلام، وقد ذكرت أكثر من مرّة أن أحد المؤرّخين وصل به الأمر أن

(١) البيتان لسليمان بن قتة التيمي. مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦٧، شرح نهج البلاغة

يروى أن العباس عليه السلام كان قد قال لإخوته: تقدموا حتى أرثكم^(١)! وكأنه عليه السلام كان يرغب في العيش بعدهم حتى يتمنى أن يرثهم. إنه عليه السلام إنما قال لهم: «تقدموا حتى أرزأ بكم».

وفعلًا قدّم إخوته الثلاثة دون أبي عبد الله عليه السلام. ولقد كان العباس عليه السلام مثال الرجل المطيع لأبي عبد الله عليه السلام، ومثال المؤمن الذي حمل الإيمان في طرق جهاده، وقاتل دون الإمام أبي عبد الله عليه السلام لا لأنه أخوه، بل لأنه إمامه:

..... إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين نجل الإمام الطاهر الأمين^(٢)

يقول الشيخ المفيد ومؤرخون آخرون: أقبل العباس عليه السلام إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام وقال له: أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء^(٣).

فأشفق عليه الإمام الحسين عليه السلام وأراد أن يمنعه، فقال له: «يا أخي، أنت رئيس عشيرتي وحامل لوائتي، فإذا مضيت سقط لوائي وتفرق عسكري». فقال العباس: يا أبا عبد الله، قد ضاق صدري بسبب هؤلاء، وسئمت من الحياة، وأريد الآن أن أطلب تأري من هؤلاء المنافقين، وإني لا أقدر أن أصبر وأنا

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدموا حتى أراكم قتلى فأحتسبكم. مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين عليه السلام (أبو محنف): ١٨٤. وإن كان البعض يرى أنها كذلك (أرثكم)، والغاية من هذا هي أن يمنع عمر الأطراف أخاه لأبيه من منازعة أمّه (أم البنين) ميراثه بناء على نظرية التعصيب. لكن لا يخلو من مؤاخذة. وقد ذكره المظفر في (بطل العلقمي). انظر كتاب من سيرة الحسين عليه السلام (المرهون): ٣٨٨.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

(٣) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

أسمع العيال يتصارخون : العطش قد قتلنا. فقال الإمام الحسين عليه السلام : «أوقد عزمت؟». قال : نعم. قال عليه السلام : «فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء».

لقد حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يتشبث به أطول فترة ممكنة ؛ لأنه كان شقيق روحه ، وكان يمتزج معه بروحه ، لكنه عليه السلام أذن له أخيراً بناءً على إصراره ، فنزل إلى المعركة وهو يرتجز ويقول :

لا أرهب الموت إذا الموت رقى حتى أوارى في المصاليب لقي
إني أنا العباس أغدو بالسقا ولا أخاف الحرب يوم الملتقى

نفسى لنفس المصطفى الطهر وقا^(١)

فلما وصل إلى الماء وملاً قربته ، أراد أن يشرب فأخذ شيئاً منه وأدناه إلى فمه ، ثم رماه من يده. وهنا يبرز جوهر الإنسان .. جوهر نفسه وروحه ، يقول الإمام الصادق عليه السلام : «كان قلب عمي العباس عليه السلام كصالية الجمر من الظمأ»^(٢). ذلك أنه ما إن تذكر عطش أبي عبد الله عليه السلام والعائلة حتى رمى الماء ، ثم ملاً قربته ، وقال : لا والله ، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عليه السلام عطشان . ثم حمل القربة على كتفه الأيمن ، وكان جلّ همّه أن يوصله إلى الخيمة ، فصاح ابن سعد : اعصوبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح ، وكمن له زيد بن ورقاء من وراء نخلة ، فضربه على يمناه فبراها ، فقال :

والله إن قطعتم يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين

ثم حملها على كتفه الأيسر فضربه حكيم بن الطفيل ، فقطع يده اليسرى ،

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٥٦ ، ينابيع المودة ٣ : ٦٧ .

(٢) شرح الأخبار ٣ : ١٩٢ ، بحار الأنوار ٤٥ : ٤٠ .

فأنشد (رضوان الله تعالى عليه) قائلاً:

يا نفس لا تخشي من الكفار وأبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلحهم يا رب حَرِّ النار^(١)

وينادي المنادي: واللّه لئن أوصل الماء للحسين ليقتلن منكم مقتلة. فحمل لواءه بباقي زنديه وضّمّه إلى صدره، وانحنى على السقاء فحمله بأسنانه ليوصله إلى القلوب العطشى، فجاءه سهم فأصاب القربة وأريق ماؤها، عند ذلك استداروا عليه، وضرب بعمود من حديد على رأسه، ثم جاءه سهم آخر فأصاب صدره، فسقط إلى الأرض منادياً: عليك مني السلام أبا عبد الله، أدركني. فأقبل له الإمام الحسين عليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل إلى مصرعه فجلس عند رأسه وأخذه ووضع في حجره، وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه الشريف:

لمن اللوا أعطي ومن هو جامع شملي وفي ضنك الزحام يقيني
عبّاس كبش كتيبتي وكنانتي وحليف نصري بل أعزّ حصوني

ولما سقط صريعاً وقف عليه الحسين عليه السلام، ولم يكن العباس يرى؛ لأن إحدى عينيه قد جمد عليها الدم، والأخرى نبت بها السهم، ولا يدّ عنده فيمسح بها الدم عن وجهه، فأحسّ بحركة رجل عنده وهو في لحظاته الأخيرة، فقال: من هذا الجالس؟ قال الحسين: «لماذا؟». قال: يا هذا أقسم عليك بمن تعبد أن تمهلني فواق ناقة. قال: «ما تصنع بها». قال: حتى يأتي

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

إليّ أخي وابن والدي أودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمني. فقال الحسين عليه السلام:
«أنا أخوك». قال: إذن ادنُ مني أقبلك وأشمّك. فوضع الإمام الحسين عليه السلام فمه
على فمه وراح يقبّله إلى أن فاضت روحه الطاهرة.

فقام الإمام الحسين عليه السلام وهو يكفكف دموعه بمنديله، ورجع حتى دخل
الخيمة وحيداً، فاستقبلته الحوراء زينب: أين ابن والدي؟ قال: «أخية، عظم
الله لك الأجر بأبي الفضل؛ لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين». فوضعت
يدها على صدرها وصاحت: وا أخاه:

خويه الساع ومغ بيتي عليه خويه الساع عدوي شمت بيه

خويه امنين اجت ليك المنيه

وهوى عليه ما هنالك قائلاً	اليوم بان عن اليمين حسامها
اليوم آل إلى التفرّق جمعنا	اليوم حلّ عن البنود نظامها
اليوم نامت أعين بك لم تنم	وتسهّدت أخرى فعزّ منامها



صحوة الضمير وتنازع الغرائز

إذا ماسقَى الله البلاد فلا سقى

معاهد كوفان بنوء الموازم

أنت كتبهم في طيِّهن كتائب

وما رقت إلا بسم الأراقم

المباحث العامة للموضوع

مقدمة تاريخية

عندما انتهى الأمر بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الأمويين إلى ما انتهى إليه من مرحلة المواجهة العسكرية، استنفر الأمويون قواهم وجيوشهم لهذا الأمر، وكان أن توجه عبيد الله بن زياد إلى تجريد جيش لمحاصرة الحسين عليه السلام ومنعه من التحرك؛ لما كان عليه أمره من بوادر تشير فيه إلى قيامه بنهضة عسكرية. وقد توجهت ثلة من جيش عبيد الله لمحاصرة الإمام الحسين عليه السلام وعرقلة سيره، في محاولة لمنع وصوله إلى الكوفة. وأول من ندب لهذه المهمة هو عمر بن سعد؛ حيث استدعاه عبيد الله ليلاً وقد هيأ له كتيبة قوامها أربعة آلاف جندي، ووعدته فيما لو نجحت حملته فإنه سيوليه الري.

وفعلًا كتب له صكاً بملك الري ودفعه إليه. لكنه حينما فوجئ بخروج الإمام عليه السلام من مكة وقصده العراق استدعى الجيش وأمر ابن سعد بأن يرجع، فلما عاد إليه خاطبه ابن زياد بقوله: لا بد من توجيه الحملة لقتال الحسين.

فقال ابن سعد: أمهلني ليلة أفكر فيها وأتدبر فيها أمري. فقال له: لك ذلك. فلما رجع ابن سعد جمع وجوه قومه وطلب منهم إبداء الرأي والمشورة، فعارضوه في هذا الأمر ونهوه بشدة، وكان أشد الناهين له ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة حيث قال له: إياك والإقدام على هذا الأمر؛ فإنه خسارة لك في دينك ودنياك. فلما أصبح الصباح دخل عمر على عبيد الله فابتدره هذا قائلاً: علام قرّ رأيك؟ قال: أنا متردد في شأن هذه الحملة. فقال له: إذن هاتِ الصكّ الذي معك، فهناك من يقود الحملة غيرك، ونحن لا نجبرك على هذا الأمر. فقال له عمر حينها: إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافق^(١).

المبحث الأول: تداعيات القصة

إن هذا المقطع من السيرة سنخرج منه بثلاثة استنتاجات إن شاء الله، سيتمحور حولها بحث هذه الليلة:

الاستنتاج الأول: قرابة ابن سعد من الحسين عليه السلام

فعمربن سعد هذا هو عمر بن سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك ابن أهيب بن قصي، أي أنه يلتقي مع رسول الله ﷺ بجدهما الرابع؛ فهو ابن عم الحسين عليه السلام.

الاستنتاج الثاني: أن عداً ابن سعد للحسين عداً غير نزيه

ثم إن عمر بن سعد هذا كان على خطّ أبيه - مع فارق واحد هو شرف النفس كما سيأتي - ذلك أن أباه سعداً كان من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام والممتنعين عن بيعته، لكنه كان مع ذلك يتوفّر على الكثير من مقومات الشرف، ويحتفظ بنفس شريفة؛ ومما يدل على ذلك أنه حينما دخل

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٩ - ٣١٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٥: ٥٠ - ٥١.

معاوية إلى المدينة وأخذ ينتقص من أمير المؤمنين عليه السلام وجاء سعد بن أبي وقاص قال له معاوية: ما يمنعك أن تسب ابن أبي طالب؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم. قال له معاوية: ما هن يا أبا إسحاق؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: «ربّ إن هؤلاء أهل بيتي». ولا أسبّه ما ذكرت حين خلفه في غزوة تبوك، غزاها رسول الله ﷺ فقال له علي: «خلفني مع الصبيان والنساء؟». قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبوة بعدي؟». ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول الله ﷺ: «لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه». فتناولنا لرسول الله ﷺ، فقال: «أين علي؟». قالوا: هو أرمد. فقال: «ادعوه». فدعوه فبصق ﷺ في وجهه ثم أعطاه الراية، ففتح الله عليه. قال: فلا والله، ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة^(١).

ثم قال له ابن سعد: والله إنني أحق منك بالخلافة. فقال له معاوية: يابى عليك ذلك بنو عذرة. وهي كلمة سب نائية.

فالمهم إن سعداً هذا على الرغم من مخالفته لأمر المؤمنين عليهم السلام وامتناعه

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم

يخرجاه بهذه السياقة، وقد اتفقا جميعاً على إخراج حديث المؤاخاة وحديث الراية.

وفي كتاب السنة لعمر بن أبي عاصم عن سفيان بن عيينة أنه قال: ذكر علي (رضي الله عنه)

عند معاوية وعنده سعد بن أبي وقاص، فقال له سعد: أذكر علي عندك؟ إن له لمناقب أربعاً

لأن يكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم. قوله ﷺ: «لأعطين الراية»،

وقوله ﷺ: «بمنزلة هارون من موسى»، وقوله ﷺ: «من كنت مولاه»، ونسي سفيان

الرابعة. كتاب السنة: ٥٩٦ / ١٣٨٦.

عن نصرته، إلا إنه كان صحابياً يعرف لأمر المؤمنين عليه السلام قدره ومنزلته ومكانته. إن من الأعداء من يكون شريفاً في عداوته ومنهم من يكون وضيعاً فيها، وسعد من النوع الأول، لكن ابنه عمر كان من النوع الثاني؛ فقد اتصف عداؤه للإمام الحسين عليه السلام بالكثير من الخسة والدناءة والوضاعة.

الاستنتاج الثالث: أن عامل القرابة لا دخل له في النصرة والعداوة

فكون ابن سعد ابن عمّ الإمام عليه السلام لا يؤثر من قريب أو بعيد في المسألة؛ لأن النفس التي تضعف أمام المال تبيع حتى دينها^(١). فالمسألة أن الإنسان لا يصنعه اللحم والدم، وإنما تصنعه المبادئ والفكر والخلق. والإنسان ليس إنساناً بدمه ولحمه، ولا هو عبقرى أو عظيم بهما، وإنما هو يكون كذلك بما يملك من نفس عظيمة وخلق نبيل وتربية عالية وآداب رفيعة. فهذه المقومات هي التي تصنع الإنسان.

والإنسان الحقيقي هو ابن الحضارة لا ابن النسب، وهذا ما يؤكد علماء الاجتماع وعلماء النفس عندما يتعرّضون لمقام المفاضلة بين الغريزة والتربية. وقد أخضع هذا الأمر لعدة أسئلة منها: ما الذي يصوغ الإنسان في المجتمع؟ وما الذي يحدّد سلوكه وأخلاقه؟ هل هي الغرائز والدم واللحم، أي العوامل والخصائص البيولوجية، أم أن الذي يحدّد ذلك عنده الحضارة؟ وما هو دور وجوه المحيط - الأبوين، والتربية، والمدرسة - في ذلك؟ ويستنتج من هذه التساؤلات على ضوء الدراسات الاجتماعية والنفسية أن

(١) قد أكد المحاضر في محاضراته السابقة (النصرة والقرابة) على هذا الأمر، وذلك في خصوص علاقة العباس بأخيه الإمام الحسين عليه السلام حيث إنه أكد تأكيداً بالغاً على أن العباس لم ينصر الحسين لأنه قريب بل لأنه إمامه أي أن القرابة لا دخل لها في نصرته إياه بعد أن أيقن إنه إمامه وواجب الطاعة عليه ومفترضها.

وجوه المحيط والحضارة أمور تتضافر على صياغة شخصية الإنسان وتحديد سلوكه في المجتمع؛ حيث إنها أمور تغلغل في نفسه الأخلاق والآداب والمعلومات المنبثقة عن البيئة الاجتماعية أو الثقافية والفكرية له، وغيرها. فهذه الأشياء هي التي تخلق الإنسان، وهو ابنها وليس ابن اللحم والدم.

فعمر بن سعد ابن عم الحسين عليه السلام ولكنه ناصبه العدا، كما أن من إخوة الحسين عليه السلام من لم يخرج معه، في حين أن بعض من خرجوا معه لا تربطهم به عليه السلام أي علاقة نسبية من قريب ولا من بعيد، فوهبُ مثلاً رجل كان نصرانياً، لكنه كان ذا مروءة وتربية عالية، كما أنه أدرك سمو أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام وغايتها، ونبل مقاصد ثورته، فتجلّى له الحق عند استماعه إليه؛ فالتحق بهذه النهضة الشريفة المباركة.

وهذا هو ما نريد أن نؤكد؛ إننا لا نقول بعامل القرابة والدم واللحم وإنما نؤكد على عامل التربية والمشاعر، فهذا هو الأساس الذي يصوغ للإنسان دينه.

وعمر هذا على الرغم من أنه ابن عم الإمام عليه السلام، وعلى الرغم من التحذيرات التي وجهت إليه كما أسلفنا إلا أنه ألحّ إلحاحاً شديداً على متابعة مهمة قتال الإمام عليه السلام وقتله؛ لأن النظرة إلى الحياة تختلف من إنسان لآخر، وهي كذلك مختلفة عند هؤلاء الذين قتلوا الحسين عليه السلام وعند الإمام الحسين عليه السلام نفسه؛ فهؤلاء لا ينظرون إلى الحياة إلا على أنها أموال وسلطان وقصر وكرسي يجلس عليه الإنسان ولو لأمد قصير، فهي لا تعدو هذا التصوّر عندهم، أمّا عند الحسين عليه السلام فهي سمو نفس ونبل وأخلاق وكرامة وموقف. وباختلاف وجهة النظر تختلف المقاصد والأهداف.

ومثل هذا في نظر الإمام الحسين عليه السلام يعد مسكيناً ينبغي ألا يحقد عليه،

وهذا الروح هو روح الأنبياء عليهم السلام ألم يقل إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١)؛ فهو عليه السلام لم يسب ولم يشتم؛ لأنه يعرف أن هذا جاهل، والجاهل مريض، والمريض لا يُشتم ولا يُعتدى عليه. لكن هذا المريض بما يملك من نظرة ضيقة قاصرة يتصور أن الأمر يجب أن ينتهي إلى هذا الكرسي الذي يتأرجح من تحته، أما في الطرف المقابل فالأنبياء والأوصياء عليهم السلام الذين حملوا راية الفكر والعدل والزهد في الدنيا بأجمعها، وفي هذا الطرف أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان ذات مرة في طريقه إلى البصرة كما يروي ابن عباس فيقول: نزل عليه الربذة، فلقيه بها آخر الحاج، فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه، فأتيته فوجدته يخفض نعلًا، فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصنع.

فلم يكلمني حتى فرغ من نعله، ثم ضمّها إلى صاحبته ثم قال لي: «قومها». فقلت: ليس لها قيمة. قال: «على ذلك». قلت: كسر درهم. فقال عليه السلام: «والله لهما أحب إلي من أمركم هذا إلا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلاً»^(٢). وهذا بطبيعة الحال ناشئ عن اختلاف وجهات النظر بين الإمام علي عليه السلام وبين أعدائه طلاب الدنيا والساعين وراء الكرسي، ومن هؤلاء ابن سعد حيث يقول:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه	إلى خطّةٍ فيها خرجت لحيني
فو الله لا أدري وإني لواقفٌ	على خطرٍ لا أرتضيه ومين
أترك ملكَ الرّيِّ والرّيّ منيتي	أم ارجعُ مأثوماً بقتلِ حسين
وفي قتله النارُ التي ليس دونها	حجابٌ وملكُ الرّيّ قرّة عينٍ ^(٣)

(٢) الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٣) كشف الغمة ٢: ٢٥٩.

فهذان هما الهدفان الوحيدان في الحياة: هدف هو عبارة عن رغبة مؤقتة سرعان ما تموت وتتلاشى ثم يعقبها الندم والخسران وتأنيب الضمير ولعنة الأجيال، وهدف ناصع يستهدف خير الإنسانية، وهو هدف خالد بخلود صاحبه الذي يحمل الوجه الناصع ويثبت للأجيال أنه المثل الأعلى ويريهـم أن الحياة لا قيمة لها في حقيقتها ودوافعها.

المبحث الثاني: «يَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ»

ثم إن حمزة بن المغيرة (ابن اخت عمر بن سعد والذي نصحه بعدم القبول بعرض عبيد الله بن زياد حول قتل الإمام الحسين عليه السلام) هو ابن المغيرة بن شعبة الذي يخجل التاريخ حينما يستعرض أوليات حياته وسيرته. إن جو المغيرة قد تناولته كتب التاريخ وفصلته تماماً، ومن جملة أولياته هذه أنه أخرج الخليفة الثاني حينما أنقص واحداً من الشهود الأربعة فدرأ عنه الحد^(١). وله مواقف كثيرة واضحة الانحراف، ومنها مساهمته في قتل الخليفة الثاني، بل إن هناك تخطيطاً واضحاً - كما هو الحال مع اغتيال عثمان وأمير المؤمنين عليه السلام - كان يدبر له المغيرة. ولو لاحظنا من اشترك في العملية هذه لاتضح لنا خيوطها، إن الذين اشتركوا في عملية الاغتيال هذه هم ثلاثة:

الأول: جفينة المسيحي، وكان ضراً لسعد بن مالك - أي أنهما ارتضعا من ثدي واحد - وقد دخل إلى المدينة بتخطيط من سعد نفسه مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمنع اليهود والنصارى إذا بلغوا الحلم أن يدخلوا المدينة المنورة. لقد أدخله سعد إلى المدينة بحجة تعليم المسلمين العلوم الحديثة والكتابة، وذلك

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شبة) ٦: ٥٦ / ٣،

٢٣: ٢٠، كنز العمال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤، شرح نهج

البلاغة ١٢: ٢٣٧ - ٢٣٨.

بعد فتح الحيرة وكان قد بقي فيها فترة قرّب ضربه هذا، وأتى به معه إلى المدينة بعنوان أنه مدرس.

الثاني: كعب الأحبار، هذا اليهودي الذي تجد بصماته واضحة المعالم في كتب التاريخ والتفسير في محاولة لتشويه وتحريف التراث الإسلامي. وإلى هذا الوقت هناك الكثير ممن يكتب أو يفسّر فيقول: قال كعب الأحبار. وال حال أن هذا الرجل أجريت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، لكن تظهر في سيرته ألف علامة استفهام، فهذا الرجل جاء إلى الخليفة الثاني قبل مقتله بأربعة أيام وقال له: أوص وصيتك واعهد عهدك؛ فإني أجد في التوراة أنك ستقتل بعد ثلاثة أيام. فقال: أو تجد اسمي في التوراة؟ قال: بلى. ثم جاء في اليوم الثاني وقال له: لقد بقي من عمرك يومان، فخذ حذرك فإنك ستقتل، وكذلك عاوده في اليوم التالي^(١).

إن هذا الرجل الذي حمل حقد اليهود قد أقبل يلعب دوره في ضرب استقرار المسلمين، وفعلاً فإن الخليفة الثاني كان له موقف شديد معه حيث رفع الدرة ذات مرّة وضربه على رأسه وقال له: قد أكثر الكذب. ثم طرده^(٢).

وهكذا حمل الحقد من هذه المعاملة، وكذلك فإنه ترك لنا تراثاً مشؤوماً؛ حيث إنه غرس الفكر اليهودي في التفسير والتاريخ؛ ولذا فإن الباحث يجد

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢٦٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٤: ٤٠٨.

(٢) لم نعثر عليه عن كعب وإنما عن أبي هريرة، انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧، ونقل الشوكاني وغيره عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

فيهما الكثير من الأفكار السخيفة البالية والتعليقات والآراء العجيبة^(١). وهكذا فإن بصمات هذا اليهودي كانت واضحة وهي لا تزال تعبت بترائنا. ومن هذا ما يروى من أن النبي موسى ﷺ جاءه عزرائيل ﷺ ليقبض روحه، فقال له ﷺ: «ماذا تريد؟». قال: «أريد أن أقبض روحك». فضربه النبي موسى ﷺ بعينه ففقدناها له، وردّه إلى ربّه وهو أعور^(٢).

وأنا لا يهمني هنا قول من يقول: إن هذه الروايات قد تمت غربلتها، وروعي اختيارها؛ حيث إنه كان اختياراً دقيقاً، ووفقاً للضوابط العلمية؛ فهي بالنتيجة منتقاة بعناية في كتب الصحاح، لكن يهمني جداً ألاّ نلوّث عقلية هذا الجيل، فهذه القضية تتصل بعقلية الإسلام والمسلمين وعقيدتهم، فكيف يعقل أحد أن الله يبعث ملكاً لقبض روح إنسان فيعجز عن ذلك؟

وهناك الكثير من أمثال هذه الإسرائيلية التي تلوح عليها بصمات كعب الأحبار واضحة، ومثله وهب بن منبه وغيرهما من اليهود الذين لعبوا دوراً مشوّشاً جداً في تاريخ المسلمين وحياتهم. وهؤلاء كانوا ولا يزالون سرّ مصائبنا وبلائنا؛ وكذلك هم اليهود على امتداد تاريخهم معنا.

الثالث: أبو لؤلؤة، وقد أدخله المغيرة للمدينة بحجة أنه ذو مهارات ويستطيع أن يعلمها الناس وينقل إليهم خبرته^(٣). يروي الطبري^(٤) وابن الأثير^(٥) أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طعن عمر: مررت على أبي لؤلؤة عشيّ أمسٍ ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجّي، فلمّا رهقتهم ثاروا

(١) كما مرّ من أمر خلق السنور والخنزير في سفينة النبي نوح ﷺ، انظر محاضرة (دور

الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا). (٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

(٣) المصنّف (الصنعاني) ٥: ٤٧٤ / ٩٧٧٥.

(٥) أسد الغابة ٣: ٣٤٢.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٣٠٣.

وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل؟ وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم فرجع إليهم التميمي وقد كان أمسك بأبي لؤلؤة عند منصرفه من عمر، حتى أخذه فقتله وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن.

وللعلايلي رأي في المغيرة له مسحة من القبول، يقول: لما شاهد هؤلاء أن الخليفة الثاني في أيامه الأخيرة بدأ ينعطف نحو الهاشميين، وأخذ يقول: «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» و«عقمت الناس عن أن يلدن مثل ابن أبي طالب»، وكانت بوادر الانعطاف هذه واضحة، فتخوف الأمويون من الأمر، وأدركوا خطورة هذا الموقف عليهم، فحرّكوا المغيرة لفعل شيء ما^(١). وهذا الرأي ليس للعلايلي وحده بل يشاركه فيه آخرون غيره.

دور المغيرة في قتل الخليفة الثاني

والشيء المهم الذي أريد أن أتنبه إليه هو أن المغيرة كان من ضمن من لعبوا دوراً في قتل الخليفة الثاني. وأنا لا أرغب أن ألوث المنبر بسيرة هذا الرجل، لكن أذكر لك هذه الحادثة التي يرويها المسعودي في (مروج الذهب) في ترجمته حيث يقول: حينما هرب المغيرة من طاعون الكوفة ثم عاد إليها طعن (أصابه الطاعون) فمات، فلما دفنوه بالثوية بين النجف والكوفة وقف رجل على قبره وأخذ ينشد:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف عليها زواني الإنس والجن تعزف
فإن كنت قد لاقيت هاما بعدنا وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصف^(٢)
ومن مثل هذا الجو هل تأمل أن يخرج مثل حمزة بن المغيرة؟ وأريد أن

(١) سمو المعنى في سمو الذات: ٣١. (٢) مروج الذهب ٣: ٣٤-٣٥.

أقول: إننا في هذا الجانب عندما نريد أن نتحدث عن شخص ما فإننا نقول: إن هذا ابن بيت، ومن أب طيب ومن أسرة كريمة، لكن هذا ربما كان عاملاً مساعداً على خلق الشخصية الطيبة والإنسان الشريف، وليس هو العلة الحقيقية؛ فقد تجد من ينشأ في بيت من النوع الذي ذكرنا آنفاً، لكنه يخرج على غير طريقة أهله، ومن هذا النوع أم المؤمنين بنت أبي سفيان، فهي ابنة من شقت بطن حمزة عليه السلام وأكلت كبده وراحت تلوك به، وقطعت أذنه، وكذلك أبوها أبو سفيان صاحب المواقف المعروفة، الذي كان يضع الرمح على خد حمزة عليه السلام ويتكئ عليه حتى يخرج من الجانب الآخر. وكان لا تحدث معركة إلا وله فيها دور، وكان يحمل اللواء ضد النبي ﷺ في كل معركة تخوضها ضده قريش.

ولما أحست قريش بإرهاصات فتح مكة وبوادر تحرّك الرسول ﷺ إليها أراد أبو سفيان أن يتلافى هذا الأمر ويأخذ الأمان لنفسه ولقومه، فذهب إلى بيت ابنته أم حبيبة وجلس على جلد كبش كان رسول الله ﷺ يجلس عليه، فأقبلت إليه أم حبيبة وسحبت الجلد من تحته وقالت له: هذا لرسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس. فقال لها أبوها: لقد أصابك بعدي شر. قالت: كلا، ما أصابني إلا خير^(١).

فالتربية لها دورها، لكن لا أريد القول: إن التربية وحدها هي العامل المؤثر في خلق شخصية الإنسان، بل إن لها دوراً مؤثراً جزئياً، وتدخل معها عدة عوامل منها عناية الله تعالى ورعايته. فالعامل المؤثر بالدرجة الأولى هو إرادة السماء.

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٧، الطبقات الكبرى ٨: ١٠٠، دفع شبه التشبيه: ٥٢.

وهذا هو ما يفسّر كلام حمزة بن المغيرة بن شعبة حين جمعهم خاله عمر ابن سعد لأخذ مشورتهم حول مسيره لحرب الإمام الحسين عليه السلام؛ حيث قال له: إنك إذا خرجت إلى قتال الحسين عليه السلام فستخسر الدنيا والآخرة. لكن ابن سعد هذا لم يأخذ بالنصح، وأنا لا أريد أن أقول: غلبت عليه شقوته، لأن الله تعالى لا يجبر العبد على الفعل، وإنما يقوم العبد بأفعاله كلّها باختياره.

النتيجة

نستنتج من هذا ونستفيد منه أن مشاورة عمر بن سعد وخروجه لقتال الحسين عليه السلام تؤكد أن الإنسان تمرّ به لحظات من صحوة الضمير، فالإنسان مهما تصورنا أنه منحرف غاية الانحراف فإنه تمرّ به لحظات يقع فيها فريسة للصراع بين ضميره وغريزته^(١). والإنسان حينما لا يكون عنده استعداد للخير

(١) ومن ذلك ما يروى عن عمرو بن العاص حينما كلّم معاوية قوماً من أهل الشام للطلب بدم عثمان، وأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص وقال له: إنه قد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشدّ اعتزلاً، إلّا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية بذلك، فلمّا قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه عبد الله ومحمّداً، فقال له عبد الله: قرّ في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، أو شكتما أن تهلكا فتساويا في عقابها. وقال محمّد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت عنه غافل، تصاغر أمرك؛ فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديهم طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أميّة. فقال عمرو: أمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأمّا أنت يا محمّد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر. فلمّا جنّ الليل رفع صوته قائلاً:

تطاوّل ليلى بالهموم الطوارق	وخوف التي تجلو وجوه العواتق
وإن ابن هند سألني أن أزوره	وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من عليّ بخطة	أمّرت عليه العيش ذات مضائق
فإن نال مني ما يؤمل رده	وإن لم ينله ذلّ ذلّ المطابق
فوالله ما أدري وما كنت هكذا	أكون ومهما قادني فهو سائق

فإن التكليف يكون باطلاً! والآن إذا أردنا القول: إن الإنسان وصل إلى مرحلة فقدان الاختيار، فهذا يعني الجبر، وهو يؤدي إلى إلغاء الإرادة عند الإنسان وعدم استعمالها في أفعاله، وإن كان الأمر كذلك فحينها يمكن القول: إن الله تعالى لا يعاقب بحق ولا يجازي بحق (تنزه تعالى عن ذلك)؛ لأنه سيعاقب على أشياء خارجة عن الإرادة. فهو تعالى إذا لم يسلح الإنسان باستعداد خلقي فإنه سيحتج عليه بأن سيقول له: يارب، أنت لم تسلحني باستعداد خلقي؛ لأنك جعلتي ريشة في مهب الريح، فتغلبت عليّ تيارات فكرية وتلاعبت بي الأهواء وانتصرت عليّ عواصف تجرّني إلى

وقد قال عبد الله قولاً تعلّقت به النفس إن لم تقتطعني عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد وإني لصلبُ العودِ عندَ الحقائقِ

فقال عبدالله: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وردان، وكان داهية مارداً، فقال: ارحل يا وردان. ثم قال: احطط يا وردان. ثم قال: ارحل يا وردان. ثم قال: احطط يا وردان. كرّرها ثلاثاً، فقال وردان: خلطت أبا عبدالله، أما إنك إن شئت أنبأتك بما في قلبك. قال: هات ويحك. قال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليّ معه الآخرة في غير دنياً، وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة. وأنت واقف بينهما. قال: قاتلك الله ما أخطأت ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فقال: الآن لما شهدت العرب مسيري إلى معاوية، ارحل يا وردان. فارتحل وهو يقول:

يا قاتلَ الله وَرَداناً وَفُطِنْتُهُ
لما تعرّضتِ الدنيا عرَضْتُ لها
نفسٌ تغفُّ وأخرى الحرصُ يغلبُها
أما عليّ فدينٌ ليسَ يشركُهُ
أبدى لعمرك ما في النفسِ وردانُ
بحرصِ نفسي وفي الأطباعِ أذهانُ
والمرءُ يأكلُ تبناً وهو عريانُ
دنياً وذاكَ لَهُ دنياً وسلطانُ
وما معي بالذي اختارُ برهانُ
فاخترتُ من طمعي دنياً على بصرٍ

شرح نهج البلاغة ٢: ٦١، وقعة صفين: ٣٢ - ٣٥.

الفعل وتجبرني عليه .

من هما اللذان يضلان الإنسان؟

وهذا غير صحيح ؛ فهو لاء ينادون : ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ^(١) .

الأول: إبليس

والذي أضلّ من الجن هو إبليس ؛ حيث أمره الله عزّ وجلّ أن يسجد لآدم عليه السلام فأبى ، وقال : هذا مخلوق من طين وأنا مخلوق من نار ، والنار عنصر أشرف من الطين ؛ فالنار جميلة بالحسّ والبصر ، والنار معبودة ، والنار من دنيا القوى ، وهذا المعنى هو الذي أخذه بشار بن برد حيث قال :

إِبْلِيسُ خَيْرٌ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَنَّبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ

إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ طِينَةٌ وَالْأَرْضُ لَا تَسْمُو سَمَوِ النَّارِ ^(٢)

فإبليس أقدم باختيار على عصيان الله تعالى فسنّ هذا العصيان .

الثاني: قابيل

والذي من الإنس هو قابيل ؛ حيث إنه قتل هابيل ففتح بذلك باب سفك الدم ، فأول دم أريق على وجه الأرض كان بفعله ، فهو الذي فتح عهد الجريمة وأصلها . وقابيل طبعاً لم يعيش في مجتمع بالمعنى والشكل المعروفين الآن للمجتمع حتى يمكن أن يقال : إن عنده أوضاعاً اجتماعية أجبرته على القتل ، وكذلك لم تكن غريزته تدفعه إلى القتل ، ولو كان كذلك لكان حيواناً وليس إنساناً . إذن ما الذي دفعه إلى ذلك ؟ الذي دفعه إلى ذلك هو سوء اختياره ، حيث إنه قتل أخاه بدافع الحسد ، إذ أن هابيل قرّب قرباناً فتقبله الله وقرّب

(٢) ديوان بشار : ٥٣٩ .

(١) فصلت : ٢٩ .

قابل قرباناً فلم يتقبله، أخوه حظي بزوجة جميلة وهو لم يحظَ بمثلها، أخوه تبعاً لذلك حظي بعطف أبيه آدم عليه السلام ورعايته وقلبه؛ لخلقه النبيلة وحسن معاملته، وهو ربما لم يحظَ بذلك لسوء خلقه أو وجد بعض البرودة من أبيه تجاهه، وهذه نقطة مهمة في عامل التربية.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر يروى أن النعمان بن بشير قال: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، فوهبها لي، فقالت له: لا أرضى بها حتى تشهد النبي ﷺ عليها. فأخذ بيدي وأنا غلام حتى أتى بي النبي ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إن أمه بنت راحة سألتني بعض الموهبة لهذا. فقال له النبي ﷺ: «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا تشهدني على جور». وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. فقال له ﷺ: «فكلهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. فقال له: «فلا أشهد على جور»^(١)، لأن هذه الهبة سوف تخلق مشكلة بين الإخوة.

وأنا هنا لا أستطيع أن أنسب إلى نبينا آدم عليه السلام أنه يفرّق بالمعاملة، لكن قابيل ألجأ أباه عليه السلام إلى ذلك بسوء اختياره وإرادته، فقتل أخاه وقد وجدته نائماً، حيث إنه أخذ قطعة حجر وضربه بها على رأسه فقتله. وبعد أن فعل فعلته احتار ما الذي يفعله، فهذه أول عملية قتل في المنطقة التي عاش بها آدم عليه السلام؛ إذ أن الفترة الزمنية التي تفصلنا عن آدم عليه السلام لا تزيد عن أربعة عشر ألف سنة، وبهذا فهي تكون أول عملية قتل، وإن كان هذا لا يلتقي مع النظرية العلمية التي تقول: إن أعمال الحفريات اكتشفت أناساً كانوا موجودين قبل

(١) جامع المقاصد ٩ : ١٧١، مسند أحمد ٤ : ٢٦٨، صحيح البخاري ٣ : ١٥١، صحيح مسلم ٥ : ٦٦.

عشرة ملايين سنة أو أكثر^(١). وهذه النظريات في الوقت الحاضر كلها نظريات قابلة للمناقشة؛ فهي ليست حقائق ثابتة.

المهم أن قابيل حمل هابيل على كتفه وراح يجول به مدة إلى أن أرسل الله له غرابين قتل أحدهما الآخر ثم احتفر له برجله ودفنه وأهال التراب عليه، فقال قابيل: لقد أرحتني، ثم فعل بأخيه ما فعل الغراب بصاحبه.

وموضع الشاهد هنا أن هذين اللذين ذكرهما القرآن بقوله: ﴿اللَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ إنما ضلّا وأضلّا بسوء اختيارهما هما، وليس ذلك واقعاً على القدر، فالأقدار لا يمكن أن نحملها ذلك، بل إن مردّة سوء اختيار الإنسان. وسوء الاختيار هو الذي حمل عمر بن سعد على اختيار قتال الحسين عليه السلام، ومع أنه كان عنده بقايا من ضمير إلا إن سوء الاختيار تغلب عليه؛ ولذا ارتضى أن يقاتل الإمام الحسين عليه السلام، كان يمضي ليله يستشهد بالأبيات الآتية:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه	إلى خطّةٍ فيها خرجت لحيني
فو الله لا أدري وإني لواقفٌ	على خطرٍ لا أرتضيه ومين
أترك ملكَ الرّيِّ والرّيّ منيتي	أم أرجعُ مأثوماً بقتلِ حسين
وفي قتله النارُ التي ليس دونها	حجابٌ وملكُ الرّيّ قرّة عين

فضميره يقول له: لا تقدم على فعل ذلك؛ لأن في هذا الخسارة والهلاك في الدنيا والآخرة، وهو وإن كان فيه ربح قليل، لكن فيه ظلماً وتعدياً وعقوباً وقطع رحم، وغريزته تدفعه لقبول ذلك ويقول له صوتها: اقبل بهذا؛ ففيه

(١) أي أنه بناء على هذه النظرية لابد أن تكون حالات من القتل قد وقعت في تلك المجتمعات؛ وعليه فقتل قابيل هابيل ليس الجريمة الأولى في الأرض وفقها.

البرد المحلّى بالذهب، والسرير المزركش والخضوع لك، والأموال. والحياة على امتداد مسيرتها فيها هذان الأمران المتوازيان: بريق الذهب، والمعاناة؛ ولذلك فإن القاعدة الأساسية هي أن الفضائل وليدة المعاناة، والانحدار وليد الغرائز. والإنسان غالباً ما تسيطر عليه غرائزه، وقليل من الناس من يسحق الدنيا بقدميه ويتوجّه إلى طلب رضوان الله تعالى، وينظر إلى ما هو أبعد: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(١)، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾^(٢).

وفعلًا مات هذا القليل بموت عمر بن سعد، وعاش الحسين عليه السلام وما يزال، إننا نعيش الحسين عليه السلام الآن فكرة وعقيدة، فهو عليه السلام حي ومثل أعلى وضاء يشع بالخلق النبيل والبطولة والرجولة والطهارة، أما ابن سعد فغلب عليه شقاؤه بسوء اختياره، فخرج يقود جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف جندي بعد نزول الحسين عليه السلام، ووصل به الحال أنه بعد أن سقط الإمام الحسين عليه السلام نادى جيشه قائلاً: ويحكم، ماذا تنتظرون؟ أريحوه. فنزلوا إليه واحتزوا رأسه الشريف. فانظر إلى أي حدّ بلغت الخسّة بابن سعد، ثم أضاف إلى خسّته هذه خسّة أخرى حينما أقبل وفي يده قبس يلتهب حتى وصل إلى مخيم الحسين عليه السلام وهو ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين. ففرت بنات الزهراء يتراكن من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة.

يقول حميد بن مسلم: رأيت طفلة خرجت ترتعد والنار قد استعرت بأطراف ثيابها، فدنوت منها لأطفئ النار التي تستعر في ثيابها، فرأيتها ترتعش أمامي كالسعفة حين تحركها الرياح، ثم قالت: يا هذا، أنت لنا أم علينا؟ فقلت: سيدتي، لا لكم ولا عليكم. قالت: هل قرأت القرآن؟ فقلت:

(٢) النساء: ٧٧.

(١) القصص: ٦٠، الشورى: ٣٦.

نعم قرأته . فقالت : ألم تمرّ بك هذه الآية ؟ قلت : أي آية تعنين ؟ فقالت : قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾^(١) . قلت : بلى قرأتها . قالت : أتعرف من أنا ؟ قلت : لا . قالت : أنا يتيمة أبي عبد الله الحسين عليه السلام . فقلت : بنية إلى أين ؟ إنني أخشى أن تأخذك حوافر الخيل . قالت : ذكرت لي عمتي البارحة أن لنا بالغري قبراً ، وأنا أريد أن أذهب إليه . فقلت : بنيتي إن بينك وبينه مسافة بعيدة . فقالت : إذا كان كذلك فدلني على نهر العلقمي .

يقول حميد : فأخذتها إلى نهر العلقمي وجلست إلى جانب جسد هناك ، ثم خاطبته قائلة : يا عم ، اجلس وانظر إلى عيالك قد استعرت النار بمخيمهم :
كلّ تلوذ بأخرى خوف أسيرها لوذ القطا خوف بأس الباشق الضخم



عباد الله الذين اصطفى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

إن هذه المجموعة من الصفات^(٢) التي نصّت عليها الآية الكريمة قد نعت الله تعالى بها شريحة من الناس هم الصفوة من عباده . وسنرى إن شاء الله تعالى أن الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الخيرة البررة من أبرز مصاديق هذه الآية الكريمة . وسوف نتناول هذه الصفات صفة صفة إن شاء الله .

(١) النساء : ١٧ .

(٢) فائدة نحوية : الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة هي نعوت لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ﴾ في سابقتها : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا...﴾ . وبما أن الاسم الموصول هنا غير مرفوع ؛ فلذا لم ترفع هذه الصفات . وقد ورد في توجيه عدم الرفع فيه وجهان : الأول : النصب ، وهو بإضمار الفعل (أمدح) أو (أعني) . الثاني : الجرّ ؛ وفيه قولان :

١- النعتية لقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ في سابقتها ، أو على البدلية منه .

٢- النعتية لقوله تعالى : ﴿بِالْعِبَادِ﴾ في سابقتها ، أو على البدلية منه أيضاً .

الدرّ المصون ٢ : ٣٧ .

المبحث الأول: صفة الصبر ومعناها

تقول الآية الكريمة: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، والصبر هو كيفية وهيئة نفسية، وهو من أفعال القلب لا من أفعال الجسد، بل إنه من أعلى وأشرف أفعال القلب.

أبعاد الصبر وأقسامه

ثم إن الصبر له أبعاد وأقسام، ويقع على عدّة معانٍ، منها:

الأول: الصبر عن المعصية

إن الكثير من الناس يتعرضون للإغراء والوقوع في المعصية على مدى حياتهم، وبعض هذه الإغراءات عادة تكون مما يثلم المروءة، وبعضها ممّا يثلم الدين، وبعضها ممّا يثلم الكرامة. وهذه الأمور بأجمعها قليلاً ما تصمد أمامها النفوس؛ إذ لا يصمد أمام الإغراء إلا من له نفس كبيرة، ومن يملك ديناً وخلقاً واستقامة. ومن جملة ما يصدق عليه أنه صبر أمام الإغراء هو الصبر عند الخصومة؛ إذ أن هذا الأمر ممّا يبيّن حقائق الناس ومعادنهم؛ فالنبيل يصبر على خصمه عندما تكون له خصومة معه ولا يشمت به مع أن غيره يلتذ بالشماتة بعدوّه وينعته بأقبح النعوت. أما النبيل ذو النفس الكبيرة فكما قلنا يأبى ذلك أشد الإباء، ومن ذلك ما يروى أن ابن ميادة دخل على جعفر بن أبي سليمان - من أعمام المنصور - فمدحه بأبيات، فأمر له بمثني ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: واللّه ما قبّلت يد قرشي غيرك إلا يد هشام ابن عبد الملك. فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتها لله. فقال ابن ميادة: ويدك واللّه ما قبّلتها لله. فقال له جعفر: واللّه لا ضرك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أخرى^(١).

(١) المستطرف في كلّ فنّ مستطرف ٢: ١٥.

فهذا ذو نفس كبيرة صمدت أمام القوة والمال بما اتّصفت به من علو ورفعة .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من كلمة لعبد الملك بن مروان في حق مصعب بن الزبير - مع أنه عدوّه، وكان في حرب معه - فقد قيل له : ما تقول في مصعب، فقد شرب الشراب؟ فقال : مصعب يشرب الشراب؟ والله لو علم مصعب أن الماء يُنقص من مروءته ما روي منه ^(١).

ومن الجميل أن تجد في الحياة من يتصف بالأخلاق الحسنة والنفس العالية المتينة التي لا تنهار في درب العداوة والبغضاء . والأرض فيها القليل من هذه النماذج، لكنها في المقابل مليئة بالنماذج الوسخة القذرة . وهذه قاعدة عامّة؛ فالمألوف عند الناس والمعروف بينهم أن العملة الجيدة نادرة وصعب الحصول عليها، أما العملة الرديئة فهي مبدولة وطاغية وسط المجتمع وسائدة فيه، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم بقوله : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ^(٢)، فالله تعالى دائماً يعبر عنهم بأسلوب القلّة.

وعلى أية حال فإن الصبر عن مغريات الحياة ولذائذها يعدّ من أشد حالات الصبر؛ لأن الحياة مليئة بالإغراءات، بل الحياة عينها هي الإغراء؛ فأينما يذهب الإنسان يلقَ أمامه إغراءً ولذة تدعوه إلى المعصية، فإذا استطاع السيطرة على أعصابه وتمكن من قيادة رغباته وغرائزه وتحكّم بشهواته وكبحها وعاش عفيف النفس شريف الأخلاق متعالياً عن دعوات الإغراء فقد بلغ مرتبة التكامل النفسي .

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٥ : ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) سبأ : ١٣.

الثاني: الصبر على الطاعة

إن الكثير من الطاعات بل أغلبها ينطوي على مشقة وجهد وتعب، لكنها عادة تمرّن الإنسان على مواجهة الحياة وملاقاتها والتكيف مع متطلباتها. فالإنسان حينما يصلي أو يصوم أو يحجّ أو يخرج ماعليه من حقوق في أمواله لله ولعباده الذين افترضها لهم، فإنه إنما يستثمر منظومة الطاقات المودعة عنده والكامنة في دواخله؛ فالصلاة مثلاً هي استثمار منابع الخير في أعماق الإنسان، والصوم هو عبارة عن استثمار الطاقة التي تواجه بها الشدائد، وإلا فإن الدين ليس له أي مصلحة في أن يكلفك بإنفاق أموالك ويكلفك بالصلاة والصوم دون وجود سبب أو مبرّر في غاية المعقولة يبرّر هذا التكليف.

إذن فالإنسان حينما يؤمر بالإنفاق فإنه في الحقيقة يؤمر باستثمار منابع الخير داخله كما سيمرّ علينا. وكذلك الأمر بالصلاة والصوم؛ حيث إن الهدف منهما تربية الإنسان وتقويمه وإعداده إعداداً خالصاً كي يواجه كل متطلبات الحياة بقوة وصبر؛ لأن الحياة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان الرخو أو الضعيف؛ إذ أنها تنبذه وتسحقه. والحقيقة أن ناموس تنازع البقاء قضى أن يعيش الأقوى.

فالدين إذن يستهدف تربية الإنسان من خلال ترسيخ الخلائق الكريمة والصفات الحسنة القويمة في أعماقه؛ لكي يعدّه لمواجهة الحياة، فيستقبلها بطاقات كبيرة ومقدرة عظيمة.

الثالث: الصبر عند المصيبة

وهو عبارة عن استثمار طاقة الصمود عند الإنسان أمام التحديات. فكما

أن في الدنيا إغراءات فكذلك فيها تحديات تتمثل بالمصائب والرزايا التي تقع على الإنسان الذي يعدّ صابراً حينها فيما لو صمد أمامها بثبات أعصاب وقوة شكيمة . إن الحياة عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المصائب والنوائب سيّما مع الإنسان المؤمن^(١)، فهو نادراً ما يمر عليه يوم دون أن تقع له مصيبة . وهذا ليس تشاؤماً ولا هو دعوة إلى التشاؤم، كما أنني لست متشائماً، لكن هذه هي سنة الحياة وحصيلة تجاربها . وعليه فإن على الإنسان الصمود أمام هذه الرزايا وألاً تهزّه المصائب فتغيّر مواقفه وعقائده؛ لأنه إن فعل ذلك فمعناه أنه قد انهار أمامها وتمزّقت شخصيته ووجوده . وحينئذٍ لن تكون هناك فائدة من وجوده ولن يحقق الغرض والهدف الذي خلقه الله من أجله وأراد له وهو استخلاف الأرض الذي لا يكون إلا عبر بناء شخصيته بناءً متيناً محكماً يتغلّب بواسطته على مشاكل الحياة وشظفها .

إن حالة الصمود أمام هذه المشاكل هي فضيلة ينبغي استثمار طاقة الاستعداد عند الإنسان لها، وعدم تركها أو التخلّي عنها، وبالتالي مواجهة تحديات الحياة . وهناك الكثير من المواقف البطولية عند البعض في عالمنا؛ مما يثير الإعجاب، ويبعث على الشعور بتقديس الفضائل والنبيل؛ لأن هذا الإنسان قد صمد فيها أمام تحديات الزمن . أدخل رجل أعمى على الوليد بن عبد الملك بن مروان - وكان عبسياً قادماً مع وفد من عبس - فقال له الوليد: متى ذهب بصرك؟ فقال له: لو تعفيني من الإجابة على هذا، كان خيراً.

(١) سئل أبو جعفر عليه السلام: يكون المؤمن مبتلى؟ قال: «نعم، ولكن يعلو ولا يعلى». المحاسن ١:

فقال الوليد: ولم؟ فقال: لأنك في مجلس أنسك ولا أحب أن أعكر عليك صفو مجلسك أو أؤذيك بكلامي وأخلق لك جواً من الكآبة والأسى. فقال له الوليد بن عبد الملك: إنك إنما زدتي شوقاً لسماعها. فقال: إذن سأحكي لك حكايتي: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالي وعيالي، ولا أعلم عيسى يزيد ماله على مالي، فعرّسنا في بطن وادٍ، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير وأنا أعلم أنه وسيلتي الوحيدة للنجاة، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير فضرب وجهي برجليه فذهبت عيناى، فأصبحت بلا عيني ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

ثم قال له: فكيف أنت الآن؟ فقال: كما ترى، والله لا أزداد لله إلا شكراً؛ لأنى لا أستطيع أن أغير من الواقع شيئاً^(١).

المبحث الثاني: منشأ الصبر والصدق فيه

فالصبر إذن هو خير وسيلة للإنسان على اجتياز محنه ونوائبه؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾، أي الصادقين في صبرهم. وهذا هو المقصود بالصدق هنا وليس هو الصدق في اللفظ أو الإخبار، وإنما هو الصدق في الصبر، وهو ما يقابل التكلف فيه. فكأنما هناك نوعان من الصبر بلحاظ منشئه: صبر يتكلفه الإنسان، وصبر لا يتكلفه.

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ١٩٣.

الصبر الذي يتكلفه الإنسان

وهذا النوع لا يتّصف به الإنسان لأن من شأنه أنه صبور أو أنه يتحمل المكاره، بل لأنه يحاول أن يتجلّد ويظهر نفسه على أنه كذلك، ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

هيهات لا تتكلفنّ لي الهوى فضح التطبّع شيمّة المطبوع^(١)

فالإنسان أحياناً يتكلف الصبر ليظهر عليه الجلد، لكنّ أحشاه عبارة عن كتلة ملتهبة من النار؛ وهذا بسبب عدم وصوله إلى مرحلة التسليم لله، ومنزلة الرضا بقضائه وقدره تسليماً ورضاً مطلقين لا تشوبهما شائبة، ولم يدرك في أعماقه أن الله تعالى لا يصنع بعبده إلّا الخير. وهذه العقيدة صعب منالها وهي غير موجودة إلّا عند القلائل من الناس. يروى أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي - وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة - وقف على ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه نتوجّع	والدهر ليس بمعتبٍ من يجزّع
أودى بنيّ فأعقبوني حسرة	عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهوائهم	وتخرّموا ولكل جنب مصرع
فالعين بعدهم كأن جفونها	كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمع
وتجلّدي للشامتين أريهم	أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

إلى هنا وهو في غاية الصلابة، لكنه ينهار فجأة فيقول:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفع

(١) ديوان الشريف الرضي: ٦٥٢.

ثم سقط متها لكأ على التراب لا يقوى على القيام، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كل حيوان عنده في الحظيرة^(١)، ليخلق مشهداً من الألم، ويتسنى له أن يوجد من يتألم معه في ذلك المشهد. فهذا قد تجلّد فترة ثم انهار ولم يستطع أن يواصل مشوار الصبر ورحلة التجلّد والصمود أمام المصيبة.

فالقرآن الكريم يشير إلى تجلّد الصادقين في صبرهم، الذين يتحصنون بقناعتهم ضد التحديات، قناعتهم في أن ما صنعه الله هو عين الحكمة، وأن ما جرى ويجري هو عين الحكمة. وهؤلاء هم الذي مدحهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «نحن صبرنا، وشيعتنا أصبر منا؛ لأننا صبرنا بعلم وصبروا على ما لا يعلمون»^(٢)

وفعلاً فهذا هو التسليم المطلق لله تعالى حيث ينقطع فيه الإنسان إليه انقطاعاً كاملاً.

المبحث الثالث: معنى القنوت

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، والمراد بالقنوت هنا معنيان:

المعنى الأول: السكون والانقطاع

ويراد بالسكون هنا هو عدم الالتفات أو الإتيان بأي حركة فيه، فينقطع الإنسان انقطاعاً كاملاً إلى الله تعالى ويتوجّه إليه بكيانه وقلبه ويقبل عليه بجوارحه. ومن هذا: القنوت في الصلاة. وما دما قد تطرّقنا لهذا الموضوع فأحب أن أقول: إن القنوت في الصلاة عندنا^(٣) غير واجب، بل هو مستحب،

(٢) تفسير القمي ١: ٣٦٥.

(١) الكنى والألقاب ١: ٧٦.

(٣) انظر شرائع الإسلام ١: ٧٩.

فلا تبطل الصلاة بتركه عمداً أو سهواً، لكن استجابه مؤكّد، وقد أخذناه عن النبي محمد ﷺ^(١) عن طريق أهل بيته عليهم السلام. فالقنوت في الصلاة هو السكون عن الحركة، ومعناه أن الإنسان يجب أن ينقطع إلى الله تعالى في دعائه، ويوجه كل مداركه وحواسه وكيانه إلى السماء دون أن يأتي بأي حركة تنافي هذا الخشوع والانقطاع.

المعنى الثاني: الدوام على الشيء

وهو المعنى المراد في آية المقام، ويراد بهذه الصفة هنا الدوام على الصبر والصدق في الصبر والطاعات، وعدم تركه في بعض الحالات. فالقانت إذن هو المداوم على الطاعة الملازم للصبر الذي يجب أن يتحلّى به. وقد نلاحظ في حياتنا اليومية من خلال مشاهداتنا لبعض من يحيطون بنا أن البعض ملتزم بعبادة الله تعالى وطاعته لكنه في النهاية يترك عباداته وطاعاته وينجرّ وراء الدنيا، ويعود إلى وضعه السابق، لأن هناك مؤثرات تجرّه إليها وتدعوه إلى التمتع بها. فهذا ليس عنده مداومة على العبادة، فكيف نجعل من الإنسان صاحب حصانة ومداومة عليها؟

إن من الصعب على البعض أن يستمرّ في طاعته على وتيرة واحدة ولا يتركها حتى النهاية، والسبب في ذلك هو جواب تساؤلنا، وهو أن هذا الإنسان لم يتلبّس بالطاعة والعبادة - حينما تلبس بهما - عن وعي، وإنما أخذهما بالتقليد من أهله، وهذا لا يمكن أن يفهم لها معنى حقيقياً أبداً. ومع ذلك فهو تقليد حسن ومحبّد ما دام لا يؤدّي بصاحبه إلى التراجع عنه، أما إذا

(١) مختصر المزني: ١٥، فتح القدير ٣: ٤١٧، ٤٤٤، ٤: ٢٤٩، وفيها: مازال النبي ﷺ يفتن حتى فارق الحياة.

تراجع عن إيمانه وعبادته فهو بطبيعة الحال أمر ناشئ عن هذا التقليد لا عن غيره. وينفع هذا التقليد كونه لا يضر صاحبه بل على العكس إنه ينفعه.

عطاء الصلاة

وقد يسأل سائل فيقول: إن هذا تقليد أعمى، وهو وهمي، لأن من المحتمل ألا يكون هناك إله، فما فائدة العبادة إذن؟ ثم إن هذا المقلد قد يغير عقيدته بين آونة وأخرى.

ويقال في جواب هذا: إنه على فرض ألا يوجد هناك إله، لكن لنا أن نسأل: ما هو الضرر من الصلاة على المصلي حتى مع فرض أنه ليس هناك إله؟ بل إن العكس هو الصحيح^(١)، فحتى مع هذا المؤمن فإن الصلاة في حقيقتها عطاء وترويض للنفس على الخير وحب الناس؛ فهي من هذه الناحية ليس فيها أي خسارة أبداً ويمكن تلخيص هذا العطاء بعدة أمور:

الأول: أنها تخلق الإنسان الصالح وتدفعه إلى فعل الخير

فالمصلي يستيقظ صباحاً لينظف جملة من أعضائه نظافة جسدية ثم بعدها يتوجه إلى تنظيف روحه. وهنا موضع التأكيد؛ حيث إن النظافة الروحية أهم من النظافة الجسدية، فينهض صباحاً فيواجه السماء ويستمد منها العون واللفظ ومعاني الخير والحب والطاقة قبل أن يواجه المجتمع، فيتوجه للقبلة الشريفة وإلى الله تعالى.

(١) قال المعري:

لا تحشر الأجساد قلت إليكما
أو صح قولي فالخسار عليكما

قال المنجم والطبيب كلاهما
إن صح قولكما فليست بخاسر

اللزوميات: ٢٠٦.

إن الأزمة التي نعيشها اليوم هي أزمة أخلاق وليست أزمة طعام أو شراب؛ لأن الأعم الأغلب من أبناء البشر اليوم هم ذئاب؛ فكل واحد منهم يعيش داخله ذئب يحاول أن ينقض على فريسته ليلتهمها، وليس هناك من آدمي تنبض فيه مشاعر الرحمة والمودة والأخلاق إلا القليل منهم كما أسلفنا. فمن الذي يخلق الإنسان بهذه الصفات المطلوبة؟ الذي يخلقه كذلك هو الدين وليس العلم؛ فهناك الكثيرون ممن قطعوا شوطاً كبيراً في طريق العلم ووصلوا فيه إلى غايات بعيدة، وحازوا حظاً وافراً من التكنولوجيا، لكنهم لا مانع لديهم من حرق العالم كله إذا تعارض مع مصلحته، مع أن فكره متطور ومع أنه يعد ذا خلفية علمية وحضارية.

فأين العلم إذن؟ وما فائدته مادام لم يردع حامله من أن يسيء إلى العالم أي لحظة شاء؟ إن الجهة الوحيدة التي تستطيع صنع الإنسان المتكامل هي الدين. وصنع الإنسان ليس أمراً سهلاً، إننا اليوم بأمس حاجة للإنسان الملتزم بمبادئه وإنسانيته، ولا يوفر لنا هذا إلا العبادة، والعبادة لا تصنع الإنسان بالصفات المطلوب منها أن تخلق فيه إلا إذا كانت منبثقة عن وعي وفهم لا عن تقليد.

إذن ليس هناك أي ضرر من العبادة - فضلاً عن فوائدها - خصوصاً أن المصلي يتوجه إلى مكان مقدس في حقيقته وفي نظره؛ يستلهم منه الخير وينظف مشاعره من الأدران ويكيّف نفسه للخير ويستعدّ نفسياً لفعله، ثم يخرج ليواجه المجتمع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، وهكذا فإنه يواجه

المجتمع وهو يسير في طريق صحيح؛ فلا يعتدي ولا يسرق ولا يخون ولا يكذب ولا يستعمل أي لون من ألوان الخلق الذميمة الذي يثلم الشرف والكرامة والإنسانية والضمير. وهذه الالتزامات هي أول عطاء تمنحه الصلاة للإنسان.

الثاني: أنها تقرب العبد إلى ربه

ثم إن هذا العطاء الذي يعبر عنه الحديث النبوي الشريف بقوله: «الصلاة قربان كل تقي»^(١) لا يذهب نفعه إلى الله تعالى، بل إنه يعود إلى العبد المصلي نفسه، فالمصلي يرفع كل يوم قرباناً إلى الله تعالى خمس مرات، وهذا القربان هو صلة بينه وبين الله تعالى يستلهم عبره معاني الخير من ربه. فما هو الضرر الذي يمكن أن يترتب على الصلاة؟ إذن فالعبادة يجب أن تكون نابعة عن وعي المصلي بها.

المبحث الرابع: العبادات المالية؛ دوافعها ومبرراتها وآثارها

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، والمنفقون هم الذين ينفقون أموالهم لوجه الله وفي سبيله.

وقد يعترض البعض على العبادات المالية فيقول: ما معنى أن يدفع شخص قسماً من أمواله التي تعب فيها بعنوان أنها حق الله للمجتمع؟ وما الذي يربطه بالمجتمع بهذا الشكل الذي يجعله يدفع أمواله لهم من أجله؟ إن من يملك أدنى مقدار من الوعي لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، مسند الشهاب ١: ١٨١ / ٢٦٥، وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ.

ولا أن يؤثر فيه ؛ لأن المفروض به أنه يعرف ما يفعله ويعيه ، وأن كل درهم ينفقه في هذا المجال في سبيل الله هو عن وعي ومعرفة . فمن ينفق هذا المبلغ فعليه أن يعي أولاً أن هذا المبلغ سيعود عليه بالنفع بصورة غير مباشرة ؛ ذلك أنه لم يوجد هذا المبلغ بنفسه ، فعليه أن يسأل نفسه حول الكيفية التي حصل بها على هذا المال . إن هذا المال لم ينتجه لوحده ، بل إنه أخذه من المجتمع ؛ لأن المجتمع قد ساهم معه في إنتاج هذا المال وتحصيله ، فسائق السيارة حينما يكسب مبلغاً شهرياً أو أسبوعياً أو غير ذلك جرّاء عمله في سيارته عليه أن يدرك أنه لولا المجتمع الذي استأجر سيارته لم يكن ليحصل على المال .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية إن هذه السيارة التي يعمل فيها من الذي أنتجها له ؟ إنه المجتمع فهناك عدة مصانع أو مصنع واحد له جهات متعددة قامت بإنتاج هذه السيارة ، وهذه المصانع ، أو هذا المصنع ذو الجهات المتعددة لم تُقم لوحدها وإنما هناك الآلاف من العمال الذين قاموا بتصنيع هذه السيارة ، ومن قبلهم آلاف مثلهم قاموا بالتعدين والتنجم وغيرهم في استخراج النفط والزيوت من الأرض وهكذا ، وأخيراً هناك شخص يملك شركة لاستيرادها ، أو معرضاً لعرضها أمام الراغبين في الشراء ، وهكذا .

فصحيح أن صاحب المال قد دفع الأموال حيالها ، لكن ما فائدة هذه الأموال إذا لم يعمل كل هؤلاء من أجل توفير هذه السيارة له ؟

إذن فالمجتمع كله تكاتف على تصنيع هذه الآلة ، والإنسان حينما يأخذ الربح فإنما يأخذه من المجتمع نفسه ، وحينما ينفق هذا المبلغ في سبيل الله فإنه في الحقيقة يعطيه إلى أفراد من المجتمع هم محتاجون إليه ، وبالتالي فإنه يحقق مفهوم العدل والمحبة بين الناس وينشر الشفقة والرحمة بين العباد .

وهذه العملية في الحقيقة تنطوي على عمليتين :

الأولى : عملية استثمار من المجتمع .

الثانية : عملية ردّ إلى المجتمع .

فالمنفق إذن عليه أن يعي هذا الأمر وأنه على بصيرة من أمره فيما يعمل ، وأن ما يقوم به عبادة يتقرب بها إلى الله من جهة ، ومن جهة ثانية أن نفع هذه العبادة وخيرها يعود عليه من قريب أو بعيد .

ولو تكلمنا في هذا المجال بلغة الاقتصاد فإننا نقول : إن المنفق في سبيل الله إنما يوجد قوة شرائية عند الأفراد المحرومين ، وبالتالي يوجد عملية تحريك السوق وتسييره وانتشاله من حالة الركود التي ربما يكون عليها . ففعل الإنفاق انعكس بشكل إيجابي على السوق وأدى إلى تحريكه وبث الحيوية فيه .

أقسام الإنفاق

ثم إن الإنفاق تارة يكون بالأموال وتارة يكون بالمعنويات كالإنفاق بالجاء والعلم وغيرها . وسنتناولها بإيجاز فيما سيأتي إن شاء الله .

القسم الأول : الإنفاق بالأموال وأنواعه

إن الإنفاق بالأموال يمكن أن يتصور على وجهين ، أو نوعين :

النوع الأول : الإنفاق الواجب

ويكون مختصاً بالأقارب وحدهم^(١) . أي أن على الإنسان أن ينفق على

(١) قال تعالى : ﴿ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ البقرة : ٢١٥ .

وورد في الحديث : «الأقربون أولى بالمعروف» . المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧ : ٢٨٨ ، العهد

من يعوله كالأبوين العاجزين اللذين لم يتمكنوا من العمل ، وكالزوجة والأولاد .

النوع الثاني : الإنفاق المستحب

ويكون للأقارب وللأبعد ، أي أن على الإنسان من باب صلة الرحم لا الوجوب أن يعين المحتاج من أقربائه وأبناء عشيرته^(١) .

القسم الثاني : الإنفاق بالأمور المعنوية وأنواعه

ويندرج تحت هذه القسم عدة عناوين نذكر منها :

النوع الأول : الإنفاق بالجاء

والإنفاق بالجاء مساعدة الإخوان باستعمال الجاء عند السلطان . فإن من يملك جاهاً عند الحاكم أو السلطان ويستطيع أن يقضي به حوائج إخوانه فعليه أن يتدخل ويستعمل جاهه لإعانة ذلك المحتاج أو المظلوم ، فالله سائله يوم القيامة عن جاهه لماذا لم يستعمله في خدمة إخوانه وقضاء حوائجهم .

النوع الثاني : الإنفاق بالعلم

وكذلك فإن الله تعالى يحاسب العالم يوم القيامة فيما إذا لم ينفق علمه على مستحقّيه ؛ لأنه تعالى لم يعط الإنسان هذا العلم حتى يكتنزه في صدره ويمنعه من الناس الذين يغرقون في الضلالة والجهالة^(٢) . فالواجب على العالم

المحمدية : ٥٣٠ .

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير» . نهج البلاغة / الوصية : ٣١ .

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام : «زكاة العلم نشره» . غرر الحكم ودرر الكلم : ٤٢٤ .

ألا يبخل بعلمه على المحتاج إليه . وكذلك يجب عليه ألا يسخره في خدمة الجبابرة والظالمين ، بعث المنصور خلف أحد العلماء ، فأبى أن يأتيه ، وقال لرسوله : ليس لي عنده حاجة ، فإن كان له عندي حاجة فليأتني هو . فلما عاد جلوازه بجوابه إليه انتفض المنصور غاضباً ، ثم جاءه مع مجموعة من جلاوزته ، فقال له العالم : إن من إكرام الله إكرام صاحب العلم ، فكيف تريد مني أن أتسكع على بابك ؟ فاحترم المنصور رأيه وقال له : تواضعنا لعلمك فاستفدنا منه ، وتواضع لنا علم غيرك فلم نستفد منه .

فهو يقول له : كيف تريد مني أن أتسكع على بابك ؟ إن العلم إذا تسكع على أبواب الظلمة فقد قدسيته^(١) . فالمفروض أن هناك ضريبة على العلم يدفعها صاحبه ، وهي ضريبة معنوية يقدّمها حامل العلم للطبقات التي تحتاج إلى علمه وإرشاده وتوجيهه . وسيرة أيّمتنا الكرام البررة غنية بهذا المعنى .

المبحث الخامس: التهجد والاستغفار

ثمّ قالت الآية الكريمة : ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ، والمستغفرون المتهجدون هم قوّام الليل الذين يصلون صلاة الليل بصلاة الصبح وينتهي استغفارهم وتسبيحهم إلى الأسحار . ومن أبرز من جسّد هذا المعنى هو الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه أوداء الله تعالى .

وقال عليه السلام : «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا» . نهج البلاغة / الحكمة : ٤٧٨ .

وقال الباقر عليه السلام : «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله» . الكافي ١ : ٤١ / ٣ .

(١) في المأثور : «إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك ، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء» . الكنى والألقاب ١ : ٢٧٢ .

المبحث السادس: الإمام الحسين عليه السلام وعناوين الآية الكريمة

وبعد ذكر ما تقدّم من الصفات المحبوبة إلى الله تعالى والمحبّبة له سوف نقوم بتطبيق هذه الصفات على الإمام الحسين عليه السلام وسيرته العطرة؛ لنرى مدى الترابط الذي كان بينه عليه السلام وبين الله، ومرحلة العرفان والانصهار في ذات الله جلّ وعلا منه، ولنلاحظ العناوين التي جسّدها الحسين عليه السلام على تراب كربلاء.. التراب الذي حمل أقدس الدماء وأشرفها على ضوء هذه العناوين والصفات التي حملتها الآية الكريمة. ولنتناول هذه العناوين واحداً واحداً لنثبت صحة هذا:

العنوان الأول: صفة الصبر

فالأية الكريمة تقول: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، وهذا ما كان عليه إمامنا الحسين عليه السلام؛ حيث إنه وقف يوم عاشوراء والمعركة كلها على كاهله؛ فكان عليه السلام كلما وقع أحد أصحابه أو أهل بيته وقع جانب من قلبه الشريف معه، فسقوط قتيل من أصحابه وأهل بيته معناه سقوط نجم من نجوم آل محمد ﷺ أو من النجوم التي آزرتهم. وكان هذا المعنى يخلّف في قلبه الشريف أثراً كبيراً وفقداناً لا يعوّض. لكن مع كل هذا لنلاحظ ما الذي كان عليه الحسين عليه السلام؟ وكيف كان؟ وما الذي كان يفعله؟ لنعرف مدى صحّة المعنى الذي نحاول إثباته هنا؟ لقد كان عليه السلام كلما وقع قتيل انحدر إليه مسرعاً ووقف عنده ثمّ يشخص ببصره إلى السماء ويقول: «اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»^(١). فهذه هي النفس الكبيرة المطمئنة العجيبة والقوية التي لم تعرف الوهن ولم تضعف أمام

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودة ٣:

الخطوب مع أن الأمر لم يكن سهلاً؛ ذلك أنه عليه السلام فقد عشرة من أحفاد أمير المؤمنين: خمسة من أولاده وخمسة من أولاد أخيه، وأربعة عشر من آل عقيل، وسبعة من آل جعفر، وكذلك ضحى بالباقيين من أصحابه. وهو عليه السلام بهذا يكون قد فقد اثنين وسبعين نجماً هم عصارة الدنيا والصفوة من صلحاء المسلمين. وقد مرّ على هذه المصارع جميعها دون أن يجزع أو يبدو عليه أي مظهر من مظاهر عدم الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لقدره. فأي نفس كبيرة هذه التي تسمو فوق كل البشر والملائكة؟ وأي همّة لا تعرف الكلل؟ وأي روح هذه التي كلما اشتدت عليها النكبات زادت صلابتها.

لقد وقف عليه السلام على الضحايا والمصارع، ونطق كلمته الشهيرة: «لك العتبي يارب، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»^(١).

وتأملت في وجوه الضحايا	وزواكي الدماء منها تسيلُ
ومشت في شفاهك الغرّ نجوى	نمّ عنها التسبيحُ والتهليلُ
لك عتبي يا ربّ إن كان يرضي	ك فهذا إلى رضاك قليلُ ^(٢)

العنوان الثاني: صفة الصدق

ثمّ قالت الآية الكريمة: «الصّادِقِينَ»، فأي صبر أعظم من هذا الصبر؟ وأي صدق يكون أكبر من هذا؟ لقد مرّت على أبي عبد الله عليه السلام لحظات من أشدّ ما تكون، تلك هي لحظات وداعه أهل بيته وهو يرى صبية تصرخ، ونساء يندبن، وجيشاً يريد أن ينتزع منه الحياة، وجثثاً تتراقص على التراب بدمائها، فانفرد بزینب يودّعها ويوصيها فتختنق بعبرتها وتسائله: كيف تطلب

مني أن أصبر على فراقك وفراق أهل بيتك ؟ لكنه ﷺ تجاوز هذا الموقف ، وتلقى النكبة بصدر رحب وصمد وصدق في صبره ، فلم يكن يتكلف الصبر . يقول عبد الله بن عمار : شاهدت الحسين ﷺ يوم الطف ، فما رأيت مكثوراً قطً أربط جأشاً منه . وكان في غاية الصلابة صابراً صادقاً مداوماً على الصبر حتى لحظاته الأخيرة ، وكان بين يديه ثلاثون ألفاً يشدّ فيهم كالأسد الهصور فينكسرون بين يديه كالجراد المنتشر وينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب ، ثم يرجع إلى مركزه فيتكى على قائم سيفه ويكثر من قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله »^(١) .

بل وحتى حينما وقع على أرض المعركة ، يقول هلال بن نافع : مررت على الإمام الحسين ﷺ فرأيت شفّتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة ، فقلت : إن كان يدعو علينا هلكنّا وربّ الكعبة . فدنوت منه فسمعتة يقول : « صبراً على قضائك يا رب ، يا غياث المستغيثين ، لا معبود سواك » . ثم راح يردّد :

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعني بالحبّ إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا^(٢)

العنوان الثالث: صفة الإنفاق

ثمّ قالت الآية الكريمة : « وَالْمُنْفِقِينَ » ، فما الذي أنفقه الحسين ﷺ ؟ إنه لم يدّخر شيئاً دون أن ينفقه في سبيل الله تعالى ، فحتى الطفل الذي ولد يوم العاشر من المحرم جاءت به أمّه لأبي عبد الله الحسين ﷺ وقالت له : هاكم

(١) مثير الأحزان : ٥٤ ، البداية والنهاية ٨ : ٢٠٤ .

(٢) سبق أن نوّهنا في ج ٢ ص ٣٣٦ وفي محاضرة (الآثار الاجتماعية للصلاة) من كتابنا هذا إلى أننا لم نعر على من ينسبهما للإمام الحسين ﷺ ، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم . انظر تاريخ مدينة دمشق ٦ : ٣٠٦ .

رضيكم آل بيت محمد؛ فلقد جفّ صدري من اللبن، فأخذه الإمام الحسين عليه السلام وجعل يطيل النظر إلى وجهه ثم قال: «بني، تعساً لقوم قتلوك». كبر في أذنه اليمنى، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فوضع الإمام الحسين عليه السلام يده تحت عنق الطفل حتى امتلأت دماً، وقذف بها إلى السماء وقال: «اللهم بعينك». وهذا هو المعنى الذي يشير إليه السيّد حيدر الحلّي فيقول:

ومنعطفٍ أهوى لتقبيل طفله فقبّل منه قبله السهمُ منحراً
لقد ولدا في ساعةٍ هو والردى ومن قبله من نحره السهمُ كبراً^(١)
إنه عليه السلام لم يترك شيئاً دون أن ينفقه في سبيل الله تعالى، فقد قدّم الأموال والأولاد والإخوة والعشيرة.

العنوان الرابع: صفة التهجد والاستغفار

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وقد مرّت هذه الليلة بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم) وهم يتلون كتاب الله ويستغفرون ربّهم، وكان لهم دويّ كدويّ النحل، وهم بين قائم وقاعد وراكم وساجد. وهم إلى ذلك عاكفون على حراسة المخيم بمن فيه، لكن زينب عليها السلام وقفت في ليلة الحادي عشر من المحرم ثم راحت تُجِيل نظرها دون أن ترى أحداً حامياً أو مدافعاً، فنادت أختها أم كلثوم وقالت لها: أختي كلّ ليلة تحرّسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا حامٍ ولا كفيل، أختي قفي أنت عن يمين الخيمة وأنا عن شمالها، فإن رأيت سواداً فأبعديها؛ لئلا يتسرّب الرعب إلى قلوب الأطفال والفاطميات.

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي: ٧٨.

وفعلاً هداً العيال والأطفال، وجاءت زينب عليها السلام تتفقد النساء فلم تجد
الرباب في خيمتها، فقد خرجت لتشرب الماء بعد أن أبيع لهم عقيب قتل
الرجال، فلما شربت الماء درّ ثدياها لبناً، والمرأة تعرف أن ثديها حينما يدرّ
فهذا يعني أن طفلها يطلب الرضاعة، فخرجت من المخيم وهي ترجو أن
يكون في ولدها صباة من روح أو بقية من حياة، فخرجت مولاتنا زينب عليها السلام
تبحث عنها وإذا بفارس يدور حول الخيمة، فصاحت به: من أنت؟ قال:
سيدتي أنا من معسكر عمر بن سعد، أمرني أن أحرسكم هذه الليلة.
فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولى حراستنا؟
ثم توجّهت إليه قائلة: هل مررت بأرض المعركة؟ فقال: نعم سيّدتني.
فقلت: هل رأيت هناك امرأة؟ قال: لا يا سيّدتني، لكنني سمعت هناك أنيناً،
ولعلّها هي. فهرولت نحو أرض المعركة، وهي تنادي: رباب، أين أنت؟
فوجدتها جالسة، وقد أخذت جثّة رضيعها وأدنتها إلى ثديها، وهي تقول:
بني، صدري يؤلمني، وثدياي قد درّا عليك. فأخذتها من يدها ثم دخلت بها
إلى الخباء، فوجدت مجموعة من الصبية تتلاعى، وصورة الحسين عليه السلام ماثلة
أمام عينيها، فوقفت هناك تجول إلى جانب النساء الشاكلات:

إن عسعس الليل وارى ذلّ أوجّهنا	وإن تَنقَّس وجه الصُّبحِ أبدانا
قم يا عليّ فما هذا القُعودُ وما	عهدي تغضُّ على الأقداءِ أجفانا
انهض لعلّك من أسرِ ألمِ بنا	تفكُّنا وتؤلّي دفنَ قتلانا

* * *

إلك جيت خويه بهدوة الليل أشرب دمع واكبع بالعويل



الإنسان ودائرة المسؤولية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في تحديد الهدف العام للآية

الجو العام للآية الكريمة يهدف إلى وضع الإنسان في منطقة المسؤولية، وإشعاره بأنه في كل أحواله تحت علم الله تعالى، بل إن الكون كله هكذا. والإنسان هو الجزء المخاطب من الكون، فالله لا يخاطب الجمادات والنباتات والحيوانات؛ لأنها غير مكلفة^(٢). فالآية إذن تريد أن تُشعر الإنسان بأن الكائنات الحية كلها ومنها الإنسان هي تحت علم الله، وإذا كانت تحت علم الله فعلى الإنسان أن يعي أن الله يراقبه في جميع تصرفاته. وقد يقول قائل: لماذا هذا التأكيد المشدد على الإنسان، هذا الكائن

(١) سبأ: ٢.

(٢) أما قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ - فصلت: ١١ - فهو في عالم التكوين، لا عالم التشريع.

الضعيف الحقير؟ فما هو الإنسان حتى يُشَدَّد عليه كل هذا التشديد؟ أليس هو ذلك الكائن الذي يقول عنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «تولمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقه»^(١)؟

والجواب: أن الإنسان هو الكائن العقلي الوحيد الذي بوسعه الآن أن يحوّل الأرض إلى جنة، أو إلى كتلة من اللهب؛ فهذه الانجازات في دنيا الذرة جعلته متمكناً من أن يحرق الأرض بمجرد أن يكبس على زر واحد. فهو خطر جداً وإن كان من الناحية الجسدية ضعيفاً. فهذه القدرات التي يمتلكها لا يمكن السيطرة عليها ما لم يشعر برقابة من الله تعالى عليه. وقد ثبت بالإحصائيات أن الإنسان لا يضبطه شيء من الضوابط غير الدين والعقيدة. وهذا هو السبب في تأكيد الإسلام والأديان الأخرى على الإنسان والتشديد عليه.

المبحث الأول: في الأشياء التي تلج في الأرض

من بعد هذه المقدمة نعود إلى الآية الكريمة التي بُدئت بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾، لنشرح مفرداتها؛ فالولوج هو الدخول، فما هي الأشياء التي يمكن أن يتصور أنها تدخل في الأرض؟ هناك عدة أشياء تذكر في هذا الباب هي:

الشيء الأول: الماء

فعلى الماء يتوقف نمو الإنسان وحياته ورفاهيته وزراعته، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَاهُ مُضْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢). وقد جعل الله تعالى في هذا السائل كل مقومات حياة الإنسان ومعيشته

(٢) الزمر: ٢١.

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.

على الأرض، ولهذا السبب سلب ملكيته، فليس لأحد أن يملك الماء إلا في حالات خاصة، كأن يضعه في إناء في بيته أو في مكان عمله أو غير ذلك، أما ماء البحار والأنهار والبحيرات والينابيع فلا يملك، ويُعَبَّر عنه في الاصطلاح الفقهي أنه من المشتركات؛ لأن حياة الإنسان تتوقف عليه.

وإذا كنا لا نشعر بقيمة الماء عندنا فلأنه متوفر بكثرة، فخمسة أسباع الأرض ماء. ومن الطبيعي أن وفرة السلعة تؤدي إلى رخص قيمتها، وإلا فلا شيء يمكن أن يكون أغلى من الماء عند ندرته.

فالله تعالى يقول: نحن نسلك هذا السائل الذي تتوقف عليه حياتكم في الأرض، ونجعله يلج فيها ويخرج منها لتوفير النعم لكم. فهو يريد أن يقرّرنا بنعمه، فلو أراد أن يحرم الإنسان من هذه النعمة فإن الحياة سوف تنتهي. وهو تعالى لا يريد أن يمنّ على العباد بهذا التذكير، وإنما يريد أن يرثيهم ويؤدّبهم، ويجعلهم في شكر دائم لنعمه.

الشيء الثاني: البذرة

فهذه البذرة عندما تُلقى في التراب فإن الله تعالى يعطي زارعها عليها أرباحاً مضاعفة، ولكنه فرض عليه مقابل ذلك نسبة بسيطة من هذه الأرباح، وهي الزكاة. فهذه الحبة لا يمكن أن تعطي هذه النسبة من الربح لولا أن الله تعالى يسر لها أن تكون كذلك، فلماذا لا يعطي الإنسان الزكاة في مقابل هذا؟ وليت الإنسان وقف عند هذا الحدّ في منع الزكاة، فلقد تعدّى ذلك إلى سلب لقمة الفقير من فمه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١). فهذا الإنسان يُخْرِجُ

نفسه من دائرة المسؤولية فيقول: ما أنا والفقير، إن الله هو الذي أوجده وهو يتولّى معيشتة.

نعم، إن الله أوجده وهياً له الرزق، ولكن أخاه الإنسان لا يسمح لرزقه أن يصل إليه، ويتبع في ذلك شتى الطرق والوسائل، فإما أنه لا يسمح له بفرص العمل المتكافئة، أو أنه يعتدي عليه، أو يجعله ضمن نظام يسلبه، فيحول بينه وبين الوصول إلى الرغيف. وبالتالي فإن هذا الإنسان يتعرض إلى عقاب الله تعالى. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعم يفنى ولذة لا تبقى؟ نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»^(١).

ولكن الإنسان يحرم الإنسان حرماناً لا حدود له بمختلف الوسائل وشتى العلل، فيحرم هذا لأنه يختلف معه في رأي، ويحرم ذاك لأنه من قوم أعداء له، فيخلق المبررات لينتزع اللقمة من فم الجائع، ثم بعد ذلك كله ينتظر أن يرحمه الله. وهذا لا يكون أبداً؛ لأن الله تعالى يقول: «إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»^(٢).

فهذه الحبة إذن يضعها الإنسان في التراب لتعطي هذا الريح الضخم، وفي مقابل ذلك افترضت الشريعة عليه نسبة من الحق يدفع للهيئة الاجتماعية، فصار الإنسان يلتوي في دفع هذا الحق ويخلق المبررات من أجل الامتناع عن أدائه.

(١) نهج البلاغة / الكلام ٢٢٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

الشيء الثالث: الإنسان

فمن الأشياء التي تلج في الأرض أيضاً الإنسان؛ حيث إنه سيدفن فيها بعد خروج روحه إلى بارئها.

شبهة الأكل والمأكول

وهناك نقطة تثار في هذا المجال وهي أن الإنسان عندما يلقى في التراب، ويتحلل إلى عناصره الأولية، ويمتصه النبات، ثم تتوزع ذراته على آكله، فلا يكاد يُعرف منه شيء، فكيف يجمع الله تعالى بعد ذلك هذه الأشتات ويبعثها؟ فيقول تعالى في معرض الإجابة على هذا التساؤل: **إِنَّ اللَّهَ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾** من ذرات هذا الإنسان، ويقول: **﴿لَا يَغْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَضْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** ^(١)، فكل ذرة من ذرات هذا الإنسان تحت علمه تعالى وقدرته.

وإذا تصورنا أن ذلك مشكل بالنسبة لنا فهو غير مشكل عند الله: **﴿كَمَّا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾** ^(٢). ولكن المؤلم في الموضوع هو الحقيقة المرة من كون الإنسان سينتهي إلى التراب، فليس من شيء يهزّ مشاعر الإنسان ويأخذ منه ذلك المأخذ الذي يثقل كاهله كوقوفه على قبر عزيز له قد دسّه في التراب، ثم يعود إليه بعد يومين فيجده أشلاء مقطّعة، ورائحة منتنة، بل غريبة في نبتها، فيتساءل: هل هذه هي نتيجة الإنسان؟ يقول أبو نؤاس:

يا بني النقص والغيز وبني الضعف والخوز
وبني البُعد بالطبا ع على القرب بالصوز

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(١) سبأ: ٣.

أين من كان قبلكم من ذوي البأس والخطر
سبقونا إلى الرّحيب لـ وإنّا لبالأثر
من مضى عبرة لنا وغداً نحن معتبر
فكأنني بكم غداً في ثياب من المدر
قد نُقلتم من القصو ر إلى ظلمة الحفر^(١)

يقول أحد الأدباء: لو سُئلت الدنيا أن تصف نفسها كما وصفتها بأروع مما وصفها به أبو نؤاس حيث قال:

وما الناس إلا هالك وابنُ هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت له عن عدو في ثياب صديق^(٢)

وهذا هو واقع الدنيا. لكن هل من المعقول أن الله تعالى يضع هذا الإنسان في التراب لتكون نهايته هكذا؟ هذا الإنسان المليء بالطاقات.. المخلوق في أحسن تقويم، هل من المعقول أن تكون نهايته عند هذا الحد من مسيرته؟ وهامة هي ميدان معرفة أضحى بها للبلى والدود ميدان لا السامرون ولا الوادي ومن عمروا كأنما الأرض ما كانت ولا كانوا بدء النهاية في يوم البداية للأعمار فالحل بالترحال إيدان أنحن في هذه الدنيا حقائق أم ضرب من الوهم عاشت فيه أذهان فالآية الكريمة إذن تبين لنا أن الله سوف يجمع ذرات الإنسان ويعيده وتهون هذا الأمر، فما نتصوره عظيماً عندنا في ذلك فهو عند الله هين.

المبحث الثاني: تقديم مايلج في الأرض على ما ينزل من السماء
وهنا يتساءل المفسرون عن سبب ذكر الآية لما يلج في الأرض قبل

(٢) ديوان أبي نؤاس: ٤٦٥.

(١) ديوان أبي نؤاس: ٣٤٧.

ذكرها لما ينزل من السماء، ثم يجيبون عن ذلك بأن الحبة تُبذر في التراب أولاً ثم ينزل عليها المطر. أما باقي المعادلات البالغة الدقة، والفعاليات الأخرى التي تجري داخل التربة فيتكفل بها الله تعالى، وأما الإنسان فينتهي دوره ومهمته عند بذر الحبة في الأرض. وهذه المعادلات هي المسؤولة عن هذا التنوع المذهل في أصناف الخضروات والفواكه والثمار، ولولا هذه المعادلات لكان عندنا صنف واحد من النبات.

رجع

فإن الله تعالى يقول للإنسان: لا تحرم أخاك الإنسان من قوته لمجرد أنه يختلف معك في الرأي، ولذلك فإن فقهاءنا عندما يتناولون قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١) يخلصون إلى القول: إن هؤلاء الكفار يجب ألا يُحرَموا من الصدقات وأعمال البر، وكان جملة من الصحابة في المدينة المنورة يوزعون أعمال البر والصدقات والمساعدات على جيرانهم من فقراء اليهود.

فالإسلام ليس فيه تشنّج إزاء الأديان الأخرى بل إنه على العكس من تلك الأديان التي يعتبر تاريخها مروعاً معنا، وإلى الآن يُذبح المسلمون في أكثر من ساحة ذبح الكباش على أيدي هؤلاء، لا لسبب سوى أنهم يحملون اسم الإسلام الخالي أحياناً من مضمون الإسلام. ارجع مثلاً إلى التوراة تجدها تأمر اليهود بالقتل والحرق والنهب^(٢) وقتل الأطفال واغتصاب النساء: «اذبحوهن ودعوا الأبكار للذاتكم فقط».

(٢) انظر العهد القديم، سفر ناحوم / الآية: ٩.

(١) الممتحنة: ٨.

أما نحن فليس في تاريخنا وديننا من الناحية النظرية مثل هذا؛ فالإنسان عندنا أخو الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١). وهذه هي المادة القانونية الدولية، فالإسلام بهذا يعدّ من أول منابع القانون الدولي.

المبحث الثالث: في الأشياء التي تخرج من الأرض

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، فما هي هذه الأشياء التي يمكن أن يُتصوّر أنها تخرج من الأرض؟ هناك عدّة أشياء منها:

الشيء الأول: النبات

فالله تعالى يقول: إن هذا النبات قد هيّأناه لسعادة الإنسان؛ ففي قطعة الأرض الصغيرة التي تخضع لعوامل متشابهة من الجوّ والماء والظروف الموحّدة يحصل الإنسان على أنواع مختلفة من النباتات، وهذا من الأدلّة الجليّة على عظمة وقدرة الخالق. فهو تعالى يلفت نظرنا إلى هذه النبتة الخارجة من الأرض، ويدلّنا على ما أعانها من معادلات أخرجتها إلى الوجود.

الشيء الثاني: المعادن والأحجار

ومما يخرج من الأرض أيضاً أنواع المعادن والأحجار الكريمة. وقد فرض الله تعالى فيها ضريبة للمجتمع أيضاً؛ لأن الإنسان لم يبذل فيها جهداً، فالأرض تعمل والإنسان نائم، كما يقول المذهب التجاري الاقتصادي.

الشيء الثالث: القوارض

ومما يخرج من الأرض أنواع كثيرة من الحيوانات التي نتصوّر نحن أنها

مؤذية، ولكن العلم تنبّه أخيراً إلى أن التوازن البيئي الذي يجب أن يبقى محفوظاً منوطاً بها، فلو قام الإنسان بقتل القوارض مثلاً فإنه سيضرّ بالتوازن البيئي. وهذا التوازن مطلوب حتى في الإنسان، فهناك من الناس من هم أشبه بالقوارض، فيسلط الله عليهم القوارض من الظلمة والسفاكين. وكثيراً ما نشكو من كون صنف من الناس قد سلّط عليهم ظالم، ولكن هؤلاء ربما كانوا ظالمين لأنفسهم أيضاً، فهناك ألوان من الظلم قد لا نشعر بها.

مظاهر ظلم الإنسان أخاه الإنسان

ولو تأملنا الآن في الحضارات التي نعتبرها حضارات متقدمة، كالحضارة الأوروبية مثلاً، لوجدنا أنها تعامل الملونين معاملة خاصة تختلف عن غيرهم، فما هو ذنب هؤلاء الذين خرجوا من بطون أمهاتهم هكذا؟ بل إنهم وصلوا في بعض الميادين إلى أكثر من هذا، فخلعوا الألقاب على طبقة خاصة وسموها «الحيوان الأشقر»، أما الباقون ففي نظرهم أنهم خلقوا مستهلكين، وهم أشبه بالحيوانات التي خلقت للركوب.

فهل تعلم مثلاً أن غاندي هذا الرجل القمّة، يعدّ من طبقة المنبوذين التي تُسمى «طبقة الأنجاس»؟ فالحضارة الهندية - وهي من الحضارات المهمة - تعتبر أن قسماً من الناس مخلوقون من رأس الإله وهم الفلاسفة والمفكّرون، وقسماً منهم مخلوقون من صدره، وقسماً منهم مخلوقون من بطنه، وقسماً منهم مخلوقون من رجله، وقسماً منهم منبوذون أنجاس، وغاندي هذا هو من هؤلاء المنبوذين. فانظر إلى هذا الرجل القمّة الذي أنقذ بلده كيف يُعدّ من المنبوذين، وتأمل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ومن ظلم الإنسان للإنسان ظلم الرجل للمرأة، ففي بعض الحضارات إلى الآن تُحرم المرأة من أبسط الحقوق المشروعة. أما هذه الحضارات التي

تدّعي أنها أعطت المرأة حقوقها ومكانتها، فهي في واقعها حوّلت المرأة إلى كيان ضائع، وإلى سلعة تباع وتشترى. ولو نظرنا بعين الحق لوجدنا أنه ليس هناك من يعطيها مكانة مثل الإسلام؛ لأنه راعى فطرتها، فأعطاهم الأحكام التي تناسبها، ولم يظلمها في شيء.

فمما يخرج من الأرض إذن المعادن والنباتات والحيوانات، وإن رأيت أن الحيوانات يأكل بعضها البعض الآخر فهذا لإحداث التوازن الضروري لاستمرار البيئة.

المبحث الرابع: في الأشياء التي تنزل من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة إلى مقطع آخر فقالت: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وهناك جملة أشياء نزلت من السماء منها:

الشيء الأول: القرآن الكريم

إن أقدس ما نزل من السماء هو القرآن الكريم، وهو الذي يستأثر باهتمام الإنسان المسلم. وقد كتب الله تعالى القرآن في اللوح المحفوظ، ثم بدأ يُنزل علينا آياته آية بعد آية، وسورة بعد سورة، بمقدار الحاجة، إلى أن اكتمل نزوله في ثلاثة وعشرين عاماً، وطلب منا أن نتدبر هذه الآيات ونوظفها لحاجة البشر؛ لأن الله تعالى أنزل القرآن هدىً ورحمة للعالمين، ولم ينزله ليتلاعب به المتلاعبون.

من مظاهر ظلم الإنسان لكتاب الله تعالى

لقد رأيت تعليقاً لأحد العلماء من بعض البلدان الإسلامية - ولا أحب أن أذكر اسمه هنا - على أبيات عمرو بن العاص التي بعثها إلى معاوية، والتي يقول فيها:

وإن كان بينكما نسبةً فأين الحسام من المنجل

وأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي^(١)

فيقول في تعليقه: رحم الله عمرو بن العاص، أدرك خطأ اجتهاده فعذله. فيا للمهزلة! ويا لمصيبة هذا الاجتهاد الذي أصبح يُعطى كيفما يشاء له هؤلاء الوعاظ ولمن يشاؤون! إن الله تعالى وضع لنا أموراً حدية، وأراد صلاح الأرض، فكيف يمكن أن ننعت الفساد بنعت الصلاح؟ فإننا بدلاً من أن نقول: إن عمرو بن العاص كان طامعاً في شيء، فلما أخذ منه هذا الشيء ثار على من أخذه منه، ننعت بالاجتهاد والصلاح!

وكذلك الحال حينما يمر الباحث ببعض كتب تفسير القرآن الكريم فإنه سيدرك حينها مدى الظلم الذي لحق بهذا الكتاب الكريم، وقد ورد في الحديث أن من جملة من يشكو إلى الله يوم القيامة القرآن المهجور^(٢). ونحن قد هجرنا القرآن بعدم وضعه في مساره الصحيح، فعندما نفسره بعيداً عما أريد له فإننا نكون قد هجرناه، وعندما نرى أن معنى الآية لا يخدمنا ولا يسوغ لنا فنجرّها إلى ما يخدمنا فإننا نكون قد هجرناه. فالله تعالى عندما أنزل القرآن من السماء أراد له أن يأخذ مساره الصحيح في المجتمع وبين الناس.

الشيء الثاني: المطر

ومما ينزل من السماء أيضاً المطر، والله تعالى يوجّه كلّ قطرة من المطر إلى مظانّ النفع والضّرّ، ويرسله ضمن موازين دقيقة؛ للري والشرب والزراعة.

(١) لطائف أخبار الدول: ٤١ (الطبعة القديمة)، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٧، قال: رأيتها بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة تشكو إلى الله العزيز الجليل: مسجد خراب لا يصلّي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يُقرأ فيه». عدة الداعي: ٢٧٢.

الشيء الثالث: الرزق

ومما ينزل من السماء تقدير الرزق. وهذه النظرية تستحق الوقوف عندها قليلاً، يقول تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(١)، ونحن نعرف أن رزقنا في الأرض لا في السماء، وكل ما نمارسه من أعمال الزراعة والتجارة والصيد وغيرها مما نحصل به على رزقنا ونأكل منه هو في الأرض، فما دخل السماء بهذا الموضوع؟

إن علاقة السماء بموضوع الرزق تتمحور حول فكرة أن المصادر الأساسية للرزق تأتي من السماء لتلتقي بالأرض، فتشارك الأرض والسماء في إيجاد ما نحتاجه. وإلا فما قيمة الأرض كلها لولا شعاع الشمس؟ وما قيمة النبات لولا شعاع الشمس؟ إن النبات مثلاً يحتاج إلى الكلوروفيل، والكلوروفيل يحتاج إلى أشعة الشمس للبناء الضوئي، وأشعة الشمس تأتي من السماء. وفي الوقت نفسه تطهر الشمس الأرض من بعض الكائنات المضرة، وتعطي الطاقة للتربة، والمطر ينزل من السماء بقدر معلوم.

فالرزق إذن ينزل من السماء لكل نسمة تخلق في الأرض، ولا علاقة لتنظيماتنا المحلية فيما يتعلق بالكثافة السكانية وغيرها بما تخططه السماء؛ لأن السماء خططت لكفاية الناس، ولا يمكن أن يخلق الله تعالى كائناً ما لم يهيئ له طعامه. يروى أن النبي إبراهيم عليه السلام رأى حوتاً ضخماً، فأراد أن يطعمه، فجمع له أقوات البلد كلها، ووضعها على الساحل، فأتى ذلك الحوت ومعه مجموعة من الحيتان فالتهمت ما جمعه عليه، وبقيت تموج باحثة عن المزيد من القوت، فرفع نبي الله إبراهيم عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: «سبحان

مطعم هذه الكائنات».

إن الله تعالى خلق لكل ما في البر والبحر قوته، أما ما يُطرح من سبب للمشاكل الاقتصادية في العالم وهو أنه كثرة الناس وقلة الواردات، فهو غير صحيح؛ لأن الله تعالى خلق كل شيء بقدر، وما في الأرض من موارد تكفي أهلها وزيادة، لكن الذي يحصل هو أن الناس يسطو بعضهم على بعض. رأى أمير المؤمنين عليه السلام يوماً امرأة توقد تحت قدر ليس فيها طعام تريد بذلك أن تشغل أبناءها الجائعين، فجاء بالطعام وأخذ يوقد تحت القدر بنفسه، فكانت النار تطفئ وجهه، فراح يقول: «ويح ابن أبي طالب، ماذا يقول غداً إذا لفحت النار الكبرى وجهه؟».

فالناس كلهم راع وكلهم مسؤول عن رعيته، وإذا استرعى الله عبداً رعية حمّله مسؤولية تلك الرعية^(١)، أمّا إذا مدّ يده وأكل قوت من يرعاه فهل يمكن أن نتصور أن الله سيرحمه؟

لقد كان في تاريخنا نماذج مشرّفة في هذا الباب؛ فقد كان عدي بن حاتم الطائي يخرج من بيته يحمل خبزاً بيده وقد فتّه، فيقال له: إلى أين؟ فيقول: لجيراني من قرى النمل. فيعطي النمل طعامه ويرجع، ولا يتركها جوعاً وكان يقول: هؤلاء جيراني^(٢).

(١) قال رسول الله ﷺ: «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو المسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيّته، وكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته». عوالي اللآلي ١: ١٢٩/٣، مسند أحمد ٥: ٢، ٥٤، ١١١، ١٢١، صحيح البخاري ١: ٢١٥، ٢: ٧٩، وغيرها.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

المبحث الخامس: في الأشياء التي تعرج في السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وهي جملة أشياء منها:

الشيء الأول: العمل الصالح

فأول شيء يعرج في السماء هو العمل الصالح. ولنتأمل في كلمة ﴿فِيهَا﴾ في الآية الكريمة، فمدلولها واضح في أن هذه الأشياء التي تعرج في السماء لا تصل إلى السماء ثم تقف عندها وينتهي الأمر عند هذا الحد، وإنما هي تتغلغل داخلها. فالعمل الصالح يصعد ويتوغل داخل السماء.

الشيء الثاني: الدعاء والكلم الطيب

والدعاء والكلم الطيب يصعدان أيضاً إلى السماء ويتوغلان داخلها، أما الكلم الخبيث فيصل إلى السماء وهو ممزوج بظلامته، فيردّه الله تعالى. مر مروان بن الحكم يوماً بأسامه بن زيد - وكان أسامة يميل إلى السواد، في حين أن أباه زيدا كان شديد البياض، وكان النبي ﷺ يحبّ أسامة^(١)، وكان قد أعطاه اللواء، وأمر المسلمين بإفناذ سريته، فقال: «جهزوا جيش أسامة، اخرجوا مع أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»^(٢) - فرآه يصلي أمام بيت النبي ﷺ فقال له: يا فلان بن فلان (وذكره بألفاظ قبيحة، وشتمه)، قد عرفنا أنك إنما وقفت تصلي هنا ليعرف مكانك. فقال أسامة بعد أن فرغ من الصلاة: إنك فاحش متفحّش، وقد سمعت قول رسول الله ﷺ: «إن الله لا

(١) وقد فرض له عمر في العطاء خمسة آلاف ولائحه عبد الله ألفين، فقال له ابنه: لم فضّلت علي أسامة وقد شهدت ما لم يشهد؟ فقال له: إن أسامة كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك. فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٦١٨.

(٢) الملل والنحل ١: ٢٣.

يحبّ كلّ فاحش مُتفحّش»^(١).

فهو يقول له : أنا لا أردّ عليك ، وسيعاقبك الله على هذا الكلام. فلا شك أن مثل هذا الدعاء من المظلوم يصعد إلى الله والكلام الخبيث لا يصعد إليه .
سئل أمير المؤمنين عليه السلام : كم بين السماء والأرض ؟ فقال : «دعوة مظلوم»^(٢).
فالكلم الطيّب ، والعمل الصالح يصعدان إلى الله تعالى. فهذه كلّها تعرج إلى السماء ، وأهمّها دعاء المظلوم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مرتعه يفضي إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

خصوصاً إذا خرج الدعاء من قلب فيه انقطاع وإخلاص وحرارة، وليس في القلوب من ذلك أكثر مما في قلب الأم على ولدها، فلا يصل إليها في العاطفة الأب ولا غير الأب، ولا يدانيها فيها أحد؛ لأن الولد قد خرج من بين أحشائها : ﴿إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾^(٣).

فإذا أرادت الأم أن تدعو لولدها فإنها تدعوه بكل مشاعرها؛ ولهذا طلب الإمام الحسين عليه السلام من أم علي الأكبر أن تدعوه عندما برز للقتال، فقد قال لها : «برز إليه من يخاف منه عليه، ادعي لولدك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: دعاء الأم مستجاب في حق ولدها».

(١) مسند أحمد ٥: ١٢١، الكرم والجود (البرجلاني): ٤٢، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ٢٣٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٦١٨، وفيها: فحكاه. وهنا يصدق قول رسول الله ﷺ: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله». مسند أحمد ٥: ٤٢٢، المستدرک علی الصحیحین ٤: ٥١٨، المعجم الكبير ٤: ١٥٨، المعجم الأوسط ٩: ١٤٤، فقد وليه فيمن وليه من غير أهله مروان هذا وأمثاله.

(٢) أمالي المرتضى ١: ١٩٦، دستور معالم الحكم: ١١٢، تاريخ يعقوبي ٢: ٢٠٩.

(٣) المجادلة: ٢.

فدخلت إلى الخيمة، فجرّدت خمارها، وصاحت: إلهي بصبر أبي عبد الله، إلهي بغربة أبي عبد الله، يا راد يوسف على يعقوب اردد علي ولدي:

رَدّت الخيمتها الغريبه	تبجي وعلى ابنها بريبه
اتوسلت لله بحبيبه	بالحسين وشما بيه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه	ليعكوب ومسجن نحيبه

أريدك علي سالم تجيبه

ثم رجع علي الأكبر يحمل رأس بكر، فقال له الحسين رضي الله عنه: «بني بادر إلى أمك قبل أن تموت». فأقبل إليها فأخذ رأسها، ونضحها بدموع عينيه، ففتحت عينها واحتضنته وأكبّت عليه، وصاحت: بني علي! وآبت معه إلى خيمتها. وكان للحسين رضي الله عنه موقف لعله لا يقل شجاعة عن هذا الموقف، وذلك حينما حمل الهاشميون علياً الأكبر إلى الخيمة، فجلس رضي الله عنه عند رأسه:

ماء الصبا ودمُ الوريدِ تجاريا	فيه ولاهبُ قلبه لم يخمدِ
أفديه من ريحانةٍ رِيّانةٍ	جفّت بحرٌ ظما وحرٌّ مُهنّدِ
فلتذهب الدنيا على الدنيا العفا	مابعدَ يومك من زمانٍ أرغدِ



من مسائل فقه الأسرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَشْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ
وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ
كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في أقسام الابتلاءات الشرعية

هذا المقطع من الآية الكريمة يدخل في مجال آيات الأحكام، وهذا اللون من الفقه يُعَبَّر عنه بالفقه المتحرّك، وهو يقابل قسماً آخر منه يسمى الفقه الساكن أو الميِّت، وهو الذي لا يُبتلى به إلا في حالات طارئة. وعليه فنحن أمام نوعين من هذه الابتلاءات ونوعين من أنواع الفقه التي تعالج هذه الابتلاءات:

(١) الطلاق: ٦.

النوع الأول : الابتلاءات الطارئة

وذلك من قبيل البئر الذي تقع فيه فأرة، فهنا يتدخل الفقه لبيّن عدد الدلاء التي ينبغي أن تنزح منها، والكيفية التي يتم بها ذلك، ومتى تحصل طهارتها. وهذا من مواضع الابتلاءات السابقة، وقد انتفت الآن بانتفاء موضوعها (سألبه بانتفاء موضوعها)؛ فلم يعد هناك آبار كثيرة مبتلى بها الآن، وأصبحت المسألة نادرة. لكن يبقى هذا اللون من الفقه رصيذاً فقهياً للإنسانية تلجأ إليه في حالات معينة.

النوع الثاني: الابتلاءات المستمرة

ويمكن تقسيم هذا النوع من الابتلاءات إلى قسمين، بلحاظ الزمان الذي يبتلى به المكلف بها:

القسم الأول : الابتلاءات المحددة بزمان ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهية التي تحصل للمكلف كل سنة مرة واحدة، من قبيل أحكام الفطرة في آخر رمضان.

القسم الثاني: الابتلاءات غير المحددة بزمان ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهية التي تصاحب المكلف على امتداد حياته، ويمكن أن يبتلى بها صباح مساء، ومنه فقه الأسرة. فالابتلاءات في الزواج والطلاق، وذيول الطلاق أمور تتكرر كلّ حين في جوّ الأسرة ومحيطها، سيما موضوع الطلاق، وهو ما تبنته الآية الكريمة؛ ولذا فإننا سنتناوله في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: الطلاق وأقسامه وآثاره

إن موضوع الطلاق وإن كان الكثير من الناس يستهين به، لكنه في نظر

الشارع المقدّس من الأمور الخطرة جدّاً؛ فهو عامل كبير في هدم المجتمعات، يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أوصاني جبرئيل ﷺ بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبيّنة»^(١).

ورباط المرأة في جوّ الأسرة هو الذي يسيطر على الحياة، فالمرأة صانعة الأطفال ومريّتهم، وهي التي تحوّل جو البيت إلى جحيم أو إلى نعيم؛ فهي تتحكّم بالأسرة وتربية الأطفال، وإسعاد الزوج وإضفاء لمسات رائعة من الحبّ والحنان على البيت، وما إلى ذلك. فهي ليست طرفاً في تبادل اللذة بينها وبين الزوج فقط، وإنما هي طرف مساهم في بناء المجتمع، وعاطفة وكرامة وأسرة. بلغ النبي ﷺ يوماً أن أبا أيوب ﷺ أراد أن يطلق زوجته أم أيوب، فقال ﷺ له: «يا أبا أيوب، إن طلاق أم أيوب لحوب»^(٢). والحوب: الخطأ واللاثم^(٣).

فالطلاق وإن كان مباحاً لكنّه يشرّع عند الضرورة، وهي فيما إذا تعذّرت العشرة مع الزوجة، وإلاّ فإنّه لا يشرّع لمجرّد أن الرجل مثلاً تعرّضت كرامته للخدش قليلاً، أو أنه سمع من زوجته كلمة نابية. فهنا يتزاحم المهمّ والأهمّ؛ فصحيح أن الرجل يريد الحفاظ على كرامته، لكن ينبغي كذلك أن يحافظ على كرامتها هي، فيخلق جوّاً من التفاهم؛ ليحصل بينهما الاحترام المتبادل، فإن الاحترام المتبادل إن حصل فلن يحدث في البيت شيء من الاختلال.

(١) الكافي ٥: ٥١٢/٦، الفقيه ٣: ٤٤٠/٤٥٢٥.

(٢) الكافي ٦: ٥٥/٥، المعجم الكبير ١٢: ١٥١.

(٣) العين ٣: ٣١٠ - حوب، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٤٣٨ - حوب، لسان العرب ١: ٣٣٨ - حوب.

وما نراه من الاختلال داخل الكثير من الأسر سببه فقدان الاحترام المتبادل خصوصاً في أجوائنا التي تصوّر المرأة على أنها كيان منحط عن كيان الرجل، حتى إن العرب مثلاً كانوا يخرجونها من البيت في حال حدوث الدورة الشهرية عندها، يقول أحد شعرائهم:

إذا المرئي شَبَّ له بَنَاتٌ عَصَبُنْ برأسِهِ ابْنَةٌ وَعَاراً^(١)

فالمرأة عندما تشعر بلون من الاحتقار يحدث عندها شيء من رد الفعل، فتحاول ردّ اعتبارها وإثبات ذاتها، فيتحوّل سلوكها إلى سلوك مضطرب، وكثيراً ما يحصل هذا في مجتمعاتنا. مرّ رسول الله ﷺ برجل فقال: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته يا رسول الله. قال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. ثم تزوّج ثانية، فمرّ به النبي ﷺ فقال: «تزوجت؟». قال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته. قال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. ثم تزوج ثالثة، فمرّ به النبي ﷺ فقال له: «تزوجت؟». فقال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته. فقال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يبغض كلّ ذوّاق من الرجال، وكلّ ذوّاقة من النساء»^(٢).

إن الله مكّننا من أن نستبيح من المرأة ما أحلّ لنا، وأن نرى منها وترى منا ما لا يراه أحد، فيفترض أن يكون التكريم والعواطف متبادلة بينهما. أما

(١) العين ٨: ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ - وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلى

امرئ القيس، ثم قالوا مرئي، فكانهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإبّة: الخزي.

(٢) الكافي ٦: ٥٤ / ١، عوالي اللآلي ٣: ٣٧٢. وقال ﷺ: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة؛

فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات». عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٨٩، المعجم الأوسط

٨: ٢٤، الجامع الصغير ١: ٢٧٩ / ١٨٢٠.

الطلاق فهو أمر يؤثر على النفوس والمشاعر، وإذا وقع فإنه ستكون له عواقب سوداء؛ ولذلك تجد أن الروايات تشدد على ترك الطلاق تشديداً كبيراً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز له العرش»^(١). فالطلاق أمر في غاية الصعوبة، وقد شدد الإسلام على عدمه، وجعل له مقدمات مشددة للابتعاد عنه من قبيل إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها^(٢)، خصوصاً فيما إذا كانت هناك علاقة وثيقة وميثاق غليظ بينهما، وهو الطفل الذي إذا وقع الطلاق حكم عليه بالانحراف والتحول إلى مشروع جريمة. وهناك معالجات كثيرة وضعها الإسلام للإصلاح بدلاً عن الطلاق، كالمفارقة بالمضجع، والإعراض، والتأديب الخفيف^(٣)، فإن لم تنفع هذه الوسائل كلها، وأصبح الطلاق أمراً ضرورياً، فعند ذاك يصبح ممّا لا بدّ منه. فهو أشبه بالعملية الجراحية التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة القصوى.

ذبول الطلاق والمشاكل المترتبة عليه

وهذه الآية الكريمة جاءت لمعالجة أحد ذبول الطلاق، فقالت: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾، فالسكن من الحاجات الأساسية للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش ويتحرك بحرية إلا إذا كان له سكن. وقد ضمن الله تعالى هذه الحاجة في الجنة إشعاراً لنا بأنه من الحاجات

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ - ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النساء: ٣٥.

(٣) قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النساء: ٣٤.

الضرورية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(١)؛ ولذلك فإنه تعالى يقول لموسى عليه السلام: ﴿أَنْ تَبُوءَ أَلَّا يَقُومَ بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾^(٢). فالمسكن يحفظ للإنسان خصوصياته وممتلكاته، ويكف عنه نظر المتطفلين.

وإنما سُمي السكن بذلك؛ لأنه يوفر للإنسان الطمأنينة وسكون النفس؛ ولذا نجد أن الإسلام قد وضع أحكاماً كثيرة للسكن، كعدم الدخول إلى دار إلا بإذن صاحبها^(٣)، وغير ذلك من أحكام الجوار.

المطلقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي

ولما كان السكن بهذه الأهمية، فإن موضوع المرأة المطلقة يحظى بمساحة كبيرة في الفقه الإسلامي، فالمرأة عندما تطلق تخرج من بيت الزوج، ولا بد لها حينئذٍ من سكن تأوي إليه.

أقسام المطلقات

وهذا الموضوع يحدده نوع الطلاق الواقع على المرأة؛ إذ أن لكل نوع من أنواع الطلاق أحكاماً مترتبة عليه، يحددها المشرع الإسلامي المقدس:

(١) طه: ١١٨ - ١١٩، والاستشهاد هنا باللازم؛ فهذا الذي ذكرته الآيتان الكريمتان لا يكون إلا مع وجود السكن، وإلا فإن الإنسان لا يهنأ بذلك كله ما لم يكن له سكن يؤويه، وكذلك فإن الله تعالى لا يمكن أن يوفر للإنسان ذلك قبل توفير السكن.

(٢) يونس: ٨٧.

(٣) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ النور: ٢٧ - ٢٨.

القسم الأول : المطلقة الرجعية

وهي المطلقة التي منحها الشارع المقدس حق السكن والنفقة ما دامت في العدة.

القسم الثاني : المطلقة البائنة

وهي المطلقة التي تبين من زوجها فلا يجوز له الزواج منها ثانية. ويختلف فقهاء المسلمين في أمرها على عدة آراء، وحسب وضعها حال الطلاق من كونها حاملاً مثلاً أم لا:

أولاً: المرأة غير الحامل

وللفقهاء فيها إزاء نفقتها وسكنها ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أن لها حق السكن والنفقة

وهذا أيضاً رأي جماعة من الفقهاء والصحابه، ومنهم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود وجماعة^(١).

الرأي الثاني: أنها لا تستحق السكن والنفقة

وهذا الرأي يتبناه معظم الفقهاء تقريباً^(٢)، ويستدلون بحادثة وقعت لفاطمة بنت قيس المخزومي، وكانت قد دخلت على النبي ﷺ فأخبرته أنها مطلقة بائنة، وقد منع عنها أهل زوجها النفقة والسكن. فأسكنها النبي ﷺ عند ابن أم مكتوم الأعمى، وبقيت حتى انتهت عدتها فزوجه من أسامة بن زيد^(٣)، وكان من الموالي وهي من الأشراف، وغرضه ﷺ من

(١) الأم ٧: ١٦٧، وانظر المجموع شرح المهذب ١٨: ١٦٦.

(٢) انظر: الخلاف ٥: ٦٩ / المسألة: ٢٢، شرائع الإسلام ٣: ٦٠٦؛ واشترط في الصفحة نفسها

أيضاً ذلك بالآ تكون حاملاً. (٣) نصب الرأية ٣: ٥٦٧.

ذلك كسر نطاق العصية^(١).

الرأي الثالث: أنها تستحق السكن دون النفقة

وهناك رأي ثالث يفصل في المسألة؛ فيعطي المطلقة حق السكنى دون حق الكسوة والنفقة^(٢). وهو رأي مبتنٍ على كون السكن أمراً ضرورياً أكثر من النفقة، وأهمّ منها؛ فالنفقة يمكن تجاوزها أما السكنى فلا.

ثانياً: المرأة الحامل

هذا في المرأة غير الحامل، أما في الحامل فتصبح المسؤولية مزدوجة؛ حيث إن الأمر سيتعلّق حينئذٍ بالمرأة والجنين، فلا بدّ لها من السكنى والنفقة معاً؛ لأن الأمر يكون حينها رعاية لها ولجنينها الذي هو نواة الإنسان، والذي يعيد الثقة بالإنسانية كلها. وكان النبي ﷺ إذا أتى بطفل حديث الولادة يقول: «هذا حديث عهد برّبّه». فالطفل يمثل براءة الإنسانية، وهو صفحة بيضاء طاهرة. يقول تعالى: ﴿الْقَالُ وَالْبَنُوتُ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾^(٣).

فهذا الطفل الذي سيقع ضحيّة الطلاق لا يعلم إلاّ الله تعالى ماذا سيكون شأنه في المستقبل إذا كبر؛ فهل سيكون صالحاً، أم أنه ستتلاقفه مافيات المخدّرات والانحراف؟ الله تعالى أعلم. فهناك مسؤولية كبيرة تقع على عاتق الآباء والمدرسة في حفظ الجيل الجديد من الأبناء.

وهكذا فإن المرأة إن كانت ذات حمل، فإن القرآن الكريم يضع أمامنا

(١) فإسكان الرسول ﷺ لها دليلٌ عدم وجوبه على الزوج.

(٢) مواهب الجليل ٥: ٢٧٠، المحلّى ١٠: ٢٨٥، وحكم به في البحر الرائق ٤: ٢٥٨ على النصراني إذا طلق النصرانيّة، وكذلك حكم به ابن عابدين في (تنوير الأبصار) فيما نصّ عليها، وأيده الشارح، انظر الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣: ٤٩٦.

(٣) الكهف: ٤٦.

الحل لمشكلتها، فيقول: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لأنها إذا وضعت الحمل انتهت عدتها، والصبي بعد الولادة ينفق عليه من ماله إن كان له مال، وإلا فينفق عليه من مال أبيه الموسر.

والآية الكريمة لم تترك المسألة دون تفصيل، فهي تقول: ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾، أي بحسب حالكم؛ فإن كان الأب موسراً، فعليه أن يوفر لها ما يناسب يساره^(١)، وإلا فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢). دخل يوماً عقيل بن ربيعة على معاوية فقال له: أريد أن تعينني على بناء داري باثني عشر ألف جذع. فقال معاوية: وأين دارك؟ قال: في البصرة. قال: ما سعتها؟ قال: مئة وعشرون ألف ذراع في مئة وعشرين ألف ذراع. فقال له معاوية: هل بنيت دارك في البصرة، أم بنيت البصرة في دارك؟^(٣)

ومعاوية هذا الذي يُشكل على عقيل بن ربيعة في هذه الدار بنى داراً تدعى الخضراء كلّفت بيت المال حمل ثمانية عشر بغيراً من الذهب والفضة^(٤).

(١) المدونة الكبرى ٣: ١١٩. (٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٢٤٦، وفيه: أكثر من فرسخين في فرسخين. والفرسخ: ثلاثة أميال، العين ٤: ٣٣٢-فرسخ، أو هو مقدار خمس وعشرين غلوة سهم، العين ٤: ٤٤٦- غلو.

(٤) قال ابن عساكر: لما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شري الخضراء بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن؛ فاختر من فلسطين عمواس، ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي.

وقال: بنى معاوية الخضراء بدمشق وهي دار الإمارة بالطوب، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها فقال له معاوية: كيف ترى هذا البنيان؟ قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله للفلأر. قال: فنقضها معاوية وبنّاها بالحجارة. تاريخ مدينة دمشق ٢:

ولكن لم تستطع هذه الدار بما حشد لها من وسائل الترفيه والعظمة أن تحقق له لحظة من لحظات الخلود والعظمة. أما الكوخ الذي سكن فيه علي عليه السلام - وكان إذا قام ضرب سقف الكوخ برأسه - فقد حقق له عليه السلام خلوداً لا يضاهيه خلود، يقول أحد الأدباء :

إِنَّ كَوْخاً أَضْلَعُهُ مِنْ جَرِيدِ الذِّ	خَلٍ وَالسَّقْفُ وَالْفِرَاشُ حَصِيرُ
سَجَدَ النَّجْمُ عِنْدَ رَمْلَتِهِ السَّم	رَاءِ وَاسْتَوْهَبَتْ غُلَاهُ الْعَصُورُ
مُنْذُ أَلْفٍ وَنِصْفِ مَرَّتٍ وَلَيْلَا	نَ وَأَطْيَافُهُ الشُّذَيِّ وَالنُّورُ
عَامِرٌ بِالْأَنْغَامِ مِنْ نَغَمِ الْقُر	آنِ يَسْتَلُوهُ زَاهِبٌ مَسْحُورُ
وَسَيَبْقَى بِكُلِّ حَبَّةٍ رَمَلٍ	مِنْ بَقَايَا أَبِي ثَرَابٍ عَبِيرُ

نعم كان ذلك الكوخ الذي يضم علياً عليه السلام قناة متصلة بالله آناء الليل وأطراف النهار، فإذا جن عليه الليل رmq السماء بطرفه وقال: «يا من قصده الضالون فأصابوه مُرْشِداً، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه مَوْثِلاً، وَلَجَأُ إِلَيْهِ الْعَائِذُونَ فَرَأَوْهُ مَعْقِلاً، مَتَى يَسْتَرِيحُ مَنْ نَصَبَ لِغَيْرِكَ نَفْسَهُ. أُولِجَ قَلْبِي بِمِيدَانِ الْمُطِيعِينَ لَكَ، وَضَمَّنُهُ فَرَحَ الْإِقْبَالِ عَلَيْكَ»^(١).

هذا الصوت الذي في كل نبرة من نبراته خشوع ضارع بين يدي ربّه قد خلّده الله تعالى مع الدهر. فالبيت مهما كان واسعاً وضخماً إذا لم تُعمر جنباته بما يرضي الله فلا معنى له.

وهذا المعنى في سعة الدار قد يتعدّى حاله من الدنيا إلى الآخرة، فمن العجيب أن بعض الروايات تقول: «يعطى المؤمن يوم القيامة مئة وسبعين ألف

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

دار في كل دار مئة وسبعين ألف قصر، في كل قصر مئة وسبعين ألف غرفة»^(١) إلى آخره. وكل هذا لا معنى له، فالنبي ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢). فالعبرة برضوان الله في الجنة لا في نوع وحجم البيوت والقصور، وعلى الإنسان أن يضع أمامه صورة واحدة فقط من الجنة هي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٣)، أما هذه التفاصيل التي يرويها «أبو فلان» فلا داعي للخوض فيها.

مفهوم الإسراف

فالدار قد تكون بهذا اللون من البذخ والكبر الذي يصفه هذا القادم على معاوية، وهي بهذا تخرج إلى حد الإسراف المحرم. والإسراف ليس له حد معين، فهو مسألة يحددها العرف ويتحكم بها حس الجماعة؛ فما قال عنه المجتمع: إنه إسراف، فهو إسراف. فهناك حالتان تراعى فيهما هذه المسألة، وهما اللتان تحدّدان ما إذا كان الأمر إسرافاً أم لا، فلو كان الناس مكتفين فلا مانع من اقتناء الدار الفارهة، أما إذا كان الناس في عوز وضيق، ويوجد هناك من يتخذ الدار الفارهة فهذا هو الإسراف بعينه.

فالأية الكريمة أول ما أمرت به هو السكنى؛ لأن الإنسان لا بدّ له منه، وهو قبل الطعام والشراب واللباس.

(١) مصباح المتجّد: ٢٥٣، ميزان الاعتدال ٣: ٥٦٦ / ٧٦٠٥، وقد وهّنه، الدر المنثور ٣: ٢٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ - ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

(٣) فصلت: ٣١، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف: ٧١.

المبحث الثاني: المضارة من وجهة نظر الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، فإن البعض إذا أراد الانفصال عن زوجته تحوّل الحب عنده إلى بغضاء، فيقول: إن الإسلام فرض عليّ أن أوفرّ لها السكن، فلاعذبها بهذا السكن بأن أعطيها بيتاً ضيقاً غير مريح، وأضيق عليها. وهذا لا يصح ولا يجوز، والتضييق عليها لؤم، فلا بدّ أن يكون البيت إلى حدّ ما مريحاً.

جهات التضييق

والتضييق عادة يكون من جهتين:

الأولى: التضييق بالتنكّر للعلاقة العاطفية القائمة بينهما.

الثانية: التنكّر للبنوة. فهذه المطلقة أم، ولديها أطفال - والأمومة جديرة بأن تكرم، وقد وضع الله تعالى الجنة تحت أقدامها^(١) - فيترك الرجل أبناءه دون رعاية أو اهتمام أو متابعة تربوية، ودون أن ينفق عليهم. ومع الأسف الشديد نجد في تاريخنا ما يبعث على الأسى عندما يتناول هذا الجانب الحساس في حياة الإنسان، فقد وجدت لأحد المفسّرين رأياً يقول فيه: الأنتى أخس الموجودات في الدنيا. وهذا غريب جداً عن روح الإسلام، فكيف يجعل الله تعالى الجنة تحت أقدامها، وهي أخس الموجودات؟ ثم ما الدليل على هذا الكلام؟

المبحث الثالث: طلاق الحامل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى

(١) مرّ مخرّجاً في كثير من المواضع من كتابنا هذا.

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴿١﴾، والرضاعة بالنسبة للطفل أمر مهم جداً وضروري، وللأسف الشديد إن مجتمعاتنا جعلت الطفل يعيش بعيداً عن ثدي أمه، ولم تعطِ الطفل حقّه الطبيعي من الرضاع. فالرضاع حقّ طبيعي من حقوق الطفل، والأم التي لا ترضع طفلها تكون قد اعتدت على الإنسانية. فلا يمكن للطفل أن يحصل على الغذاء الكريم الخالي من الشوائب إلا من ثدي الأم.

والطفل لا يأخذ من ثدي أمه اللبن فقط، وإنما يأخذ معه الحنان والعطف، فهذا الطفل الذي يرتضع تجده غارزاً أصابعه في ثدي الأم، فيشعر بلذّة لا حدود لها؛ ولذا فإن فقهاءنا يقولون: إن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو الرضاع المباشر من الثدي، لا أن يؤخذ اللبن من ثدي الأم ويعطى إلى الطفل، فهذا الرضاع لا ينشر الحرمة^(١). فالطفل إذن إنما يرتضع الحنان والمودة من الثدي، ويشعر أثناءها بسعادة لا حدود لها.

وهناك رأي للإمام مالك يرى فيه أن المرأة إذا كان من شأنها أن ترضع فهي تُجبر على إرضاع الولد^(٢)، أما باقي الفقهاء فيقولون: إنها تُخَيَّر. ورأي مالك جدير بالاحترام؛ لأنه ناظر إلى ما يأخذه الطفل من الحنان، يقول أحد الأدباء:

أُمِّي لِحَبْرِكِ عِنْدِي أَلْفُ سَابِغَةٍ هِيَهَاتَ يَغْرِبُ مَعْنَاهَا وَيَنْدَثِرُ
غَدَاةٌ يَجْمَعُنِي زَنْدٌ وَيُلْحِقُنِي صَدْرٌ وَبَيْنَهُمَا أَطْوَى وَأَنْتَشِرُ

(١) الخلاف ٥: ١٠١ / المسألة: ٨ - ١٠.

(٢) عنه في جواهر العقود ٢: ١٧٤، وانظر: المجموع شرح المهدّب ٨: ٣١٣، فتح الباري ٩: ٤١٧.

النَّجْمُ مَلٌّ وَمَا مَلَّتْ شِفَاهُكَ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاوِيلِ حَتَّى يَطْلُعَ السَّحَرُ
أُمِّي إِذَا كَانَتْ الْجَنَائْتُ مَصْدَرَهَا مِنْ تَحْتِ رِجْلَيْكَ فِيمَا يَذْكُرُ الْخَبَرُ
فَمَا بِصَدْرِكَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ يَظَلُّ أَكْبَرَ مِمَّا تَحْدُثُ الْفِكْرُ^(١)

ولكن الرضاع المذكور في الآية هو ما يكون في دور الرضاعة أي في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، قال تعالى: ﴿وَحَفْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢). فالرضاع أقله واحد وعشرون شهراً، وأكثره أربعة وعشرون شهراً. فإن أرضعته أكثر من ذلك فلا بأس، لكنه حينئذ لا ينشر الحرمة؛ إذ أن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو ما كان خلال السنتين الأوليين فقط.

ومن الغريب أن تجد آراء لبعض فقهاء المسلمين في رضاع الكبير، فلو أن شاباً عمره عشرون سنة يرتضع من امرأة فقد انتشرت الحرمة بينه وبين تلك المرأة. ولذلك يروون أن عائشة كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحببت عائشة أن يراها ويدخل عليها^(٣).

وأحب أن أقول: إن هذا الرأي لو كان عندنا لانتقلت السماوات علينا، فهل نحن الذين نسيء إلى زوجات النبي ﷺ مع أننا لا نعترف بهذا الذي يروى من رضاع الكبير؟

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦. (٢) الأحقاف: ١٥.

(٣) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهدب ١٨: ٢١٢. والأغرب من هذا أن ابن الزبير وابن عمر، وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وربيع بن أبي عبد الرحمن أستاذ مالك وحماد ابن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة والأصم وابن عليّة أستاذاه وداود الظاهري ذهبوا إلى أن لبن الفحل لا ينشر الحرمة، ولا يكون من الرضاع أب ولا عم ولا عمّة ولا جدّ أبو أب ولا أخ لأب، وأن لهذا الفحل أن يتزوج التي أرضعته زوجته. انظر: المحلى ١٠: ٣ - ٦، بداية المجتهد ٢: ٣١، المجموع شرح المهدب ٢: ٣٨.

ويروون مثلاً أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا كنا نرى سالماً ولداً فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها^(١).

وهذه ثغرة خطيرة لا ينبغي أن تكون في تاريخنا وصحاحنا. إضافة إلى ذلك فإن هذا الحديث مخدوش من حيث السند والدلالة، ومعارض بغيره، ولا يمكن الأخذ به.

إذن الرضاع مهم جداً للطفل، وهو حقّه الطبيعي، وفي الوقت نفسه هو سعادة للمرأة، فهي تغرس العطف والمودة عن طريقه في نفس الطفل. وهناك ما يلفت النظر في القرآن الكريم، وله علاقة بموضوعنا، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾^(٢)، والمرضعة في اللغة^(٣) هي المباشرة للرضاعة، فلا يقال للمرأة: مرضعة إلا وهي في حال الإرضاع. أما المرضع فهي التي من شأنها الإرضاع، أي من كان في ثديها لبن وتستطيع الإرضاع.

وكان العرب يقولون في أمثالهم: تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها^(٤). أي أنها لا تستأجر نفسها للإرضاع وإن مسّها الجوع والحاجة؛ فاللبن لا يقدر بثمن. وكان العرب يأنفون من بيعه ويعتبرونه عاراً، أما أن تتطوّع المرأة للإرضاع دون أجر، أو أن يكرمها الأب بشيء من المال فلا يرون به بأساً.

(١) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهدّب ١٨: ٢١٢.

(٢) الحجّ: ٢. (٣) مختار الصحاح: ١٣٤ - رضع.

(٤) بلاغات النساء: ٩٦.

فالآية الكريمة بدأت بالسكن، وليس الغرض من السكن أن يحمي الإنسان من الحرّ والبرد، وإنما هو ما ينمو مع جدران البيت من الذكريات والمشاعر والعطف والود؛ فهنا مكان لعب الطفل، وهناك مكان جلوس الزوج، وهنا ذكريات وهناك ذكريات؛ فيأخذ هذا البيت من مشاعر المرأة ما لا يمكن معه أن تتخلّى عنه وتتركه؛ إذ أنه ليس أمراً سهلاً، فهي إذا تخلّت عنه فإنما تتخلّى عن ذكرياتها وعواطفها ومشاعرها وأحاسيسها.

تقول «سماريو» - وهي من عالمات النفس البارزات - : إن العلاقة بين الأم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثية، فالطفل يرتضع لبن الأم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس على لبنها وعلاقتها ودفتها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً على ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً.

ولذا فإن الخروج من البيت ليس سهلاً عند المرأة؛ إذ أن لها فيه مشاعر وعواطف وذكريات، ولهذا يقف العرب على الأطلال وآثار الديار ليستعيدوا عندها ذكرياتهم، يقول الشريف الرضي :

وطلولها بيد البلى نهب	ولقد مررت على ربوعهم
نضوي ولجّ بعذلي الركب	فبكيت حتى ضجّ من لعب
عني الطلول نلقت القلب ^(١)	وتلفتت عيني فمدّ خفيت

ومن هنا فإن عائلة الحسين عليه السلام كانت لها مواقف عجيبة مع داره عليه السلام في

(١) ديوان الشريف الرضي ١ : ١٨١ .

المدينة خصوصاً من زينب عليها السلام والرباب حينما رجعتا إليها. يقول المؤرخون:
أرسلت الرباب إلى البنّاء وقالت له: اقلع سقف البيت، فوالله لا يظلّني سقف
بيت بعد أبي عبد الله عليه السلام ^(١). وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

إِنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ بِكَرْبَلَاءَ قَتِيلٌ غَيْرَ مَدْفُونٍ
سَبَطَ النَّبِيُّ جَزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً عَنَا وَجُنُبَتْ خُسْرَانُ الْمَوَازِينِ
وَاللَّهِ لَا أَبْتَغِي صِهْرًا لِيَصِيرَ كُمْ حَتَّى أُغَيَّبَ بَيْنَ الرُّمْلِ وَالطُّيْنِ ^(٢)
أما زينب عليها السلام فكانت تجول وسط الدار:

وحشه الدار يبن امي بعد ما ظل لي بيها احباب
من اطب الداركم يجري على عتبتها الدمع سجاب
ألم ايتامكم بيها واراملكم واسد الباب



(٢) أعلام النساء ١: ٣٧٨.

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤١٤.

﴿ ١٢٣ ﴾

الدعاء إلى الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ
مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب نزول الآية الكريمة

إن سبب نزول هذه الآية يلقي الضوء على مضمونها؛ لأن سبب النزول غالباً يحدّد الهدف الذي من أجله تنزل كلّ آية، فكأن الأمر أنه حينما بعث النبي ﷺ التفّ حوله في البداية أبناء الطبقة الفقيرة، وهؤلاء كانوا يؤلّفون مجموعة كبيرة في مكّة، فكان النبي ﷺ إذا جاء للمسجد ليقرأ القرآن الكريم للمؤمنين أو ليشرح لهم معانيه، فإنهم يلتفّون حوله. وقد مرّ به في يوم من الأيام بعض جبابرة قريش - وهؤلاء لم يأتوا طوعاً، وإنما جاءت بهم

(١) الأنعام: ٥٢.

العظمة المودعة في القرآن؛ حيث إنهم قد وصل إليهم أن القرآن يسحر لبلاغته ومنطقه - فأرادوا أن يسمعوا هذا القرآن الذي غزاهم في بيوتهم وأخذ يهددهم ويهدد عقائدهم.

وفي هذا ردّ على بعض من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف. فنقول لهم: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بالدرجة الأولى بما يحمل من مبادئ ومضامين، فأقبل الناس عليه؛ حيث إنه يحمل مضامين العدل والشفقة واحترام الإنسان، هذه المضامين التي تحوّل حياة الإنسان إلى نعيم. وقد كان مجتمع قريش مجتمعاً قائماً على الابتزاز والغطرسة، ولم يكن للإنسان فيه كرامة، وكان يعتدي على كرامة المرأة. وباختصار إنه كان مجتمعاً تعيث به النواقص وتعبث.

فذهب هؤلاء إلى النبي ﷺ؛ ليعرفوا ماهو القرآن، وكان حوله هذه المجموعة من الفقراء، منهم خباب بن الأرتّ وبلال الحبشي وأبو ذرّ الغفاري، فقالوا له: يا محمد نحن نريد أن نستمع إلى قرآنك، ولكن الذي يمنعنا هو أننا لا نملك استعداداً لأن نجلس مع هؤلاء؛ لأنهم لم يأتوا عن مبدأ ولم يأتوا لسماع القرآن، وإنما سمعوا بقوّتك فأرادوا أن يحصلوا على طعام ولباس، فوضعهم مزرٍ؛ حيث إن رائحتهم كريهة وملابسهم عاديّة وليسوا من بيوت معروفة، فلا يناسبنا أن نجلس معهم. فاطردهم حتى نستطيع أن نجلس معك ونستمع إلى قرآنك^(١).

فقال بعض أصحاب النبي ﷺ له: يا رسول الله اطرده هؤلاء مؤقتاً؛

(١) تفسير جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

لينصت هؤلاء إلينا؛ فهم ذوو سلطة ونفوذ، ونحن نحتاج إليهم. فنزلت هذه الآية تأمره بالآلا يطرد هؤلاء، وأن يبلغهم بأن من يريد أن يأتي فليأت.

المبحث الثاني: بعض أهداف ومضامين سبب النزول

وهذا السبب يلقي الضوء على مضمون هذه الآية الكريمة في عدة أهداف سنتناول بعضها على شكل نقاط إن شاء الله تعالى.

الهدف الأول: أن كرامة الإنسان فوق كل شيء

فالذي يتبين لنا هنا أن هذا السبب يعتبر كرامة الإنسان أهم من كل شيء، وفوق كل شيء، وأن منزلة الإنسان لا تتحدد بشيابه ولا برصيده المالي ولا بأسرته التي ينتمي إليها، بل الذي يحدد منزلته هو ما يملك من مواهب ذاتية. فهذه الأحوال لم تخرج معه من بطن أمه، وسوف لن يأخذها معه إلى مرقده الأخير، فله بطن تحمله وهي بطن الأم، ثم له بطن يدفن فيها هي بطن الأرض. ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ولقد مررت ببرزخ فسألته أين الألى ضمّتهم أرجاؤه
مثل المطيّ بواركأ أجدائه تسفي على جنباتها بوغاؤه
أكلتهم الأرض التي ولدتهم أكل الظليم حلت له أكلأؤه^(١)

فالأرض التي تلد الإنسان ستضمّه، والشئ الذاتي الذي يولد معه ويكون ذا قيمة وأهميّة هو المزايا. ثم إن هناك مزايا للجسد ومزايا للروح، فمزايا الجسد تتلاشى، حيث إن التراب والرمال ستعيب بها بعد ذلك، ولا يبقى مع الإنسان سوى الأخلاق والعلم والفكر، وكل هذه المزايا لها علاقة بالروح.

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١١٠.

فالأية الكريمة تنبّه المسلمين إلى أن الأهداف مهما كانت ضخمة، والمكاسب مهما كانت كبيرة فالواجب ألا يطرد هؤلاء من أجل أن يجلس عتبة أو أبو جهل وغيرهما. فهؤلاء وهؤلاء على حدّ سواء؛ فيجب الاحتفاظ بكرامة الإنسان.

فهذا أول هدف للآية، وهو: لا تفتح ثغرة فتترك جرحاً في نفوس هؤلاء؛ حيث إنك ستزرع الشعور بالنقص عندهم بهذا التصرف، وهذا ما لا تقرّه المبادئ الإسلامية.

الهدف الثاني: أن الداعي للإسلام هو الاتجاه إلى الله

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يكشف عن أن الداعي للإسلام هو دافع شريف ونبييل، وهو دافع الاتجاه إلى الله تعالى؛ حيث إنهم يدعون ربهم ليكلّلهم بالرحمة والرضوان، أمّا الحاجة الأخرى التي أراها هؤلاء فإنها ستتلاشى، في حين أن الحاجة إلى الله تعالى ستخلّدهم بدعائهم ربّهم. فكلّ الوسائل تتلاشى إلا الوسيلة إلى الله. وهاهو الشاعر الجاهلي يذكر معنى هو من أروع المفاهيم، وذلك حينما يقول:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ^(١)

فالواجب أن يُتوجّه إلى الله تعالى، والآية تخبرنا عن أن هؤلاء قد وهبوا نفوسهم إلى الله تعالى، وأن الله سيهبهم الخلود. وهذا ما حصل فعلاً، فالصحابة في الصدر الأول كانوا مشاعل مضيئة في تاريخ الإسلام؛ حيث استطاع أربعة فقراء أو خمسة أن يقهروا جبابرة قريش، وقد صنعوا التاريخ

(١) صدر بيت للبيد بن ربيعة، وتماه: وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ. انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٤١: ٤، ٣١٥: ٨، ٣٣٦: ١، مغني اللبيب ١: ١٣٣ / ٢٠٥، ١٩٦ / ٣٢١.

والحضارة، فقد استطاع رجل عظيم كالرسول ﷺ أن يخلق مجتمعا صالحا في قلب الجزيرة العربية يحمل مشعلا من الفكر والمعرفة والخلق. والعلم بدون خلق لا يساوي شيئا وإنما يتحوّل إلى أداة ابتزاز كما هو حاصل عند بعض الشعوب. ثم إن الخلق يلعب دوره بكل شفافية في توجيه العلم لخدمة الإنسانية، والإسلام أول ما عني بالخلق، ولذا نجد تعبير النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١). والآن نجد أن العلم تحتكره بعض الطبقات التي تعتبر نفسها قمة في العالم، لكن هل إن هؤلاء يسخرون هذا العلم لخدمة الشعوب المسحوقة الفقيرة؟ بالطبع أن الحال على العكس من هذا، فالذي يحصل هو استغلال هذه الشعوب، فهم يبنون قصورهم وأبراجهم من رغيف هذه الشعوب المقهورة.

فهل هذا هو الذي يسمو بالإنسانية؟ كلا إن الذي يسمو بالإنسانية هو الخلق العالي الكريم الذي يجبر صاحب العلم على أن يضع علمه لخدمة المجتمع، فالإنسان ثمرة الوجود. والآية الكريمة تقول: إن هؤلاء يدعون ربهم، وليس عندهم أي هدف من الأهداف الرخيصة.

الهدف الثالث: أن الإسلام هو الظاهر

وكذلك نفهم من هذا المقطع أن الآية الكريمة تقول للرسول ﷺ: اسأل هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوا الفقراء عن مجلسك، هل دخلوا في قلوبهم؟ إن أي أحد حينما يتشهد بالشهادتين، فليس من حق أي كان أن يقول له: أنت غير مسلم؛ ذلك أن الذي يحدّد هوية المسلم هو الشهادتان: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم

(١) بحار الأنوار ١٦: ٢١٠، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٤.

وأموالهم إلى يوم يلقون ربهم فيحاسبهم»^(١). وفقهاء المسلمين يقولون: إذا أنكر شخص ضرورة من ضرورات الدين ولم يعرف أنها ضرورة فإنه هنا لا يُعتبر كافراً؛ لأنهم اشترطوا العلم بالضرورة أولاً، فالجاهل لا يحمل على أنه غير مسلم.

فينبغي إذن أن نملك الدليل كي نقوم بتحديد هوية الإنسان، ومن ثم نحكم عليه. وهذا هو مراد الآية الكريمة، فهي تبين له ﷺ عدة أمور منها:
أولاً: أن هؤلاء الفقراء يريدون وجه الله فعلاً.

ثانياً: من أين جاء العلم لهؤلاء الجبابرة بأن فقراء المسلمين جاؤوا للإسلام لا لرغبة عندهم فيه، وأنهم يقصدون غير الله تعالى؟ وما هو دليلهم؟

إيمان أبي طالب ﷺ أمر لا يقبل النقاش

وهكذا فإن البعض يحلو له أن يتّهم من يشهد بشهادتي الإسلام بأنه مات كافراً مع أنه كان يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في الثراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك مخافة	وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ولقد علمت بأن دين محمد	من خير أديان البرية ديناً ^(٢)

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٢، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٠ / ٢٨٠، مسند أحمد ١: ١١، ١٩، ٣٥، ٤٨، وغيرها.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبية ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٣: ٤٢.

ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:	لما مُثِّلَ الدّين شخصاً فقاما
ولولا أبو طالبٍ وابنه	وهذا بيثرب جسّ الحماما
فذاك بمكة آوى وحامى	ولله ذا للمعالي ختاماً
فلله ذا فاتحاً للهدى	

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

ويقول:

ألم تعلموا إنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطُّ في أول الكتب^(١)
ونسلمه يقول:

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعنْ دونه ونناضل^(٢)
ونسلمه يقول:

نبي أتاه الوحي من عند ربِّه ومن قال لا، يقرغ بها سنٌّ نادم^(٣)
فهذه شهادات بالإسلام من قبل أبي طالب عليه السلام ذكرها التاريخ، لكن الدوافع
تجعل البعض يقولون عنه بأنه مات كافراً، في حين أننا نجد غيره يقول:
تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب
ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك^(٤). ومع

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبوية ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨،
المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٢) من قصيدته عليه السلام التي يقول في مطلعها:

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمة للأرامل

انظر: سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكة ٢: ٣٧٥، السيرة النبوية ٢: ١١١، ٢١٧، ٣:
٢٩٢، ٥: ٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوة ١: ١٧٢،
دلائل النبوة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٦٨، الاكتفاء
(الكلاعي) ١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٢: ٥٦، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تاريخ مدينة
دمشق ٨٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، باختلاف في رواية البيت.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣، مناقب أهل البيت (الشيرواني): ٥٨. وله عليه السلام من قصيدة:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

تاريخ يعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد
المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ - ٥٤.

هذا فإنهم يقولون عنه : إنه مسلم ، بل ومن خيرة المسلمين^(١).
إننا عندما نريد أن نوجه أبناءنا بالعلم فيجب أن يكون التوجيه منسجماً
مع المقاييس ومع الواقع ، فليس عندنا عبادة أشخاص ، وإنما نحن مع الدليل.
فيجب أن يكون المقياس واحداً وعلى علم به ، لا على جهل وعصبية.

المبحث الثالث: وجه اختيار الغداة والعشي

ثم قالت الآية الكريمة : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ، أي يصلّون صلاة
الصبح ، والمغرب. لقد كان العرب يقيسون السعادة بأول النهار وأول الليل ،
فالذي يكون سعيداً أول النهار فإن السعادة تمشي معه ، وكذلك إذا كان سعيداً
أول الليل فإن السعادة تمشي معه. ولذلك فإن القرآن الكريم يقول : ﴿لَهُمْ
رِزْقُهُمْ فِيهَا بُخْرَةٌ وَعَشِيًّا﴾^(٢) ، فالآية هنا جرت على عادتهم في التعبير؛ فإنهم
ينقطعون إلى الله في النهار والليل.

المبحث الرابع: في أن الحساب لله وحده

ثم قالت : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ،
وهذا المقطع خطاب للنبي الأكرم ﷺ ، وفيه للمفسرين معنيان :

المعنى الأول: أنك لست مسؤولاً عن رزقهم

وهذا الرأي يميل إليه بعض المفسرين ، فالآية الكريمة هنا تبين للنبي
الأكرم ﷺ أنه ليس مسؤولاً عن رزقهم ، بل إنهم هم المسؤولون عن رزقهم.
وكذلك هم ليسوا مسؤولين عن رزقك.

(١) وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء

(٢) مريم : ٦٢.

الخامس .

ومثل هذا الكلام لا يرتضيه؛ لأن النبي ﷺ يمثل شخص رئيس الدولة ديناً ودنياً، وهذا ما يحصل بالفعل، فعندنا قانون يسمى قانون التكافل الاجتماعي الذي ينيط برئيس الدولة مسؤولية تهيئة الحاجات للمجتمع الإسلامي وما ينهض به قدر استعداده وضمن موارده المتاحة. ولذلك فإن النبي ﷺ كان بكل وسيلة يهيئ الطعام لأُمَّته، بل إنه أحياناً لا يذوق الرغيف وإنما يوزّعه على المسلمين. في يوم من الأيام أمسكه بدوي من رداءه وسحبه، فأثر الرداء برقبته ﷺ حيث إنه كان فظاً غليظاً، ثم قال له: اعدل يا محمد، فليس المال لك ولا لأبيك. فوضع عمر يده على سيفه وقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه؛ إنه غير مؤدّب. فقال النبي ﷺ: «على رسلك». ثم التفت إلى البدوي وقال له: «بلى إذا لم أعدل فمن الذي يعدل، والله لو كان لي جبلان من ذهب وفضة لفَرَقْتُهُما عليكم ولا ترونني بخيلاً»^(١).

وبالفعل أعطاه جميع ما دخل إليه، ثم سأله: «هل عدلت الآن؟». قال: أما الآن فنع^(٢). وقام ﷺ ينفذ يديه.

تقول إحدى زوجاته ﷺ: يمر علينا أحياناً أربعون يوماً لا نأكل إلا الأسودين (أي التمر والماء).

نعم هكذا كان الرسول ﷺ، وهذا هو قانون التكافل في محيط الدولة وفي محيط المجتمع وفي محيط الأسرة، وهي قوانين ثلاثة يحرص الإسلام على تنفيذها. ولذا فالذي ينبغي على المسلمين أن يهيئوا للرسول ﷺ

(١) لم نعثر على حديث الرسول ﷺ هذا ضمن هذه الحادثة، وقد مرّ بيانه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) من هذا المجلد، وأنظر: بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجه ١: ٦١، كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩.

(٢) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

ما يمضي إراداته بما هو أعم من الجانب المادّي أو المعنوي.

فهذا المعنى (أن الرسول الأكرم ﷺ ليس مسؤولاً عن أمته) غير مقبول، وقد رأينا العقبات التي وضعت في طريق النبي ﷺ؛ حيث أراد أن يطوع أمثال هؤلاء للعمل بعد أن كانوا يعدون الزراعة والتجارة أمراً معيباً وإن كان الأمر قد تطور بعد ذلك، وقننوا رحلتي الشتاء والصيف. ومعلوم أن النبي ﷺ قد اشتغل بها بأموال خديجة رضي الله عنها، حيث خرج مع عمّه أبي طالب ﷺ للتجارة. ثم رام ﷺ أن يرقى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فطوّعهم للعمل تطويعاً رائعاً وقال: «من سقى طلحة أو شجرة فكأنما أحيا نفساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»^(١). والطلح: نوع من الشجر البرّي^(٢). وهذا أكبر دليل يصوّر حرص الإسلام على العناية بالأرض والاهتمام بالزراعة وحث الإنسان عليه. وكذلك ألحّ الإسلام على الإنسان ليدفعه إلى قطاع الصناعة، وأن يأكل من كدّ يده، قال ﷺ: «من بات كالأمان طلب الحلال بات مغفوراً له»^(٣)، أي أن يتعب الإنسان ويعرق ويأكل من نتاج ذلك التعب والعرق لا أن يأكل عن طريق الغشّ والرّشا والربا وبقيّة الوسائل غير الشريفة وغير المشروعة التي حرّمها الإسلام.

المعنى الثاني: ألا يحاسبهم على ما في ضمائرهم

أي أن المقصود أن النبي ﷺ لم يدخل لقلوب هؤلاء، فالواجب ألا يحاسبهم على ما في ضمائرهم؛ ولذلك فإن عندنا أن فعل المسلم محمول

(١) تفسير العياشي ٢: ٨٦ / ٤٤، وسائل الشيعة ١٧: ٤٢ / ٢١٩٣٤، باختلاف عنهما.

(٢) ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ - الطلح.

(٣) الأمالي: ٣٦٤ / ٤٥٣، سير أعلام النبلاء ١٤: ٥٠٠، كنز العمال ٤: ٧ / ٩٢١٥. وفي الحديث الشريف: «ما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

على الصحة، فلا يحقّ لأحد أن يقول لشخص ما: أنت تصلي لتخدع الناس^(١)، فما دليل هذا على أنه يخدع الناس؟ فالآية تقول للنبي الأعظم ﷺ: إنك غير مسؤول عن ضمائرهم، ولذلك فإن الله تعالى لا يحاسب على النيات إلا النية التي تكون في ملاك العمل - أي في العبادات مثلاً - فعندما نتوجّه الى الصلاة فعلينا أن نقول: لوجه الله، وكذلك حينما نتوضأ بنية الدخول للصلاة. وإلا فما في دواخل النفس لا يحاسبنا الله عليه. إذن فللإنسان الظاهر.

مسألة التقيّة

وهنا تبرز مشكلة أحب أن أشير إليها، عقد مؤتمر صحفي في الكويت، فسألني أحد الإخوة السلفية وقال: أنتم تقولون بالتقية، وأنت لم تأت اليوم إلا بدافع التقيّة. فقلت له: لا، وإنما أردت خدمة الإسلام، وأنا مدعوّ وأريد أن أؤدي خدمة للإسلام. ثم إنه ليس نحن فقط من يأخذ بالتقية؛ فالإمام مالك يأخذ بها، والإمام أحمد بن حنبل يأخذ بها، وكذلك غيرهما من المذاهب الأخرى، وهناك مصادر عديدة تثبت ذلك. ثم ماهي التقية؟ إن الإنسان إذا كان بين كفره ويخشى على نفسه منهم فيمكن أن يخلص ذمّته بكلمة يحقن بها دمه، دخل رجل على الحسن البصري قال: أنت الذي قلت عن الإمام علي: لو أنه بقي في المدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما دخل فيه من سفك دماء المسلمين؟ قال: يا بن أخي كلمة حقنت بها دمي، فلا

(١) كما مر علينا من وقوف مروان بن الحكم يوماً على أسامة بن زيد - وكان يصلي - وقوله له: قد عرفنا أنك إنما وقفت تصلي هنا ليعرف مكانك. أمالي المرتضى ١: ١٩٦، دستور معالم الحكم: ١١٢، تاريخ يعقوبي ٢: ٢٠٩.

تحميلها على الواقع^(١).

ويقول الرسول الأكرم ﷺ : «إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم». كما يرويه البخاري^(٢)، وكذلك هذه الآية : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾^(٣).

ويمكن مراجعة كتب التفسير^(٤) لكل المذاهب الإسلامية حول هذه الآية : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٥) التي نزلت في عمار، فكل المذاهب الإسلامية تقول بالتقية، وكل المسلمين يعملون بها، ولكن لأن محبي أهل البيت ﷺ تعرّضوا إلى البلاء أكثر من غيرهم، وعرف أنهم ينقذون أنفسهم ويحقنون دماءهم أحياناً بكلمة، فقد ذاع أمرهم بأنهم يستخدمون التقية. فليس من حق أي مسلم أن يحاسب مسلماً غيره ويرميه بغير الإسلام مادام يحمل الهوية الإسلامية، وهي الشهادتان. الإمام الأشعري (إمام المذاهب

(١) شرح نهج البلاغة ٤ : ٩٥. دخل رجل على إبراهيم بن سلمة بن هرمة وسأله عن أبيات كان قد قالها في مدح الإمام علي وولده ﷺ : من قائل هذه الأبيات :

وَمَهْمَا أَلَامُ عَلَى حُبِّهِمْ فَإِنِّي أُحِبُّ بَنِي فَاطِمَةَ
بَنِي الْبَيْتِ مَنْ جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ ت وَالْهَدْيِ وَالسُّنَنِ الْقَائِمَةِ
فَلَسْتُ أَبَالِي بِحَبِي لَهُمْ سِوَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ السَّائِمَةِ

قال : قالها من عضّ ببطر أمه. فلما خرج الرجل سأل إبراهيم أحد ثقاته : أولست أنت قائلها؟ فقال : نعم. قال : فلم أنكرتهما؟ قال : ويحك، أيهما أهون، أن أنكر ثلاثة أبيات من الشعر أم أشنق على باب بيتي؟ تاريخ مدينة دمشق ٧ : ٧٦، جواهر المطالب ٢ : ٣١١. فهذا اتقى وأنكر الحق؛ لخوفه على نفسه الشنق. (٢) صحيح البخاري ٧ : ١٠٢.

(٣) آل عمران : ٢٨.

(٤) انظر مثلاً : الكشف ١ : ٣٤٦، الجامع لأحكام القرآن ٤ : ٥٧، تفسير القرآن العظيم ١ :

٣٦٥، التفسير الكبير ٤ : ١٤ - ١٥. (٥) النحل : ١٠٦.

السنية بأجمعها في عقائدهم) يذهب إلى أن تكفير أهل القبلة أمر عظيم فظيع عند الله: «أنا لا أكفر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾»^(١).

(١) السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، وتماه: لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات. ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين. وقال البيهقي: «قال الشيخ رحمه الله - الظاهر أنه أحمد بن القاص الطبري شيخ الشافعية في طبرستان وصاحب كتاب (أدب القاضي) الذي سيأتي ذكره - : فمن ذهب إلى هذا زعم أن هذا أيضاً مذهب الشافعي رحمه الله، ألا تراه قال في كتاب (أدب القاضي): لم نعلم أحداً من سلف هذه الأمة يقتدى به، ولا من التابعين بعدهم ردّ شهادة أحد بتأويل وإن خطأه وضلّله. ثم ساق الكلام إلى أن قال: والذي رويناه عن الشافعي وغيره من الأئمة من تكفير هؤلاء المبتدعة فإنما أرادوا به كفوّاً دون كفر، وهو كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤. قال ابن عباس: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن ملّة، ولكن كفر دون كفر».

وقال المناوي في شرح حديث «كفوا عن أهل لا إله إلا الله»: «وهم من نطق بها - أي مع نطقه بالشهادة الثانية - وإن لم يعلم ما في قلبه. «لا تكفروهم بذنوب» ارتكبوها وإن كان من أكبر الكبائر كالقتل والزنا والسرقة. «فمن أكفر أهل لا إله إلا الله» أي حكم بكفرهم، «فهو إلى الكفر أقرب» منه إلى الإيمان. فمخالف الحقّ من أهل القبلة ليس بكافر ما لم يخالف ما هو من ضرورات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد فإنه حينئذ ليس من أهل «لا إله إلا الله» فنكفّره.

وقال علي (كرم الله وجهه): «أعلم الناس بالله أشدهم حباً وتعظيماً لأهل لا إله إلا الله». وقال ابن عربي: إياك ومعاداة أهل «لا إله إلا الله»؛ فإن لهم من الله الولاية العامة؛ فهم أولياء الله ولو جاؤوا بقراب الأرض خطايا، لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة. ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته، ومن لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتخذة عدوّاً، فإذا تحققت أنه عدوّ الله - وليس إلا المشرك - فتبرأ منه كما فعل إبراهيم بأبيه. ولا تعاد عباد الله بالإنكار، ولا بما ظهر على اللسان، بل اكفه فعله لا عينه، والعدو لله إنما يُكره عينه؛ ففرق بين من يُكره عينه وهو عدوّ الله، ومن يُكره فعله وهو المؤمن العاصي». فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨.

المبحث الخامس: في أن الناس سواسية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

الدقة في انتفاء اللفظ القرآني

إن اللفظ يلعب دوراً كبيراً وهاماً في إبراز المعنى الموضوع له، فالقرآن تارة يستخدم لفظاً غاية في الرقة، وأحياناً أخرى يستخدم لفظ غاية في الخشونة؛ وذلك حسب ما يقتضيه المقام؛ فلكليهما دور. فقوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فيه معنى الخشونة، أي أنه ليس من خلق الإسلام أن تطرد أحداً ليجلس آخر مكانه كي يستمع القرآن الكريم، فما الفرق بينهما وكلاهما مسلم وعلى حدّ سواء؟ ولدني وإياك آدم. يقول الإمام علي عليه السلام في جملة من أبيات له:

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبـوهُمُ آدم والأُم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف	يفاخرون به فالطين والماء
لا فضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
فقم بعلم ولا تبع به بدلاً	الناس موتى وأهل العلم أحياء ^(١)

ويقول رسول الله ﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٢). والقرآن الكريم يخاطبنا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣).

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام : ١٥.

(٢) تحف العقول : ٢٤، شرح نهج البلاغة ١ : ١٢٨، الدر المنثور ٦ : ٩٨.

(٣) الحجرات : ١٣.

فالآية الكريمة إذن تقول للرسول ﷺ: اسأل هؤلاء: هل هم أفضل من غيرهم حتى يُطرد الآخرون من أجلهم؟ إن الإنسانية سواء، وإن هؤلاء سوف لن يطردوا، فالذين نستلهم من عطائهم وفضلهم هم هؤلاء، فأبو ذرٍّ رضي الله عنه أعطانا من عطاء الإسلام، وكذلك بلال الذي كان يحمل نداء الإسلام عند وقت كلِّ فريضة صلاة، وكان يمثل الصلابة في الإيمان، وقد تحمّل ألوان العذاب، فقد كانوا يضربونه حتى ترتفع الشياطين بلحمه ^(١)، وقد أصبح رمزاً لنا.

المبحث السادس: الثورة والمبادئ

وهنا ثلاث نقاط أحب أن أشير إليها:

النقطة الأولى: من الذي يقوم بالثورات؟

نرجع إلى صلب الموضوع، فغالباً كل ثورة من الثورات عندما تدخل حيّز التنفيذ فإن الطبقات الفقيرة تلتفّ حولها؛ إذ أن هناك عاملين يدفعان هؤلاء إلى الالتفاف حول هذه الثورة، وكل عامل منفرد عن الآخر: دافع المبدأ، ودافع المادّة. فصاحب الدافع المادّي يقول: ليس عندي شيء أخسره؛ سواء ربحت الثورة أم خسرت، أما صاحب الدافع المبدئي فإنّ روحه خالية من الغطرسة والتكبرّ وطلب العظمة والمنصب. والآية الكريمة تحدّد ذلك: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ^(٢). وليس كل غني طاغية، فهناك إنسان غني لكنه يحمل أخلاقاً عالية، وكل ما في الأمر أن الغني عادة يبطر صاحبه، ويعتبر عاملاً مساعداً على التلبّس بلون من التكبرّ والغطرسة، فالبعض

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.

(٢) العلق: ٥ - ٦.

تمنعهم الغطرسة للانتماء؛ ولذلك فإن الثورات يقع عبء القيام بها وتميرها على رؤوس الطبقات الضعيفة أو الفقيرة والمسحوقة : ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الْأَيِّ﴾^(١). فهذا المعنى هو الذي كان سائداً آنذاك.

النقطة الثانية: الثورة والغنيمة

إن كل من يقود نهضة من النهضات لا يخرج وهو عازم على الموت في كل حال، فيضحّي بنفسه للموت دون أن يضع في حساباته أنه سيبقى حياً، وبالتالي سينعم ويتلذذ بما يحصل عليه من غنائم وأسلاب المعركة. ثم إنه لا يخرج وهو عالم بموته، فهو يحتمل أن يموت أثناء المعركة ويحتمل أن يعيش بعدها ليرى مكاسب ثورته.

النقطة الثالثة: النظر إلى مرحلة ما بعد الثورة

ثم إن هؤلاء الذين يخرجون للقيام بنهضة ضد الظلم، أو القائمون عليها لا يخرجون إليها إلا بعد أن يضعوا الخطط وسبل الوقاية التي يجتنبون بها عيالهم وأولادهم وأموالهم آثار الحرب وعواقبها؛ كي يقدموا عليها وهم آمنون عليهم ومطمئنون على أحوالهم، ودون ذلك لن يتحرّكوا.

موقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه من هذه النقاط الثلاث

وهذه الأمور الثلاثة لانجدها عند الإمام الحسين عليه السلام، ولا عند أصحابه (رضوان الله عليهم)، كما سنلاحظه:

فحول النقطة الأولى نلاحظ أن معظم الذين التحقوا بالإمام الحسين عليه السلام هم من الأسر العريقة العالية النسب، وذات التربية النبيلة والشريفة. وكان منهم

مجموعة من الصحابة ومن الأغنياء، كحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين (رضوان الله عليهم) سيما أنهم كانوا معروفين بالرئاسة. فنجد منابهم البيتية رفيعة، ولهم مكانة كبيرة وأموال كثيرة. لكن كل هذا لم يقف بوجههم أبداً، فعندما دعاهم إمامهم لبوا وضخّوا، وكانت التضحية كاملة وكبيرة، فقد تركوا وراءهم نعيماً كبيراً ومكانة رفيعة ولذة عميمة، وهكذا عرفوا بالبسالة والشجاعة.

سأل مهاجر بن أوس الحر بن يزيد الرياحي عليه السلام لما رآه يريد الخروج إلى الإمام الحسين عليه السلام والالتحاق به، فقد رآه يرتجّ ويرتعش، فقال: واللّه لو سئلت: من أشجع أهل الكوفة، لما عدوتك، فمالي أراك ترتعش؟ فقال له الحر عليه السلام: أنا لست أرتعش خائفاً، وإنما أنا أخير نفسي بين الجنة والنار، وواللّه لا أختار على الجنّة بدلاً. وهكذا فإنه لم يحبّ الحياة، وهاهي الأعصر تمرّ عبر التاريخ وإلى الآن نحن نقف على قبره وقبور إخوانه الشهداء، ونقرأ ما توجّه به الإمام الصادق عليه السلام: «بأبي أنتم وأمي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم واللّه فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»^(١).

ونحن لا نقف على قبر فإنه تراب وشبّاك، وإنما نقف لنمجّد الموقف الرسالي والبطولة والمبدأ الذي هو من أجلّ المبادئ وأعظمها، وعلى شعلة من العطاء، يقول أحد الأدباء وهو يخاطب البقعة التي دفن فيها هؤلاء الأعلام:

(١) مصباح المتجّد: ٧٢٣، وكذلك يخاطبهم عليه السلام بقوله: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت ببناء قبر الحسين وأناخت برحله» بحار الأنوار ٦٥: ١٣١/٦٢، ٩٨: ١٩٦/٣١، بشارة المصطفى: ١٢٥..

أيا كربلا يا هدير الجراح وزهو الدم العلوي الأبى
وياصرح مجد بناء الحسين وأبدع في رصفه المعجب
ويا عبقاً في ثرى العلقمي يشد الأنوف إلى الأطيب
سببقى الحسين شعاراً على أصيلك والشفق المذهب^(١)

إننا نقف حيث ينبعث لنا صوت من القبر: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء
الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»^(٢). فنحن لا نمجد خشباً ولا فضّة.

إذن فأصحاب الإمام الحسين عليه السلام لم تكن دوافعهم مادية، هذا فضلاً عن أن
الإمام الحسين عليه السلام وضعهم في الصورة ليلة العاشر من المحرم، فقال لهم: «هذا
الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وتفرّقوا في سواده؛ الطريق غير خطير، والليل
ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو
ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي». فقاموا له وقالوا: يا أبا عبد الله، والله لو
قُتلنا وأُحرقنا وذرينا في الهواء، يُفعل بنا ذلك مرّات ما تركناك، فكيف وهي
قتلة واحدة^(٣)؟

وحول النقطة الثانية نجد أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كانوا يعرفون سلفاً
أنهم سيموتون، والإمام الحسين عليه السلام قد صرّح لهم في مكة حيث قال في
خطبته الشهيرة: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما
أولهنّي عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كآني

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.

(٣) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤:

٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ - ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية

والنهاية ٨: ١٩١.

بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً
جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت،
نصبر على بلاته فيوفينا أجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطناً على
لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصباحاً إن شاء الله»^(١).

فالإمام عليه السلام يخبرهم أنه ليس عنده مركز أو أموال، وإنما سيؤتاهم مكاناً
في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فاتبعوه وهم واثقون، يقول عنهم الشاعر:
قومٌ إذا نودوا لدفعِ ملمةٍ والقومُ بين مدعى ومكرسٍ
لبسوا القلوبَ على الدروعِ وأقبلوا يتهافتون على زهابِ الأنفسِ^(٢)
فكان الإمام الحسين عليه السلام بمثابة الضوء لهم، وكانوا كالفراش يطوفون حوله
ويُحدقون به :

أدركوا بالحسين أكبرَ عيدٍ فغدوا في منى الطفوف أضاحي^(٣)
فهم مصممون على التضحية. وهذا الموت هو الذي يهب الحياة، وإلى الآن
لازال الثقلان يسمعان الدوي والصوت حول تلك المراقد الطاهرة: «السلام
عليكم... طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم والله فوزاً عظيماً»^(٤)، حيث
تنسكب عليهم المشاعر يميناً وشمالاً.

وحول النقطة الثالثة فإننا نجد من هؤلاء إصراراً واضحاً على أن يشركوا

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨، كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٨٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٧، لوايع الأشجان: ١٣٨، عمدة الطالب: ٣٥٧.

(٣) ديوان السيد رضا الهندي: ٥٢.

(٤) مصباح المتجّد: ٧٢٣، وكذلك يخاطبهم عليه السلام بقوله: «السلام عليكم أيها الأرواح التي
حلّت بفناء قبر الحسين وأناخت برحله». بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١،
بشارة المصطفى: ١٢٥.

أهلهم معهم في هذه الملحمة، بل إننا نجد هذا الإصرار من أهلهم وذويعهم أنفسهم. فالإمام الحسين عليه السلام خطب أصحابه في اليوم التاسع من المحرم ووضح لهم هذا الأمر فقال: «ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد».

فقام علي بن مظاهر (أخو حبيب) وقال: ولماذا يا سيدي؟ فقال عليه السلام: «إن نسائي تسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائك من السبي». فمضى علي بن مظاهر إلى خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، واستقبلته و تبسّمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسم. فقالت: يابن مظاهر، إني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، فما علمت ما يقول. فقال لها: يا هذه إن الحسين عليه السلام قال لنا: «ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد»؛ لأنه غداً يقتل وتسبى نساؤه. فقالت: وما أنت صانع؟ قال: قومي حتى ألحقك ببني عمك بني أسد. فقامت وضربت رأسها في عمود الخيمة وقالت: والله ما أنصفتني يابن مظاهر، هل رأيتني لم أحسن إليك يوماً؟ قال: لا. فقالت: لماذا إذن تذهب إلى الجنة وترجعني إلى النار؟ أيسرك أن تسبى بنات رسول الله ﷺ وأنا آمنة من السبي؟ أيسرك أن تسلب زينب إزارها من رأسها وأنا أستتر بإزاري؟ أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها وأنا أتزيّن بقرطي؟ أيسرك أن يبيض وجهك عند رسول الله ﷺ و يسود وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام؟ والله أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام وهو يبكي، فقال له الحسين عليه السلام: «ما يبكيك؟». فقال: سيدي أبت الأسدية إلا مواساتكم. فبكى الحسين عليه السلام.

وقال : «جزيتم عنا خيراً»^(١).

وعندما جيء بالنياق لإركاب العائلة، خرجت أخت الإمام الحسين عليه السلام، فوجدت النياق قليلة، والنساء الأجنبية قد ذهب رجالهن وأبنائهن، فرأت أن من غير الصحيح أن يمشين على أرجلهن، وأن هذا خلاف الإنصاف، فقامت تُركب نساء الأنصار؛ حتى يقع المشي عليها وعلى أخواتها. وبالفعل سارت على الأقدام هي ومجموعة من النساء :

كم بوخذ السرى ربيبة خدرٍ واصلت بالحزون قبراً بقبرٍ

أفهل قائلٌ لزجرٍ بزجرٍ (لا تسمها جذب البرى أو تدري

ربة الخدر ما البرى والنسوغ)

وتتويجاً لهؤلاء الصحابة وقف الإمام الحسين عليه السلام يؤبّنهم : «أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟ مالي أناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»^(٢) :

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ أقمار تسبح في غدير دماءٍ

خضبوا وما شابوا وكان خضابهم بدمٍ من الأوداج لا الحناء



(١) معالي السبطين ١ : ٣٤٠.

(٢) معالي السبطين ٢ : ١٩، شجرة طوبى ٢ : ٣١.

أخلاق الإمام زين العابدين عليه السلام تجسيد لمفاهيم الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

الْقُرْبَى﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

إن استدلال الإمام السجاد عليه السلام بهذه الآية الشريفة يعدّ منقبة بلا شك، لكنه لم يلحظ فيها معنى الانتماء الدموي وإن كان هذا المعنى ملحوظاً باعتبار أنهم أولاد رسول الله ﷺ، بل إنه عليه السلام لاحظ فيها أنه امتداد للرسالة. وقد استشهد عليه السلام بها حينما كان في طريقه إلى الشام، ورماه أحد الشاميين بأنه من الخوارج وقال له: «أتقرأ القرآن الكريم؟». قال: نعم. قال: «هل قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟». قال: نعم، قال عليه السلام: «فنحن القربى يا شيخ».

المبحث الأول: المراد من ﴿الْقُرْبَى﴾

لقد حاول الكثيرون أن يصرفوا هذه الآية عن معناها بأن يثبتوا ظلماً أن القربى هي التقرب إلى النبي ﷺ لا الانتماء الدموي له، فهم يريدون نفي

حتى القرابة الدموية. ومن جملة من حاول صرفها عن هذا المعنى ابن تيمية، واستدل بأن هذه الآية مكّية لا علاقة لها بعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأنه تزوج وولد له في المدينة، وهذه الآية من سورة (الشورى)، وهي من الحواميم، والحواميم كلّها مكّية.

والصحيح في ذلك أن سورة (الشورى) وإن كانت مكّية، لكن فيها آيات مدنيّة، ومنها هذه الآية؛ ولذا لم نجد أحداً من المفسّرين يقول: إن هذه الآية مكّية، بل أجمعوا على أنها مدنية.

وألفت النظر إلى أن صاحب (المواهب اللدنية من المذاهب الإسلامية)، وكثيرين غيره صرّحوا بمدنية هذه الآية. ومن أراد ذلك فليقرأ الجزء الأول من الغدير^(١) للشيخ الأميني، فقد عقد فيه فصلاً كاملاً حول السور المدنيّة التي فيها آيات مكّية وبالعكس؛ لأن تأليف القرآن الكريم لم يكن حسب النزول. لكن ابن تيمية حاول أن يصرف الآية عن آل البيت عليه السلام.

وأؤكد هنا أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان حريصاً على أن يثبت القربى المعنويّة لا الدمويّة ويبرهن عليها؛ لأننا نعرف أن هناك من ينتمي إلى النبي ﷺ بالدم وليس له تلك الأهميّة الكبيرة، ومنهم من هو من أولاد الأئمّة عليه السلام. فعند الإمام علي عليه السلام أولاد لا نغيرهم كثير أهمية مع أنهم من صلبه عليه السلام. فالمسألة ليست مسألة انتماء دموي فقط.

وهناك نماذج لا تربطهم بعلي عليه السلام أية رابطة دمويّة، لكنهم أجلّ أصحابه والموالين له، كسعد بن عباد مثلاً، الذي لو وضعته في كفة ميزان، ووضعت

المئات ممن ينتمون دمويّاً إلى بعض العلويين، لما أمكن القياس بينهم أبدأً. فالقضية قضية مشاعر وارتباط بفكر ومبادئ وولاء. وهذا ما أراده الإمام السجاد عليه السلام في احتجاجه على الشامي، واستدلّاه بآية القربى، فهو عليه السلام أراد أن يقول: إننا حملة علم النبي ﷺ، ومن جعل القرآن الكريم أجر الرسالة مودّتنا.

وإذا كانت المسألة مسألة الانتماء الدموي فمعنى ذلك أن الله يأمرنا بالمعصية في بعض الأحيان؛ لأن هناك من ينتمي إلى النبي ﷺ وكان يجنّ عليه الليل وهو غارق في كؤوس الخمرة، فهل يمكن أن يأمرنا الله بمودّته وطاعته؟ حاشا لله أن يأمر بذلك. نعم، علينا أن نتركه إكراماً لرسول الله ﷺ. فالله إذن أمرنا بمودة ذوي القربى؛ لنقترب من المشاعر التي أضاعت طريق الإنسانية، وهي مشاعر الإسلام من آل محمد ﷺ، فقد أراد الإمام السجاد عليه السلام أن يقول: نحن النسخ المكررة من النبي محمد ﷺ، يقول أحد الشعراء:

أيا واحداً من خمسة إن رأيتهم رأيت بهم في كلّ وجهٍ محمداً
حديث الكسا ترنيمة الدهر فيهم روى الدهر فيها الاعتزاز وغرّداً
فسرّ تكريمنا لآل البيت عليهم السلام أنهم امتداد للنبوّة، ونحن نفترض أن النبوّة إذا خرجت من الأرض فلا يمكن أن تبقى الأرض خالية، وإن أخلّى الله الأرض من حجة فليس له حجة على العباد، فهو تعالى مثلاً يقول لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١)، فمن هم الصادقون الذين أمرنا أن نكون معهم؟ وهل انقطعوا في زمن النبي ﷺ؟ فإن أمرنا أن نكون

مع صادق غير معصوم فهذا يعني أننا مع عاصٍ. فلا بد أن يكون معصوماً.
فآلية توجّهنا إلى أن نكون في خطّ أهل البيت عليه السلام، وهذا ما أراده الإمام
السجاد عليه السلام في استشهاده بالآية الكريمة.

وبعبارة أخرى إن الإمام عليه السلام لم يكن يرمي من وراء ذلك أن يستدرّ العطف
بقدر ما أراد أن يوجّه هؤلاء المغفلين المخدوعين البعيدين عن مورد أهل
البيت عليه السلام. ولا تستغرب من هؤلاء، فمع كلّ هذه الأشواط الطويلة التي قطعها
البشريّة، لا زال في الناس إلى الآن من لا يدري أن أهل البيت عليه السلام لهم كلّ
هذا المقام، وهؤلاء ليسوا من البسطاء، وإنما هم من الباحثين الكبار.
وهؤلاء يستشهدون بالآراء الفقهيّة لريعة الرأي أو أبي ثور أو غيرهما،
ولو رجعت إلى تراجم هؤلاء لرأيت أن علومهم متواضعة بسيطة، لكنهم
يشغلون حيناً كبيراً من الكتب. والغريب ألا تجد لزين العابدين عليه السلام في المدينة
- وهي منطلق أهل البيت عليه السلام - مؤسسة، أو على الأقل ذكراً في مسجد
النبي ﷺ الذي كان يجلس فيه للإفتاء. فقد كان يجلس للإفتاء عند إسطوانة
في مسجد النبي ﷺ من الصباح إلى المساء، وكان يفتي في مختلف أبعاد
العلوم الإسلامية. فلا تجد من تلك الأبعاد في طيات الكتب ما تجده لغيره عليه السلام.
وهذا في واقع الأمر خسارة كبيرة للإنسانية؛ لأنه منهل صافٍ لا يعتره أي
خلل أو شائبة، وبإمكان المسلم أن يضع رجله على أرض صلبة وهو
مطمئن؛ لأنهم عدل الكتاب (١).

(١) بنصّ قول الرسول الأكرم ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من
السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني
اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن
حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

المبحث الثاني: رسالة الحقوق تجسيد للإسلام

إن الإمام زين العابدين عليه السلام يمكن دراسته فكرياً وعبادة وشخصاً من الأشخاص الذين لمس منهم المجتمع الإسلامي تجسيداً للإسلام بكل ما للتجسيد الصحيح من معنى. وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل.

إن تجسيد الإمام للإسلام يعد تراثاً غنياً جداً لا زالت الإنسانية بحاجة إلى تحليله وتعليقه. فالمؤرخون مثلاً يعتقدون بآبن خلدون باعتباره رائداً في علم الاجتماع، لكنني أرجو من الشباب المثقف أن يطلع على (رسالة الحقوق) للإمام زين العابدين عليه السلام؛ ليرى فيها الحقوق الاجتماعية التي استعرضها لكل فصائل المحيط الذي عاش فيه. فمثلاً إن للإنسان في الدنيا أمماً وأباً وأسرة وجاراً، كما أن هناك مواطنين يعيشون معه في البلد عينه، ثم إن هناك دولاً يجاور بعضها البعض، وفيها مسلمون يعيشون في شرق الأرض وغربها. وكل هذا تناولته (رسالة الحقوق). ولو كانت هذه الرسالة لغير الإمام زين العابدين عليه السلام لكانت العناية التي ستحاط بها ممّا لا يمكن تصوّره.

ولا أدري لم هذه المحاولة في ستر هذا النور؟ وهل يمكن أن يُستر مثل هذا النور؟ إنه لا يمكن ستره أبداً، لكن من سوء حظ الإنسانية أن تبتلى بفقد أعزّ ذخائرها.

إشارات من رسالة الحقوق

المورد الأول: حقّ الأبوين

يؤكد الإمام في رسالته مثلاً على حقّ الأبوين؛ باعتبارهما المهد والمنطلق الذي يواجه به الإنسان الوجود، والقناة التي مرت منها إرادة الله؛ لأن الله

خلق الإنسان بالسبب الطبيعي، كما أن القناة الطبيعية لوجود النبات هي التربة والماء والمناخ. ولا يمكن أن يدخل الولد الوجود ما لم يعبر هذه القناة. ثم إن وظيفة هذه القناة تتعدى ذلك إلى حمل الولد ورعايته وتربيته والسهر والإنفاق عليه، والمسيرة الطويلة التي يقطعها الأبوان في رعايته. لذا فإن الإمام عليه السلام يؤكد كثيراً على حقوقهما في رسالته الحقوقية.

ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى أن نستلهم من عطاء الإمام عليه السلام في (رسالة الحقوق) هذه؛ لنعرف حقوق الأبوين علينا؛ لأن الإنسانية اليوم تعيش عقوقاً لا حدود له. فأنا أحياناً أقرأ في بعض أخبار الصحف ما تدمع منه العين ويحترق له القلب؛ إذ أرى بعض كتابنا يطالب بإيجاد دار للعجزة المسنين، وهذا اعتراف صريح بأن الولد لم يعد مستعداً لرعاية أبويه وتحملهما، وأن الأسرة رأت أن هؤلاء استنفدوا دورهم في الحياة، ولا بد من وضعهم في دور خاصة ترعاهم وترى احتياجاتهم.

ولا يمكن تصوّر مجتمع خالٍ من الرحمة والشفقة والموّدة والروح الإنساني كالمجتمع الذي يطالب بمثل هذه المؤسسات. إن ساعة من السرور تمرّ على الأب أو الأمّ الكبير السن حينما يكون حولهما أولادهما أو أحفادهما تعدل الدنيا وما فيها. إنهما يريان أنفسهما في هؤلاء الأحفاد، ويريان أنهما لم يخرجوا من الحياة؛ لأن امتدادهما فيها لا زال موجوداً. فهل من الإنسانية أن يُحرما من العطف والتفاعل المباشر بينهما وبين البراعم التي تعيد إليهما الثقة بنفسيهما وبالإنسانية؟ وهل من الروح الإنساني أن يُرميا في غرفة تقتلهم فيها الوحشة، وتفتك بهما الغربة، ويشعران بالسأم من الحياة؟ هل هذا جزاؤهما بعد تعبهما، والله تعالى يُسمعنا قوله على لسان نبيه ﷺ:

«الجنة طيبة طيبها الله وطيب ريحها، ويوجد ريحها من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريح الجنة عاق»^(١)؟

فهذا الصدر الذي غذاني الدفء والحنان والحياة، والروح الذي غطاني ومسح آلامي، هل من الخلق أن تنتهي رسالته بهذا الشكل ويُرمى كالمتاع العتيق؟ يقول أحد الشعراء:

قد كنت أشبع من نوم وأنتِ إلى	جنب السرير عيونُ كلِّها سهوُ
النجم ملّ وما ملّت شفاهُك من	تلك المواويل حتّى يطلع السحرُ
الثدي يشبعني والصدر يغمرني	دِفئاً ومنك الطوى والقرُّ يهتصِرُ
أمّاه يا ذكرياتٍ أستجيرُ بها	بيضاءٍ إنْ مرّت الأيّامُ والعصُرُ ^(٢)

فهل يكون مصير الأم أن تُلقى في دور الرعاية؟ وهل يبقى للأب رغبة في أن يُنشئ أسرة وأولاداً بعد هذا؟ فهو يرى أنه يكّد ويكدح ويجمع وفي النهاية لا يحصل على أبسط الحقوق. ولعنة الله على الأسرة التي تنتهي إلى هذا الحدّ، فدارها لا تمرّ بها رحمة الله تعالى. وبهذا تتحوّل الإنسانيّة إلى ما هو أخسّ من الغابة؛ لأن الحيوان في الغابة لا يُعرض عن أمه وأبيه إذا كبرا. إن الإسلام يؤكّد تأكيداً بالغاً على حقوق الأبوين فيما ورد عن الله تعالى على لسان مشعل من مشاعل الإسلام، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام في (رسالة الحقوق). وهو الحقّ الأول الذي ينطلق منه.

المورد الثاني: حقّ الجار

ثم ينطلق إلى الحقّ الثاني وهو حقّ الجوار، فيقول: «الجار ثلاثة: جاره

(١) الكافي ٦: ٥٠ / ٦، مسند أحمد ٢: ٣، ٢٠، ٦: ٤٤١، وقد روى ذيله فقط.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

عليك حق، وجار له عليك حقان، وجار له عليك ثلاثة حقوق. فأما الذي له حق فجارك الكافر». وهذا الحق هو حق الجوار، ويرتب الشارع المقدس على هذا الجوار أثراً، هو أن هذا الكافر إنسان، وله حق الإنسانية أولاً، ثم إنه ارتبط بك بالجوار ثانياً، فله حق الجوار، والجوار عهد.

أقسام العهود

ويقسم فقهاء القانون والشرعية العهود إلى قسمين: العهد الفعلي، والعهد اللفظي. أما العهد اللفظي فهو ما كان فيه اللفظ صريحاً، كأن أقول لك: أعاهدك على أن تحميني وأحميك. فنعقد بيننا معاهدة. أما العهد الفعلي - وهو الذي يعبر عنه «جان جاك روسو» بالعقد الاجتماعي - فهو كما بين الجار وجاره، فلا يحتاج هذا إلى العهد اللفظي، وإنما يترتب حق الحماية والرعاية تلقائياً على كل من الجارين.

وكانت العرب والأمم الأخرى أيضاً تعتزّ بالجوار كثيراً، لكن الدرجة من الاعتزاز بالجوار كانت عند العرب لا نظير لها؛ فقد كان الجار أشبه عندهم بالأخ، فيمكن له أن يمدّ يده إلى طعامه. وهذا المعنى كان معروفاً عندهم، فإن طرق أحدهم طارق في الليل جاء جاره يحمل قدره من فوق ناره إلى ضيفه. قال مسكين الدارمي :

ناري وناز الجار واحدة	وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرّ جاراً لي يجاورني	ألا يكون لبابه ستر
أعشى إذا ما جرتي برزت	حتى يوارى جرتي الخدر ^(١)

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ٥٩، زاد المسير ١ : ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥ : ٤٣، ١٧ : ١٠، السيرة النبوية (ابن كثير) ١ : ١١١.

ثم يقول الإمام: «وأما الذي له حقّان فجارك المسلم، فمن حقّ جارك عليك ألا تؤذيه بقّار قدرك حتى تقتدح له منها»، أي إذا شمّ جارك رائحة الطعام فعليك أن تغترف له منه، وترسل إليه ليأكل كما تأكل، ولا تؤذيه بهذه الرائحة. وهذا لون من التكافل في محيط الإسلام.

كان سعيد بن محمد مجاوراً للإمام الصادق عليه السلام فعرض داره للبيع بعد أن مسّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادق؛ فهو إن غبتُ سأل عني، وإن سكتُ ابتدأني، وإن أكل تفقّدني قبل أن يأكل. فلما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام ابتسم ثم أرسل إليه المبلغ كلّهُ، وقال له: دعك في دارك، بارك الله لك فيها^(١).

ثم يقول عليه السلام: «وأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فهو الرحم المسلم»؛ فإن له حقّ الإسلام وحقّ الجوار وحقّ الرحم. ثم يشرع الإمام عليه السلام في شرح هذه الحقوق وتبيينها.

ثم ينطلق عليه السلام إلى ذكر حقّ المسلم على المسلم، وذلك بأن يستر عورته، ويُشبع جوعته، ويفرّج كربته، ويحفظ غيبته، إلى أن يصل إلى الوقوف على قبره. يقول الحرّ العاملي في (الوسائل): «يُعتبر أئمة أهل البيت عليهم السلام أن من حقّ المسلم على المسلم يشهده إذا مات»^(٢). لذا تروي عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سبق أن نوّهنا إلى أننا لم نعرّ عليها عن الصادق عليه السلام، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٢٣، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٨٧ / ١٥٧١٢، ومثله في ١٢: ٢٠٦ / ١٦٠٩٧.

قوله : « اقرؤوا على موتاكم سورة ياسين ، إنها المؤمنة له »^(١) .

هذه نماذج من الموارد التي عالجتها (رسالة الحقوق) ، وإني أشجع كل مسلم على أن يقتني نسخة منها ، بل أرغب في ذلك له ؛ ليرى بنفسه أبعاد فكر الإمام عليه السلام ، وهي حصيلة تربيته الإسلامية . ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى دراسة هذه الأخلاق العالية .

وقد يقول قائل : إن الكثير من الحكماء يضعون النظريات ، ولكن ما مقدار تطبيقها ؟ وهل كانت هذه النظريات مطبقة عند الإمام زين العابدين عليه السلام ؟ إن الجواب على ذلك لا يحتاج إلى بحث ، فقد كان كل ذلك مجسداً في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام . ومن المؤكد أن هذه الشريحة لديها نظريات غريبة في بابها ، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « مؤدب الناس ومعلمهم بسيرته أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم بلسانه »^(٢) ؛ فهناك من يدعو الناس للخير والصلاح وهو ليس صالحاً ، ومنهم من يؤدّب الناس بسلوكه وسيرته ، وكان أهل البيت عليه السلام هكذا .

إن الإمام السجاد عليه السلام كان يجسّد ما يقوله في رسالته ، فسيرته مع والديه مثلاً كانت مثلاً لذلك . وكان عليه السلام قد عاصر أباه فقط ، أما أمّه فقد توفيت في نفاسها به . يقول الزمخشري في (ربيع الأبرار) : « إن بنات يزدجرد ثلاث : تزوّج محمد بن أبي بكر واحدة ، وتزوّج عبد الله بن عمر الثانية ، وتزوج

(١) نيل الأوطار ٤ : ١٤٢ ، تحفة الأحوزي ٣ : ٢٧٦ ، البحر الرائق ٣ : ١٠٥ ، كشف القناع ٢ : ٩٥ ، سبل السلام ٢ : ١١٩ .

(٢) لم نعر عليه بنصّه ، وفي نهج البلاغة / الحكمة : ٧٣ ما نصّه : « ومعلم نفسه ومؤدّبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم » .

الحسين الثالثة. فولدت شاه زنان الإمام زين العابدين، وتوفيت في نفاسها به. فدفن الإمام الحسين ابنه إلى جارية من فضليات جواريه، فأشرفت على تربية الإمام ورعايته وحضاته. وكان الإمام عليه السلام يدعوها: أمي، وهي التي زوجها بعد أن كبر». ويبدو أنها عندما احتضنته كانت صبية، فلما كبر الإمام كانت قد بلغت الثلاثين تقريباً. فأرسل إليها بعض النساء ليعرفن منها رغبتها في الزواج.

وكان الإمام عليه السلام يجلس معها على مائدة الطعام، ويؤاكلها، فلا يمدّ يده إلى أن تمدّ يدها. فقليل له: لم تفعل ذلك؟ قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققته»^(١).

فأي لون من البرّ هذا؟ إنه تصرّف فيه روح الإسلام الذي يحاول أهل البيت عليهم السلام أن يربّونا عليه، ويعطونا به درساً أخلاقياً في رعاية الأبوين. أما موقفه مع أبيه الحسين عليه السلام، فقد كان النموذج المثالي أيضاً.

المبحث الثالث: شذرات من رعايته عليه السلام حقوق جاره

وأما في جواره فيروي جميع المؤرخين أن الطعام كان يخرج كلّ ليلة من بيته، وكانت القدور تملأ بما يعدّه الطباخون، فإن حان وقت الغروب جلس الإمام عليه السلام أمام القدور وراح يقول: «ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»^(٢). فإذا فرغ من ذلك وضع بين يديه بعضاً من الخبز والملح والحشائش الصحراوية وأكل منها الشيء القليل.

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، الفقيه ٢: ١٣٥ / ١٩٥٥، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

تصدقته عليه السلام بالعنب

وكان عليه السلام يعجبه العنب، فاشتراه يوماً وكان صائماً، فلما أفطر كان أول ما جيء له بالعنب، أتته أم ولد له بعنقود فوضعت بين يديه، فجاء سائل فقال: يا آل محمد، أعطوني ممّا أعطاكم الله. فقال لجاريته: «احمله إليه». فدفعته إليه، ثم دسّت إلى السائل فاشتريته منه وأتت به فوضعت بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أم الولد مثل ذلك، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، حيث أرسلت الجارية في الثالثة إلى السائل، فاشتريته منه؛ لأن الوقت ليل، ولا أحد يبيع العنب، ثم أتت به إلى الإمام عليه السلام، فتناول منه حبات^(١). وكان هذا تجسيداً عملياً للوسام الذي أعطاه القرآن الكريم لجده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٢).

ملاقاته عليه السلام الزهري

ولا يكفي الإمام عليه السلام بذلك، بل كان يخرج في الليل يحمل الطعام إلى جيرانه، يقول الزهري: كنت في إحدى الليالي أتمشى في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين يحمل على ظهره دقيقاً وخطباً وهو يمشي، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «أريد سفراً أعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لما مضيت في حاجتك وتركتني». فانصرفت عنه، وبعد

أيام رأيته فقلت له : يا بن رسول الله ، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ فقال : «يا زهري ليس ما ظننت ، ولكنه الموت ، وله كنت استعد». فقلت : ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال : «هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»^(١).

لقد كانت العشرات من بيوت المدينة المنورة - وبيوت كل مدينة يحلها الإمام عليه السلام - يصلها طعامها ولا تدري من أين يأتيها ، ولم تعلم بذلك حتى مات الإمام عليه السلام ، فعلموا حينها أنه هو الذي كان يوصل إليهم هذا الطعام^(٢).
لقد كان عليه السلام يطوف على البيوت ليوصل الأطعمة والماء إلى أهلها؛ سواء كانت بيوت أعدائه أو بيوت أحبائه. وقد كانت سيرة أهل البيت عليه السلام كلها هكذا. فقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يبعث بالطعام إلى بيت عمار بالقدر الذي يبعثه إلى بيت عبد الله بن الكواء الذي يتقرب إلى الله بشتمه^(٣).

بسطه عليه السلام حمايته على إسماعيل الأموي

وكذلك كان فعله مع إسماعيل بن هشام المخزومي عامل عبد الملك على المدينة ، فقد كان إسماعيل هذا يسيء لأهل البيت عليه السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام ، وقد بقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله ، وأوقفه تحت الشمس عارياً ، فأخذ الناس يطالبونه بالأموال ، فجمع الإمام كل أصحابه وأهل بيته

(١) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٩٣ . (٢) مناقب آل أبي طالب ٣ : ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣) كما فعل عليه السلام مع سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي الذي اعتزل القتال معه هو وقوم فكان عليه السلام يرسل إليهم الأعطية ويقول : «لا نمنعكم حقكم من الفياء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣ : ١١٦ / ٣٣٦٤ .

وقال لهم: «لا تتعزّضوا لهذا الرجل بسوء أبدأ». فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «كُله إلى الله». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدّ على وجهه أي امتعاض.

ثم إن الإمام عليه السلام مرّ من قربه فهمس في أذنه قائلاً: «انظر إلى ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: «اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»^(١)، وكان أن ترك النصب له عليه السلام^(٢).

وقد يصل به الأمر أحياناً إلى أن يحمل الماء على ظهره بعد أن يمتحه من البئر. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل^(٣)؟ قال عليه السلام: «إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»^(٤)؛ ذلك أنه لم يكن في المدينة المنورة أنهار، بل كان فيها آبار بعيدة القعر، فلذا كان الإمام عليه السلام يستقي لهؤلاء الضعفة من كبار السن وغيرهم من جيرانه، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يذهب به إلى بيوتهم.

حمايته عليه السلام عائلة مروان في واقعة الحرّة

وينطلق عليه السلام إلى أبعد من ذلك في رعاية جيرانه كما سأذكر لك هذا عبر ما فعله مع عائلة مروان. وقبل هذا أودّ أن أشير إلى قضية في التشريع الإسلامي أدّت إلى ظهور ما يسمى بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وهي من أضخم

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) المجل: أثر العمل في الكفّ حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتّى يغلظ جلدها من المشقة.

لسان العرب ١١: ٦١٦ - مجل. (٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

القواعد الإسلامية، ويستند إليها فقهاء القانون وفقهاء الشريعة في حل كثير من القضايا. وفي عصرنا هذا يقولون عن هذه القاعدة: إنها تستعمل عند التعسف باستعمال الحق، مثل أن يكون عند أحد قطعة أرض يريد بناءها، فعليه أن يراعي جاره بالألا يحجب عنه الشمس أو الهواء، فلا يتعسف عليه باستعمال حقه باعتبار أنه يملك هذه القطعة من تخوم الأرض إلى عنان السماء.

كان سمرة بن جندب - وهو من الصحابة، ثم أصبح بعد ذلك مدير شرطة زياد، وعاش إلى أيام الحسين عليه السلام، وكان يدفع الناس إلى قتاله عليه السلام ويشجعهم على ذلك - يملك نخلة في بيت جاره من الأنصار، فكان يدخل على جاره فجأة متى شاء، وهو جالس مع أهله فيطلع على أهله بذريعة الوصول إلى نخلته. فشكاه الأنصاري إلى رسول الله ﷺ، فاستدعاه وقال: له: «هبها له ولك كذا وكذا». أمراً رغبه فيه، فأبى فقال ﷺ: «أنت مضار». ثم قال ﷺ للأنصاري: «اذهب فاقلع نخلته»^(١).

هذا لون من الجوار الذي رآته المدينة، في حين أن الإمام السجاد عليه السلام يؤوي عائلة مروان ويبعث ابنه عبد الله لحماية زوجته، ويقول له: «إنه جارنا». وذلك لما حدثت واقعة الحرة في المدينة، وأراد الثوار أن يقضوا على عوائل بني أمية بالكامل، فجاء مروان يهرول إلى عبد الله بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا أدخل أحداً إلى بيتي. فراحوا

(١) النصائح الكافية: ٧٦، وانظر: سنن أبي داود ٢: ١٧٣ / ٣٦٣٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ١٥٧، المحلى ٩: ٢٩ / المسألة: ١٥٤٠، نيل الأوطار ٦: ٦٧، وفي بعضها أنه كان إذا وقعت ثمرة منها وأكلها صغار الأنصاري مديده إلى فيه واستخرجها منه ولم يسمح له بأكلها.

يتسكعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين عليه السلام، فاستقبلهم وأدخلهم داره، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت الإمام عليه السلام ينفق عليهم ويحميهم^(١).

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأرسل عليه السلام معها ابنه عبد الله حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها^(٢).

ومن هو مروان؟ إنه من كان يتقرب إلى الله بشتى أمور المؤمنين عليه السلام، وكان يقول للحسين: أنصحك ببيعة يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك^(٣). وكان يضرب ثنياي الإمام الحسين عليه السلام ويرتجز:

يا حبذا بردك باليدين ولونك الأحمر بالخدين

شفيت نفسي من بني الحسين^(٤)

فهل رأيت في التاريخ نموذجاً مثل هذا العفو؟ إنه مصداق لقول الفرزدق:

مشتقة من رسول الله نبعته طابت عناصره والخيم والشيم

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم^(٥)

فلو أردنا أن نكون على مائدة هذا الرجل لأصابتنا الحيرة فيما نأخذ وما نذر من سيرته في تقواه وخلقه وعبادته، فكان عليه السلام إذا جن عليه الليل وقف لا

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٤) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام

الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٣٣٩. (٥) الاختصاص: ١٩٤، تاريخ بغداد ٩: ٢١٠.

يتحرك منه إلا ما تحركه الريح^(١)، يقول في إحدى مناجياته: «يا ذا الملك المتأبد بالخلود، ويا ذا السلطان المعترّ بغير جنود» إلى أن يصل إلى قوله: «وأنا الضعيف عملاً، والجسيم أملاً»^(٢).

وقد حشد عليه السلام فيها المعاني الكبيرة التي تكشف عن الروح الضارعة إلى الله جلّ وعلا، والتي تتوخى أدقّ المعاني في تصوير العلاقة بين العبد وربّه. فلنعرف أين هو موقع الصحيفة السجادية (إنجيل آل محمد ﷺ) من التراث الفكري الروحي للإسلام.

إننا في مسيس الحاجة إلى دراسة الإمام عليه السلام عطاء ورحمة وخيراً، فهو المجاهد في الله، الصابر على المصائب، وهو الامتداد الطبيعي للنبي ﷺ، لا أن نأخذ منه جانب المأساة فقط وإن كانت المآسي التي مرّت به أخذت منه قسطاً وافراً؛ فإنه كان عطاء قبل أن يكون مأساة.

فسلام عليه يوم ولد ويوم نصر الله ورسوله ﷺ ودينه، ويوم استُخلف ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.



(١) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ١٦٥ / من دعائه عليه السلام عقيب صلاة الليل.

وراثة الأرض واستعمارها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ
أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة

الزبور هو مجموعة الكتب السماوية؛ لأن الزبور هو عبارة عن الكتابة، وكل الكتب السماوية مكتوبة. فالمقصود بالزبور إذن هو رسالات السماء التي حملها الأنبياء ﷺ، والذكر يقصد به اللوح المحفوظ، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: أنا قد قضينا بأن الأرض يرثها عبادنا الصالحون، وأنها ستكون لهم وحدهم دون غيرهم.

إن كتب السماء تحمل الحقائق دون شك، لكن التوصل إلى معرفة هذه الحقائق يحتاج إلى تبخر واستعداد علمي؛ كي يتمكن الإنسان من إدراك كنهها. وبتعبير آخر: إن الآيات الكريمة هي عبارة عن فيض من العطاء على

(١) الأنبياء: ١٠٥.

مستويات عدّة من العلم والمعرفة والإخبار عن المغيّبات، لكن يجب أن تكون في أيدي أمينة، وهم أهل العلم والمعرفة الذين يختصّهم الله تعالى، وهم المعبر عنهم بالراسخين في العلم^(١). فالذي يريد أن يتناول آية من آيات الكتاب دون أن يكون له حظ من العلم فإنه سيخلط الأمور ببعضها، أو أنها هي ستختلط عليه. وهذا أيضاً يشمل من عنده علم لكنه لا يمتلك أي خلفية دينية؛ فإنه سيخلط الأمور أيضاً وسيصرف الآيات عن معانيها إلى معاني أخرى تمليها عليه نفسه.

جاءني أحدهم يسأل فقال: إن أحد المتحاملين على أمير المؤمنين عليه السلام يعترض على ما ينسب له عليه السلام حول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِعُونَ﴾^(٢)، وأشياء أخرى ثابتة في حق أمير المؤمنين عليه السلام، كقلع باب خيبر، فيقول: إن هذه الأمور كلّها تنسب كذباً إلى أمير المؤمنين عليه السلام. ومثل هذا لا يستبعد منه أن يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام شخصية وهمية وليس لها وجود، ونحن لا نلوم هذا؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لأمر المؤمنين عليه السلام: ﴿لَا يَحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغُضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ﴾^(٣). ورحم الله صفي الدين الحلي؛ حيث يقول:

بَحَبُّ عَلِيٍّ تَسْرُ النُّفُوسُ وَتَزْكُو الْقُلُوبُ وَتَحْلُو الثَّمَارُ
فَإِمَّا رَأَيْتَ لَهُ مَبْغُضًا فَفِي أَصْلِهِ نَسَبٌ مُسْتَعَارُ

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمال ١١:

على أية حال إن هذا الأمر لا يضير أمير المؤمنين عليه السلام بشيء، ولا ينقص من قدره ومكانته.

أقسام النص القرآني

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يقرّر أن الصالحين سيرثون الأرض، لكن ما المراد من الأرض هنا؟ وأود أن ألفت النظر هنا إلى نقطة هامة وهي أن النص القرآني يكون عبارة عن قسمين:

الأول: النص

فهو أحياناً لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، وفي مثل هذه الحالة يصبح نصاً بالمعنى الاصطلاحي، فلا مجال لحمله على معنى آخر غير الذي وضع له. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١)، فهو نص لا مجال للاجتهاد فيه، ولا إلى توجيهه إلى معنى جديد غير الذي وضع له؛ لأنه نص صريح لا يحتمل إلا معنى واحداً.

الثاني: الظاهر

أما إذا كان يحتمل معاني عدّة؛ ففي هذه الحالة إذا كان المعنى راجحاً، فإننا نسميه ظاهراً، وإن كان المعنى مرجوحاً، فإننا نسميه مؤولاً.

المبحث الثاني: المقصود من الأرض

وعلى ضوء هذا التقريب لنر هذه الآية من أي الاقسام هي، إن الناظر إلى

هذه الآية بعد التأمل والتدقيق سيجد أنها من النوع الثاني من القسم الثاني. وسأوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى خلال استعراضي لبعض النقاط الرئيسية التي يتضمنها البحث. فللمفسرين ثلاثة آراء حول المراد من الأرض في الآية:

الرأي الأول : أنها الجنة

إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالأرض هنا هي الجنة؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَفَظُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدُهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ (١).

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن لسان الآية فيه عموم، فالأرض لو كانت هي هذه الأرض التي نحن عليها لرأينا أن هناك تناقضاً بين الآية والواقع؛ لأن الصالحين لم يرثوا من هذه الأرض شيئاً، فهي كلها لغير الصالحين. والواقع يقول هذا ولا يمكن لأحد أن ينكره، فالأرض كلها الآن بأيدي الكفرة، فسيبيريا وحدها بحجم البلاد العربية وهي بأيدي الكفرة، وقطعة من بلادهم. إذن الأراضي اليوم قد ورثها غير الصالحين، وقد لا يحصل فيها صالح على قطعة أرض يعيش عليها، وهؤلاء غالباً هم حملة الرسالات، والدعاة إلى الإيمان؛ ولذا فانهم كانوا ولا زالوا مطاردين لا يجدون مكاناً يستقرون فيه. وقد سئل أحدهم: أين أنت حين طلبك الحجاج؟ فقال: بحيث يقول الشاعر: عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيئ (٢)

(١) الزمر: ٧٤.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥، وفيه أن إبراهيم النخعي تمثل به حين سئل: أين كنت حين طلبك الحجاج؟ غريب الحديث (الحربي) ٣: ٩٤٩، معجم البلدان ٢: ٤٨٣، وفيه أنه

وهذا البيت يصوّر حال الصلحاء - الذين هم غالباً ما يكون شأنهم هكذا - أفضل تصوير. ولأضرب لك مثلاً واحداً يشهد بصحة هذا، فسعيد بن جبيرة عليه السلام كان قد طارده الحجاج مطاردة مروعة بعد فشل ثورة القراء، وضيق عليه الخناق حتى لم يكن يجد موطئ قدم يلوذ به ويلجأ إليه، وبث العيون في كل النواحي تترصده وأرسل الطلب خلفه يتعقبونه، حتى وصل به الأمر أن نزل قرب دير. وكانت الشرطة تجدد في طلبه حتى وصلت إلى الدير الذي نزل فيه، فرأوا راهباً في صومعته، فسألوه عنه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي ربه، فدنوا منه وسلموا عليه، فأتى بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا له: إنا رسل الحجاج إليك، فأجبه. فقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان، اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. فلما همّوا بالصعود أبى سعيد أن يدخل معهم، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإننا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لاخير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذب.

ثم أعطاهم موثقاً إلّا يبرح مكانه حتى يُصبح، فرضوا بذلك، ولما صعدوا إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تمسّحت به، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فأمرّ سعيد يديه على رأسيهما، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد

• للأحيمر السعدي، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي وأهدر دمه، فهرب وذكر حنينه إلى وطنه، فأنشد قصيدة منها هذا البيت.

ذلك كله ، فأسلم.

ثم جاء به القوم إلى الحجّاج ، فقال لهم : أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا : نعم ، وعائناً منه العجب. فصرف بوجهه عنهم ، وقال : أدخلوه عليّ. فخرج المتلمّس^(١) فقال لسعيد : أستودعك الله ، وأقرأ عليك السلام.

فأدخل عليه. فقال له الحجّاج : ما اسمك؟ قال : سعيد بن جبير. قال : أنت شقي بن كسير. قال : بل أُمّي كانت أعلم باسمي منك. قال : شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال : الغيب يعلمه غيرك ، فلم تتعني وإياها بالشقاء؟ فقال له : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى. قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

ثم سأله : ما قولك في محمد ﷺ؟ قال : نبي الرحمة ، وإمام الهدى. قال : فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال : لو دخلتها ، فرأيت أهلها عرفت. قال : فما قولك في الخلفاء؟ قال : لست عليهم بوكيل. قال : فأيهم أعجب إليك؟ قال : أرضاهم لخالقي. قال : فأيهم أرضى للخالق؟ قال : علم ذلك عنده. قال : أبيت أن تصدقني. فقال : إني لم أحب أن أكذبك. قال : فما بالك لم تضحك؟ قال : لم تستو القلوب. فقال : ويلك يا سعيد. قال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار. قال : اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال : اختر أنت لنفسك يا حجّاج ، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك قتلة في الآخرة. قال : فتريد أن أعفو عنك؟ قال : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

ثم أمر الحجّاج بالنطع وقال : اذهبوا به فاقتلوه. فقال : ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

(١) كان قائد الحملة المكلفة بالبحث عن سعيد بن جبير.

فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١). قال : شدّوا به لغير القبلة. فقال : ﴿فَأَيْنَمَا تُولُونَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢). قال : كبوه لوجهه. قال : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣). قال : اذبحوه. قال : إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وهكذا كان؛ إذ مات بعده بخمس عشرة ليلة لم يستقرّ فيها لحظة ، فقد كان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتنى؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير؟^(٤). ولذا يقول له أحد الأدباء :

بعض التفكر يا فتى	فأخو الحصافة ما انسب
هل أنت في أمن من الـ	أحداث تعصف والغيز
أو ما رأيت سـجـوناً وا	سط كالهشيم المحتضر
ومقاصد الحجاج تضـ	حك في مدارجها العبر
كُتب الخلود بها لمجـ	زور وليس لمن جزر
أضحى بها ابن جبير يُتـ	لى مثل فاتحة السور

فانظر عاقبة المتقين وعاقبة المفسدين؛ فأين الحجاج الآن؟ وأين ضخامة

(١) الأنعام : ٧٩. (٢) البقرة : ١١٥.

(٣) طه : ٥٥.

(٤) تاريخ الطبري ٥ : ٢٦٠ ، الطبقات الكبرى ٦ : ٢٦٥ ، سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٢٨ ، حلية الأولياء ٢ : ٢٩٠ / ٤.

بنائه؟ الحجاج لم يكن إلا تراباً على ظهر الأرض وعاراً في بطون الكتب ولعنة في أذهان الناس و على ألسنتهم، وهذه هي عاقبة الظالمين.

فهذه الأرض لم تكن دائماً إرثاً للصالحين، بل قد لا يملك الصالحون فيها موطئ قدم، وقد ضاقت على سعيد وأمثاله من المؤمنين؛ وهذا يدلّ بشكل واضح على أن الأرض التي وعد الله تعالى بها المؤمنين هي الجنة.

كما أن هؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم لا يمكن أن يحمل على الظاهر دائماً؛ لأن هذا الظاهر يصطدم بالواقع أحياناً؛ فكان لابدّ من تخصيصه بالواقع، وهو ما يعبر عنه بأنه عموم مخصّص بالواقع. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه كذب حاشا لله، وعليه فلا بدّ من تأويل هذه الآية بأنها الجنة؛ حتى لا يقع التكاذب.

بيان

قد بيّنت أكثر من مرّة أننا عندما نرجع إلى الروايات فينبغي أن نأخذ منها على الإجمال ما ورد على لسان المعصومين عليه السلام، وبالطريق الصحيح السالم من المؤاخذه. والغرض من هذا البيان هو أنني أريد أن أبيّن حقيقة ناصعة هي أن القطعة الصغيرة التي يعيش عليها المؤمن تعادل الدنيا بما فيها من نعيم وملذّات، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «اللهم إن كنت حبست عنا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك»^(١).

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

الرأي الثاني: أنها أرض القدس

وهذا ما يميل إليه بعض المفسرين الذين يذهبون إلى أن المراد بالأرض في الآية الكريمة أرض القدس، أي أرض القبلة الأولى؛ فبيت المقدس كان قبلة المسلمين أول الأمر حينما شرعت الصلاة.

علة جعل بيت المقدس قبلة

والظاهر أن المراد من تشريع القبلة إلى بيت المقدس هو أن الله تعالى يريد أن يثبت للعرب في ذلك الوقت أن التوجه بالعبادة هو ليس استمراراً لتوجههم إلى الكعبة - ذلك أنهم كانوا يتوجهون إليها في عباداتهم - لأن الله تعالى ليس في جهة، بل إن التوجه إلى أي جهة يأمر بها هو توجه إليه تعالى، وليس بالضرورة أن يكون ذلك إلى الكعبة. ولذلك توجه المسلمون أول الأمر إلى بيت المقدس مدة طويلة؛ لأنه أرض مقدسة، وهي الأرض التي بارك الله تعالى فيها^(١)، وهي مصلّى الرسول الأكرم ﷺ والأنبياء عليهم السلام كلهم. كما أنه هو المكان العزيز علينا بكل ما فيه من آثار، والذي تربطنا به رابطة العقيدة والروح والوجود والكرامة والدم.

ولا شك أن بيت المقدس من الأماكن العزيزة على نفس كل مسلم يتوجه يومياً إلى الله عزّ وجلّ؛ فهو يذكر أن هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام قبلة أسلافه الأولى. كما أنها ترتبط بمشاعرنا من ناحية تاريخية.. ترتبط بمشاعرنا من ناحية الإسراء والمعراج. وهي الآن تشكّل وصمة عار علينا جميعاً لما تتعرض له من تدنيس على أيدي حفنة من اليهود الذين اغتصبوها

(١) قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.

من أيدي كل هذه الأمم الإسلامية. وبناء على هذا الوعد الذي تقرّره هذه الآية الكريمة يقول أحد الأدباء:

بصمات المسيح فوق ثراه	وشذا من عبيره فواح
وبه من محمدٍ قسما	يجتلي حسنّها السنا اللّحاح
سيعود السلام يا بلد القد	س وشيخاً ويطرد السّفاح
وستزهو ملاعب بالصبايا	وتنثّ الهوى وجوه صبا
ليس حلاً يا أرض قدس ولكن	كفّ قومي بدا بها مفتاح ^(١)

فرية عبد الله بن سبأ

وللحقيقة أقول: إننا قد ابتلينا باليهود وبأذناهم، وإلا فإنه لم يكافح أحد اليهود على مرّ التاريخ كما كافحناهم نحن الشيعة، ونحن الآن نرفع شرف مكافحة اليهود، ففي الجنوب اللبناني الشيعي ترتفع الأصوات وتلعلع الأسلحة وهي تبارز اليهود^(٢). فلتخرس جميع الأصوات التي ترمينا بأننا يهود، فاليهود غيرنا وليس نحن. وعندما نسأل هذا المفترى علينا فريته هذه عن سبب إطلاقها ضدنا، وعن دليله عليها، فإنه يتذرّع بشخصية مفتعلة اسمها عبد الله بن سبأ. ونحن نقول لهذا المفترى: إذا كنت ترمينا بعبد الله بن سبأ واحد، فأنت عندك مئة عبد الله بن سبأ، ومع ذلك نجدك تنزّه نفسك عن وصمة اليهودية وتدّعي أنك لست يهودياً. مع أن هذه الشخصية هي شخصية وهمية لا وجود لها، وهذا ما يقول به حتى كتابكم^(٣).

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

(٢) وكذلك يوم القدس العالمي الذي أعلن في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك من كل عام.

(٣) لمزيد من الاطلاع يراجع كتاب (عبد الله بن سبأ) للباحث السيد مرتضى العسكري.

ولو تنزلنا وفرضنا أنه شخصيّة حقيقيّة، فهل يعني هذا أن تصبح الأمة كلّها يهوديّة؟ هذه كتبنا وهذا تاريخنا ابتداءً من أمير المؤمنين عليه السلام وإلى الآن يشهد بذلك؛ ونحن نسأل: على يدي من قتل مرحب؟ فإن كان هناك من يقول: إنه لم يقتله علي بن أبي طالب عليه السلام فإن هذا لا مجال للحديث معه؛ لأنه مكابر وعار على الدنيا، وعار على الذوق الإنساني وعلى التاريخ.

وهل علي بن أبي طالب عليه السلام محسوب على جهة أو منسوب إلى فئة من المسلمين دون غيرها؟ إنه عطاء للمسلمين كافّة، وهو سيف مشهور دون كلمة الله تعالى .

إذن فسيوفنا قد قارعت اليهود وكذلك سواعدنا قُطعت من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وطرّد الفكر اليهودي وهي تحاربهم، أما أقلامنا فهي من أول الأقلام التي قارعت اليهود عبر التاريخ، ودونك تفاسيرنا تشهد بذلك، فهي خالية من الإسرائيليات التي تزخر بها تفاسير غيرنا مثل خبر الجسّاسة^(١). والذي له صلة بهذا التاريخ يعرف هذا المعنى. إننا قاتلنا اليهود وما زلنا نقاتلهم؛ فكراً وقلماً وسيفاً وساعداً.

إذن المقصود بالأرض التي سيرتها الصالحون - الأرض الموعودة - هي أرض بيت المقدس.. أرض القبلة الأولى والمقدسات.. البلدة التي ابتليت باليهود؛ حيث دُستها أقدامهم. ونحن لا ننكر أن هذه التربة الطاهرة قد ارتوت من دماء المجاهدين، فهي كانت ولا زالت تشكّل بؤرة صراع بين الحقّ والباطل، لكن لا يمكن أن يرفع العار عن جباه المسلمين حتى يستردّوا

(١) انظر: مسند أحمد ٦: ٣٧٣، ٣٧٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤١٨، صحيح مسلم ٨: ٢٠٤، سنن ابن

هذه الأرض الطاهرة ويسترجعوها من أيدي اليهود الغزاة الكفرة. والقرآن الكريم يعطينا هذا الوعد ويذكرنا أن هذه التربة.. تربة بيت المقدس ستكون مرتع الصالحين من عباده.

الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة

فالمقصود بالأرض التي سيرتها الصالحون وفق هذا الرأي هي كل هذه الأرض التي نعيش عليها. لكن لنا أن نتساءل: كيف يرثها الصالحون؟ وما معنى هذه الوراثة؟ هل معناها أن هناك من يملك الأرض ولا يعلم ما الذي أودعه الله تعالى فيها ولا كيف يستثمرها، وأن الذي يعرف كيف يستثمرها هو الذي سيرتها؟

أقسام العوامل البيئية

ولكي أقرب لك هذا المعنى أقول: إن علماء البيولوجيا يقسمون عوامل البيئة إلى قسمين هما:

الأول: العوامل الجامدة (Physical factors)

وهي عوامل البيئة الجامدة وإنما سميت عوامل جامدة؛ لأن المقصود بها خواص الأرض التي تشكل النصف الأكبر من عوامل البيئة، وهي الحرارة والهواء والجاذبية وخواص التربة ومكونات الأرض وتضاريسها.

الثاني: العوامل الحية (Living factors) ^(١)

والمقصود بها الأحياء التي تعمر الأرض، وهي التي يعبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ^(٢)، فيأتي الفلاح ليبذر البذرة

ويذهب وهو لا يعلم ما الذي يحصل بعد ذلك من عوامل تخدم هذه البذرة حيث إنها تخدمها المليارات من البكتريا الموجودة في جوف الأرض، وهي تهيئ لها الأسمدة والأملاح. ثم إن مكونات التربة المغذية للنبات تستخرج وتحضر معملياً حيث يحقن بها النبات ومنها الأوكسينات والفايتمينات وغيرها، وكل هذا دلّتنا عليه الكشوفات العلميّة التي اضطلع بها أهلها.

كما أن هناك أشياء أخرى بعضها قد يكون غريباً كاستخراج الماء من الأرض، وهم أشخاص موهوبون، وأولهم «بازل فالتيني» الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يحمل عصا يستدلّ بها على وجود الماء تحت الأرض. ثم جاءت من بعده الكشوفات العلميّة الحديثة التي تتعرّف على مواقع المياه الجوفية.

فهؤلاء هم الذين يستفيدون من الأرض وليس نحن الذين لا نستطيع أن نستخرج المعادن منها، ولا أن نستثمرها، ولا نعرف نوع الزراعة التي تصلح لها. إذن فالذي يعرف هذه الأشياء هو المالك الحقيقي للأرض، وليس نحن. فقلوه تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ تعبيره واضح في أن وارث الأمر هو الذي يملك الاستعداد لاستثمارها.

وهذا الرأي نقله أحد الكتّاب في كتابه (بدع التفاسير)، وحمل على صاحبه حملة شديدة، واتّهمه بأنه يدعو الاستعمار إلى احتلال أراضينا، ووصفها بأنها دعوة مقنعة للاستعمار. لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تسبق الاستعمار وتستخرج خيرات الأرض وما فيها من معادن وغيرها؟ ولماذا لا تستثمر البيئة بكل ما فيها وقد سخّرها الله تعالى لك؟ إننا نتمنى أن نجد من أبنائنا هذا الحرص، وأن نجد فيهم من يستثمر خيراتنا ولا يدع الأجنبي

يدخل بلادنا ليستثمرها هو. لكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بالواقع المرّ الذي نعيشه، والذي يجب أن نتأقلم مع آثار الاعتراف به، إننا لا نستطيع بما نملك من إمكانات أن نستثمر هذه الخيرات التي منحنا الله تعالى إياها، فيجب أن نشمّر عن السواعد وأن نتوجّه إلى استثمارها والاستفادة منها. وإلا فإن من غير الصحيح أن يتفضّل الله تعالى علينا بكلّ هذه النعم ولا نتوجّه إلى الاستفادة منها، فبلادنا مليئة بالكنوز ونحن غافلون عن استثمارها. فهل إننا لا نعرف كيف يتم ذلك، أم أن القسم الأكبر منا لاهون عنها بالصراعات المحتدمة فيما بينهم، وتكفير بعضهم البعض. فالواجب أن نتوجّه إلى الجانب المهم من المسألة الذي يرتبط بوجودنا مباشرة، وأن نشغله بما يسده ويصبّ في مصلحتنا.

فهذه الحملة ليست في محلّها أبداً، فالأرض فعلاً هي التي يجب أن يرثها الصالحون الذين يعرفون كيف يستثمرونها وكيف يوجّهون الطاقات المخزونة فيها، والكنوز المودعة بها في خدمة الإنسان والبلد. ولا شك أن هؤلاء الصالحين هم الذين سيرثون الأرض ومن عليها، وسيأخذونها منا شئنا أم أئبنا، ولن يبقى لنا سوى الاسم، أي أنها ستكون حينها أرضنا بالاسم فقط، لكن الغير هو من يستثمرها ويأخذ من عطائها ما لا تقوى نحن على حصره ومعرفته والإفادة منه.

وهذا في الواقع شيء مؤلم، والمسلمون بأجمعهم مدعوون إلى أن يتصرّفوا بما منحهم الله عزّ وجلّ من ثروات وخيرات تصرّفاً لائقاً يتناسب مع ضمان هذه الثروات، وأن يتعلّموا كيف يستغلّونها، وكيف يفجّرون خيرات الأرض ويستنبطونها ويصنعونها ويوجّهونها لما فيه خيرهم وخير دينهم

وخدمته. وليعلم بأن الأمم الأخرى تحسدنا على ما عندنا من ثروات حسداً عظيماً، فكيف يمكننا أن نتقي هذا الحسد؟ إن من الممكن أن نتقيه بالجد وبذل الوسع والطاقة في تحصيل المعارف والعلوم، والله تعالى قد دفعنا إلى العلم وتعلّمه، ولم يخصّ ذلك بعلم من العلوم^(١).

العلم ليس للأديان والأبدان فقط!

وقد رأيت بعض الكتّاب الإسلاميين الذين يتناولون هذا الجانب يقولون: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، والمقصود بهما العقيدة والطب، لكن لنا أن نسأل: هل إن الاجتماع والفيزياء والكيمياء والنفس والفضاء ليست علوماً؟ يقول الرسول الأكرم ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به. وإنه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء»^(٢). وهذا لا ينافي أي علم من العلوم التي تخدم الإنسانية، فكل واحد منها بحدّ ذاته يعدّ علماً محبوباً إلى الله. إذن ماهو الداعي إلى حصر العلوم بهذين الجانبين فقط؟

ومن هذا نعلم بأننا مدعوون إلى الاستفادة من طاقاتنا الذهنية والبدنية؛ كيلا نسمح لها أن تذهب إلى أيدي غيرنا، وهو ما يحصل الآن. وما يجري في بعض البلاد الإسلامية الغنيّة شيء يؤسف له؛ حيث تجد أحدهم لا ينزل إلى

(١) قال عزّ من قائل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ الرحمن: ٣٣.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

عمل من الأعمال البدنية المرهقة في حين أننا نرى هذا الذي كان يعيش في جنة من الجنان يأتي بهذا الحرّ الشديد الذي ربما يصل إلى ٥٠ ٪، وينزل إلى بئر عمقها سبعون متراً ثم بعد ذلك يخرج ملطّخاً بالزيوت والأوساخ من أجل أن يعمل وأن يستثمر طاقاته وقدراته وطاقات الأرض وقدراتها، وهو إلى ذلك يملك قلباً من أروع ما يكون، في حين أننا نأنف من هذا العمل، ونحاذر أن تتسخ ثيابنا أو أن يصيبها الغبار. كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج من المسجد ثم يمرّ بميثم عليه السلام ويشترى منه شيئاً من التمر، ثم يحمله بيده الشريفة، فيتلقاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر، فيقول: «ربّ العيال أحقّ بحمله»^(١).

فانظر إلى هذه العصامية الرائعة التي تمثّل لنا أروع درس عملي في أن نتولّى زمام أمورنا بأنفسنا، وأن نباشر حاجاتنا دون الاتكال على غيرنا. أما المتبطّرون كما يروى^(٢)، فينادي أحدهم - وهو المأمون - غلامه ويأمره بأن يصبّ الماء على يده ليتوضّأ، فنهاء الإمام الرضا عليه السلام وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).

إذن فالأرض إنما يرثها من حمل العلم والفكر والمعرفة. وهذا هو الذي يحصل على أرض الواقع؛ فالأرض الآن مليئة بالخيرات ولم يستثمرها ويوصلها إلى ما هي عليه الآن غير العلماء.

(١) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.
 (٢) الإرشاد: ٣١٥، وسائل الشيعة ١ : ٤٧٨ / ١٢٦٩.
 (٣) الكهف: ١١٠.

الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون هي الأرض التي تكون في زمان دولة الإمام المهدي عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام سيملوها عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. فالأرض مرت على امتداد تاريخها الطويل بأزمان سيطرت فيها الانحرافات والظلم والفساد، فالذي ينبغي أن يكون إذن هو أن يسيطر عليها زمان العدل والقسط. وهذا هو لسان الحديث النبوي الشريف الذي يفسر لنا هذه الآية، تروي كتب الصحاح أن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(١).

وهذا ما عليه المذاهب الإسلامية كافة. روى الثعلبي في تفسيره أن الرسول الأكرم ﷺ قال: «نحن ولد عبد المطلب سادة الجنة؛ أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي»^(٢). فبأي معنى وبأي صفة يكونون سادة الجنة؟ طبعاً بما يستحقون به ذلك كنتيجة طبيعية لما قدّموه من عطاء للإنسانية. فإمامنا الذي ننتظره يستحق أن يكون من سادات الجنة، يقول

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩/٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣/٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطول الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجه ٢: ٩٢٩/٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩-٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبان ١٣: ٢٨٣-٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٢) عنه في بحار الأنوار ١٥: ١٠٣، وانظر: سنن ابن ماجه ٢: ١٣٨٦/٧٠٨٧، المستدرک على الصحيحين ٣: ٢١١، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الحديث الذي يرويه أبو داود وينتهي إسنادُه إلى أبي هريرة: «كيف بكم إذا نزل عيسى بن مريم وإمامكم منكم يصلي به»^(١).

يقول عيسى بن صبيح: دخل العسكري عليه السلام الحبس علينا وكنت به عارفاً، فقال لي: «لك خمس وستون سنة وشهر ويومان؟». وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثم قال: «هل رزقت من ولد؟». قلت: لا. قال: «اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً؛ فنعم العضد الولد». ثم تمثل: «من كان ذا ولدٍ يدرك ظلامته إن الذليل الذي ليس له ولدٌ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: «إي والله، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا». ثم تمثل وقال:

«لعلك يوماً أن تراني كأنما
بني حواري الأسود اللوابد
فإن تميماً قبل أن تلد الحصى
أقام زماناً وهو في الناس واحد»^(٢)
وفعلاً رزقه الله إمام العصر الموعود المنتظر عليه السلام الذي تتوق إليه أبصار المؤمنين.

التشكيك بقضية المهدي عليه السلام

إن من يظن أننا نعيش في حالة من الوهم أو الخيال لاعتقادنا بمسألة المهدي المنتظر عليه السلام، أو أننا نعيش حالة تعويض^(٣) كما هو دأب الكثير من

(١) لم نعثر عليه عند أبي داود، وقريب منه ما في سننه ٢: ٣١٩ / ٤٣٢٤، وهو مروى في الإصابة ٤: ٦٣٧. وقد نقل في فتح الباري ٦: ٣٥٨، عن الشافعي، وفي عون المعبود ١١: ٣٠٧ أن الأخبار متواترة في نزول النبي عيسى بن مريم عليه السلام وصلاته خلف الإمام المهدي عليه السلام، بل في (عون المعبود) أنه عليه السلام ينزل بجسده العنصري.

(٢) الخرائج والجرائح: ٣١٩، كشف الغمّة ٣: ٣٠٧.

(٣) أو ما يسمى بإيجاد المعادل الموضوعي.

الكتاب فإنما يخادع نفسه؛ لأن قضية المهدي عليه السلام ثابتة بالسنة المتواترة عند الفرق الإسلامية كافة. إن هؤلاء الكتاب يطرحون هذه الفكرة، وهي أن الشيعة قد مرّوا بتاريخ تعرّضوا فيه إلى إبادة وسجن، مما أدّى بهم إلى أن يكونوا تحت سيطرة حلم من أحلام اليقظة، أي أنهم راحوا يعوّضون الواقع المرّ بالأحلام فيتصوّرون أن هؤلاء الظلمة ستدول دولتهم؛ لخروج من ينتقم منهم ويأخذ بحقّهم لهم. وهذا ما يسمى بعملية التعويض.

والواقع أن الأمر خلاف ذلك؛ إذ أن جميع المذاهب الإسلامية يقولون بأن من لم يؤمن بالمهدي فهو كافر. بمعنى أنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين، وكلّ الكتاب الذين هم على علم بمعرفة علوم الشريعة حينما يتناولون موضوع الإمام المهدي عليه السلام فإنهم يتعاملون معه على أنه حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها، وكل ما في الأمر أنهم يقولون بأنه غير موجود الآن، وأنه سيولد بعد ذلك في آخر الزمان.

أما بناء على نظريتنا - من أن الأرض لا تخلو من حجة ^(١)، وأنه ليس من الضروري أن نلتقيه أو نراه - فإنه عليه السلام مولود حي غائب. والاعتراض بكونه غائباً وبالتالي يكون وجوده كعدمه من جهة عدم إمكان الالتقاء به لا ينهض حجة ومبرراً لنقض فكرة الإمام المهدي عليه السلام؛ فنحن في هذا الزمان نعيش في بلد ونرجع إلى علماء يعيشون في بلد آخر، وتفصلنا عنهم مسافات بعيدة،

(١) الأصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢/٤٥، ٢٣٤/١٩٣، ٢٣٦/٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨/١، ٤٨٩/٤، ٥٠٥-٥٠٦/٤، ٩-١٠، ١٥، ١٧/٥٠٧، ٨/٥٠٩، الإمامة والتبصرة: ٢٥/باب أن الأرض لا تخلو من حجة، الكافي ١: ١٧٨ - ١٨٠/باب أن الأرض لا تخلو من حجة.

ومع ذلك فإننا ننتفع بعلمهم وآرائهم ونظرياتهم. فغيبية الإمام عليه السلام هي غيبة عن الأبصار وليست غيبة عن الوجود. وهنا الفرق واضح؛ إذ أنه ربّما حضر مجالس العلماء وطرح رأيه وفكره في مسألة ما مع أفكار وآراء العلماء، وبالتالي فإننا نستفيد منه ومن وجوده.

وهذا ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تأخذ بأعناقنا وتخبرنا بأنه موجود يعيش بين ظهرانينا ويشكل مصدر أمان لأهل الأرض: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(١).

وإذا كانت هذه هي العلة بالنسبة للنبي ﷺ، فالإمام عليه السلام هو امتداد للنبي وامتّم لخطّه، وقد جعله الله أماناً لأهل الأرض، يقول الحديث الشريف: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون»^(٢).

فهذه النصوص ونظائرها تأخذ بأعناقنا للاعتراف بوجود الإمام عليه السلام، وأنه حقيقة قائمة وواقعة، وهو يعيش بيننا؛ وبالتالي فإننا لا نجتزّ الأحلام ولا الخيالات، ولا نقوم بعملية تعويض، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه الكتب ملأى بالنصوص التي تؤكد هذه الحقيقة. ولا يكاد أحدنا يجد كتاباً لا يتناول فكرة الإمام المهدي عليه السلام ويشرحها ويثبتها.

وهذا ما عليه المسلمون كافة، ومن لا يعرف هذه الحقيقة أو ينكرها فهو

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ - ٢٣، نوادر الأصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦، ٦٣ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

لا يعرف كيف ينظر إلى التاريخ، بل ليس هذا عمله.

دليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام

إننا الآن ندين بالإسلام ونؤمن برسالة نبيّنا ﷺ عن طريق التواتر، ومعنى التواتر هو وجود جماعة في كل زمان يؤمن جانبهم من التواطؤ على الكذب، فيخبرون بشيء، ويكون إخبارهم هذا المتواتر حجة ودليلاً على صدق القضية^(١). ومثال ذلك أنك تعيش هنا فيأتيك شخص يحدثك عن مدينة اسمها «ديترويت»، ثم يأتيك ثانٍ فيحدثك عنها بمثل ما حدثك عنها الأول، ثم يأتي ثالث فيحدثك عنها أيضاً بمثل ما حدثك به سابقه، فإنك حينئذ تصدّق بوجودها وإن كنت لم ترها؛ لوجود التواتر هنا. فالتواتر إذن هو ما يكون من طبقة عن طبقة يتعذر تواطؤهم على الكذب.

إذن فنحن إنما أخذنا علوم الإسلام بالتواتر، وكذلك أخذنا رواية الإمام المهدي عليه السلام بالتواتر أيضاً. وبالنتيجة فالإمام المهدي عليه السلام هو الذي يرث الأرض ليملاها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويرفع فيها كلمة الله عز وجل، وينشر بيننا القرآن الكريم غصاً طرياً أي من غير تلاعب بمفاهيمه ولا عبث وتحريف بتفسيره؛ لأنه عليه السلام هو المنبع الذي يشرح علوم القرآن.

ونحن نقول له: سيدي يا صاحب العصر، إن أعناقنا إليك ممتدة، وأبصارنا إليك شاخصة، يقول أحد الأدباء:

شخصنا إليك بأبصارنا شخوص الغريق لمرّ السفن

فالواقع نحن غرقى في بحر مظلم، وننتظر فيه من يخلصنا فتوجّه إليه،

(١) انظر اصطلاحات الأصول: ١٤٢.

لكن متى يأذن الله تعالى له؟ هذا ما لم تحدّده الروايات، نعم إنها تعطينا
علائم على ظهوره لكن نحن تواقون إلى رؤياه، ومنتظرون طلعه الرشيدة
وغرته الحميدة. وهذا الانتظار لا يعني تعطيل حكم من أحكام الله، وأرجو
ألا يختلط الأمر عليكم، فنحن الآن نقول بأن الجهاد واجب سواء وجد
الإمام بيننا أو لم يوجد، رأيناه أو لم نره، وأعمالنا في الدنيا كلّها نحن
مكلّفون بها. ففكرة الإمام عليه السلام وغيبته لا تعيقاننا عن أداء واجبنا وعباداتنا،
ولا تحولاننا إلى مجتمع مشلول أبداً.

وغاية ما في الأمر أننا نرنو الإمام عليه السلام ونتوق إليه؛ لأننا نريد منه أن يقيم
العدل وأن يضع الأشياء في مواضعها، غير أن أمر خروجه لا يكون حتى
يأذن الله. يقول أحدهم: رأيت في عالم الرؤيا شخصين، فسألت عنهما فقيل
لي: هذا الإمام المهدي عليه السلام وهذا الذي إلى جانبه هو السيد حيدر الحلي.
يقول: فسمعت الإمام عليه السلام يخاطب السيّد الحلي بقوله: يا سيد حيدر، كفاك
عتباً؛ فلقد قصمت ظهري إذ تلحّ علي بالعتاب:

ماذا يهيجك إن صبر	ت لوقعة الطفّ الفظيعة
أترى تجيء فجيرة	بأمرض من تلك الفجيرة
حيث الحسين على الثرى	خيل العدى طحنت ضلوعة
قتلته آل أمية	ظام إلى جنب الشريعة
ورضيغه بدم الوري	مخضب فاطم رضية
يا غيرة الله اهتفي	بحمّة الدين المنية
وظلّبا انتقامك جردي	لطلا ذوي البغي التلية

ودعي جنودَ الله تم لأ هذه الأرض الوسيعة^(١)
 فالإمام عليه السلام يقول له: أنت تلح عليّ بهذا الأمر، وإلحاحك يؤلمني، غير أنني
 لا أملك من أمري شيئاً، فأنا أنتظر فيه أمر الله تعالى. ولذا فإن السيد عليه السلام
 يخاطبه كل يوم بقوله:

فيما اعتذارك للنهوض وفيكم للضميم وسم فوق كل جبين
 أيمنكم فقدت قوائم بيضها أم خيلكم أضحت بغير متون^(٢)
 يقول المؤرخون: إذا خرج الإمام المهدي عليه السلام يأتي أولاً إلى ضريح أبي
 عبد الله عليه السلام، فيقف عليه قليلاً ثم يجلس ويمدّ يديه، فيستخرج عبد الله
 الرضيع، ثم يعرضه على أصحابه، فيقول لهم: «ما ذنب هذا الطفل الرضيع،
 يقتل وهو على يدي أبيه؟».

أقول له: سيدي أنت رأيت الأمر بعد الواقعة، وبعد هذه المدة الطويلة
 وتأثرت كل هذا التأثير، فكيف سيكون الأمر لو أنك رأيت لحظتها، وجدك
 الحسين يحمل رضيعه على يديه وهو يضطرب على عضديه ودماؤه تسيل؟
 نعم رجع به الحسين عليه السلام إلى المخيم ثم صاح: «رباب، خذي ولدك مذبحاً».
 فتناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة:

ولو تراه حاملاً طفله رأيت بداراً يحمل الفرقدا
 مخضباً من فيض أوداجه ألبسه سهم الردى مجسداً^(٣)



(١) رياض المدح والثناء: ٣٢. (٢) ديوان السيد حيدر الحلّي: ١١١.
 (٣) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم
 الوسيط: ١٢٢ - جسد.

الجوانب التصحيحية في نهضة الحسين عليه السلام

أنست رزئيئكم رزايانا التي

سلفت وهؤنت الرزايا الآتية

وفجائئ الأيام تبقى مدة

وتزول وهي إلى القيامة باقية^(١)

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: استنباط العبر من السنن التاريخية

في تاريخ كل أمة أحداث بطبيعة الحال تعدّ أحد الأنماط التي تحدّد مسيرتها. وحينما نتناول التاريخ الإنساني فإننا نجد أن هناك أحداثاً في تاريخ كل أمة من الأمم، وهذه الأحداث منها ما يدخل في مظاهر الخير ومنها ما يدخل في مظاهر الشرّ. والأمة الواعية هي التي توظّف الحدث توظيفاً كاملاً للاستفادة منه في استنباط العبر ودراسة السنن. إن البعض من الأمم إذا مرّت بها مصيبة فإنها تتحوّل إلى أمة نائحة، وتبقى تجترّ المصيبة وتعتصر الدمع، في حين أن هناك أمة لا تأخذ الجانب المأساوي من المصيبة، بل إنها توظّف الحدث وتستثمره على الصعيد الاجتماعي فتأخذ منه

(١) الدرّ النضيد: ٣٥٧.

الدروس والعظات. ولو درسنا التاريخ الفرنسي أو الإنجليزي أو الأميركي لوجدنا أنه تاريخ مليء بالحروب والأحداث التي يمكن للدارس أن يخرج منها بحصيلة ضخمة من الدروس والعبر التي يمكن أن يوظفها للاستفادة منها على مستوى الأمة ككل.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على واقعة الطفّ، حيث إنها - شأنها شأن كلّ واقعة تحصل في تاريخ الإنسانية - تعتبر إحدى الوقائع التي هزّت الإنسانية والمجتمع الإسلامي هزّاً عنيفاً، وهي بهذا تختلف عن بقية الوقائع؛ لما ارتكب فيها من بشاعات وفظاعات. وقد تركت هذه الواقعة بصمات واضحة على المجتمع الإسلامي لازالت آثارها موجودة إلى الآن، حيث يمكن مشاهدتها بوضوح.

والدليل على هذا أن الأدب قد توجّه بكل عناصره ومشاعره أصحابه إليها، والأدب عادة لا يتوجّه إلى فكرة عابرة، ولا يستمدّ منها صوره أو عناصره، بل إنه يتوجّه إلى الفكرة المعمّقة :

وفجائع الأيام تبقى مدّة وتزول وهي إلى القيامة باقية

فهذه ليست كلمة عابرة، وإنما هي كلمة تنطوي على معاناة كبيرة يحاول الأدب أن يبرزها على ساحتها.

الانطباعات التي تركتها واقعة الطفّ

والواقع أن هذه الحادثة الأليمة التي مرّ بها تاريخ المسلمين قد تركت آثارها وانطباعاتها على جوانب متنوّعة منه؛ ممّا انعكس على حياته وطريقة تفكيره. وسنحاول أن نستفيد منها من خلال محاضرتنا هذه. ونذكر من هذه الجوانب الانطباعات التالية :

الانطباع الأول : أنها أوجدت تياراً ثورياً في الأمة

إن هذه الواقعة المباركة قد أوجدت تياراً ثورياً في الأمة الإسلامية يدور حول مسألة الثأر للدين ولكرامته. وكل أمة من الأمم حينما تتعرض لهزة أو أزمة فإنها تقف بين أحد طريقين: الصبر والسكوت؛ حفظاً لمصلحة المجتمع، أو الجهاد في سبيل الله وسبيل الدين. وهذه الواقعة تبرعت وأخذت صوراً عنيفة جداً، ويعود ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

الشعور بالإنثم ودوافعه

فالأمة التي شهدت مقتل الحسين عليه السلام وأصحابه وسبي عياله وهتك حرمة رسول الله ﷺ، ووقفت مكتوفة الأيدي دون أن تتدخل للوقوف بوجه البغي، ولنصرته مع ما تعرض له عليه السلام من ظلم وقتل؛ سواء كان بدافع الجبن أو بدافع التخاذل أو تحت ضغط عوامل قاهرة أقوى منها، فإنها ستشعر بعد ذلك بشيء من الندم والألم وتأنيب الضمير. فالضمير عندما يصحو ويثور على صاحبه فإنه يأخذ بتعنيفه وإلقاء اللوم عليه لأنه لم يجاهد في سبيل الله، ولم يؤد ما يفترضه عليه دينه ورسالته، ولم يقف الموقف الذي يريده الإسلام منه ويرضاه له. فهذا التوبيخ الذي يقع تحته الإنسان يدفعه إلى التحرك؛ مهما كانت دوافعه التي قد تكون ناشئة عن مظاهر فكرية، أو مظاهر ممارسة وتطبيق من قبيل حركة التوايين مثلاً.

الدوافع الفكرية، موقف الحسن البصري نموذجاً

أما المظاهر الفكرية فمن قبيل ما نجده من خلاف فكري قد تبرعم بين مذاهب المسلمين، وقد حاول الأمويون بشتى الوسائل تطويق هذا اللون من

الفكر الذي يبنى عليه رفض الظلم والثورة عليه، وامتصاص جذوته عن طريق توظيف رجال منهم - رجال العلم التابعين للبلاط - لمحاربته. وذلك كالحسن البصري الذي كان يعد سيّد التابعين كما منحه التاريخ هذا اللقب، والحال أنه لم يكن سوى رجل من المقاتلين في جيوش الأمويين، ثم وُظف كقاضٍ، ثم بعد ذلك ترك تلك الوظائف وأصبح في عداد العامة.

وكان هذا الرجل من جملة من وُظفوا لمعالجة هذا الأمر، فقد وقف ينادي من على منبره بعدم مقارعة الظلم، ويدعو الناس إلى الامتناع عن التحرك وإلى طاعة السلاطين، ثم راح يبرّر هذا الموقف ويبرهن عليه بأن مسألة مقارعة الظلم تخلق مشكلة في المجتمع وتفرز نتائج يكون مردودها أشدّ وأكبر من الظلم نفسه، وعليه فيجب أن تترك مقارعة الظلم مطلقاً. وقد راح يلحّ على هذه الفكرة إلحاحاً شديداً إلى درجة أن أحد الكتّاب كان يقول عنه: إن هذا الرجل قد جنى جناية كبيرة على تاريخ الإسلام بإبطاله معنى الجهاد في نفوس المسلمين، وقضائه على روح التوثّب والتمرد الذي كان عند أبناء الأمة الإسلامية، والحال أن الإسلام لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بالجهاد والروح المتوثّب وتجسيد كلمة الله.

لقد كان النبي ﷺ يستعرض المسلمين قبل أن يذهبوا إلى الجهاد لكي يرى المقاتلين هل أنهم صالحون للجهاد أم لا، فيأتي صبي ويقف على مرتفع ويتناول لكي يراه النبي ﷺ كبيراً فلا يمنعه من الجهاد^(١).

(١) ومثلها قصة حنظلة غسيل الملائكة الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ

إن هذه الحالة لم تأت من فراغ، وإنما جاءت بتوجيه مقصود؛ لأن المفروض في مثل هذه الحالة أن هذا الصبي لازال في مقتبل الحياة، وهو مقبل على دنيا واسعة جميلة في عينه، فالنتيجة يجب أن تكون بناء على هذا التصور أن يتخلف هذا الصبي عن الجهاد وإن دُفع إليه، لا أن يتناول كي يبدو كبيراً وبالتالي يسمح له رسول الله ﷺ بالذهاب إلى الجهاد. فهذا هو التصور الأولي للمسألة، لكن هذا الصبي لما كان مقتنعاً بمسألة الجهاد وأنها كانت تمثل شيئاً مبدئياً له، فقد انعكس هذا الفهم والاعتقاد على سلوكه فصار بهذا الوضع من العزم والحزم، وبهذا اللون من الإيثار بالنفس الذي خلقه الإسلام للجهاد في سبيل الله والوقوف في وجه الظلم ولإعلاء كلمة الله. أما أن يأتي شخص فيحاول أن ينتزع هذا الروح من جسم الأمة الإسلامية فهذا يعدّ كارثة كبيرة، وسهماً يضرب في مقتل.

﴿لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٦٢ إلى آخره.

وسبب نزولها فيه أنه كان قد عقد له على ابنة خاله جميلة بنت عبد الله بن أبي، وأراد أن يبنّي بها فلما كانت الليلة التي وقع في صبيحتها القتال في أحد، استأذن من رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة؛ ليبنّي بزوجته، فأنزل الله على نبيه ﷺ هذه الآية الكريمة، وعلى إثر نزولها أذن له رسول الله ﷺ واستغفر له.

فدخل المدينة، وبنى بابنة خاله، فلما حضر وقت صلاة الفجر صلاها فتعرّضت له زوجته، فنال منها، ثم قام؛ ليغتسل، فسمع المنادي ينادي بالخروج إلى أحد، فعجل عن الغسل وخرج، فتبعته وأشهدت عليه أربعة من مارّة الطريق بأنه قد بنى بها البارحة.

ولما سئلت: لم فعلت ذلك؟ قالت: إني رأيت في نومي كأن السماء قد انفرجت، وكأنه قد رفع إليها فانضمت عليه، فعلمت أنها الشهادة، وقد كرهت أن اتهم فعلت ذلك. ثم حملت من تلك الليلة بعبد الله بن حنظلة الذي بايعه أهل المدينة، وخلعوا يزيد بن معاوية، فكانت بسبب ذلك واقعة الحرّة التي قتل فيها هو وأولاده الثمانية، وأبيحت بسببها المدينة ثلاثة أيام. انظر: تفسير القمي ١: ١١٨، بحار الأنوار ٢٠: ٥٧.

والأدهى من ذلك أن هذا الأمر قد ألبس ثوباً دينياً، فاختلقت له الأحاديث واخترت له الروايات التي اخترعوها ثم نسبوها إلى صاحب الشريعة ﷺ. وقضية اختلاق الأحاديث هي من أشد الكوارث التي منيت بها الأمة الإسلامية، وكمثال على هذا أنقل لك ما رواه الدميري في كتابه (حياة الحيوان) حيث يقول: حينما توفي عمر بن عبد العزيز - هذا الرجل المستقيم في سلوكه، والذي كان موضع رضا من كثير من المسلمين، وكان نموذجاً مشرفاً - جاء من بعده يزيد بن عبد الملك، فسار بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً ومشى على خطه الذي اختطه وسار بعين اتجاهه، فكان يكره الظلم والباطل ويعيد للناس حقوقهم، وكان يتصف بروح مملوءة بالرافة بالمجتمع. فلما رآه بعض الأمويين على هذه الحال، اتفقوا على أن يأتوه بأربعين شيخاً من شيوخ دمشق يشهدون عنده ويحلفون بالله له أن الخليفة إذا عمل عملاً حسناً أثيب عليه وإذا عمل عملاً سيئاً لا يعاقب عليه، واخترعوا له حديثاً عن النبي ﷺ في هذا المعنى، فترك ما كان عليه من صلاح، وجانب سيرة عمر بن عبد العزيز، وانغمس في العبث واللهو واللذائذ والفجور والمجون^(١).

إن هذا اللون من الأحاديث أخذ طابعاً متكاملاً يعضد بعضه بعضاً، وربما تستغرب أن بعض هذه الأحاديث لازال يعيش معنا إلى الآن، ومنها القول المنسوب لرسول الله ﷺ: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ».

وهذا الحديث مروي في كتب معتبرة عندهم، ومنها (السنن الكبرى)^(٢)

(١) حياة الحيوان ١: ١٠١.

(٢) السنن الكبرى ٤: ١٩، عن مكحول عن أبي هريرة، وتماه: «وَصَلُّوا عَلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ».

للبيهقي، وهو يرويه بطرق كلها واهية ليس فيها سند صحيح^(١)؛ فالذي عنده دراية في كتب الرواية يجد أن الأسناد التي ذكرها البيهقي كلها أسناد واهية وليست قوية. وفضلاً عن هذا فإن هذا الحديث يتعارض ويصطدم مع حديث نبوي آخر، وهو الحديث الذي يقول: «اجعلوا أيمتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»^(٢).

وهذا طبيعي؛ لأن الإنسان حينما يريد أن يأتّم بشخص، فلا بدّ أن يبحث عن هذا الإمام ويحقّق في صفاته، كي يميز الفاسق لئبتعد عنه من العادل فيتّبعه، وإلا فكيف يصحّ له أن يأتّم بالفاسق؟
إن هذا الحديث قد اخترع؛ لأنه يتّم ما سبقه من أحاديث موضوعه كلّها

وجاهدوا مع كلّ برّ وفاجر». قال: قال علي: مكحول لم يسمع من أبي هريرة... وقال الشيخ: قد روي في الصلاة على كلّ برّ وفاجر، والصلاة على من قال: «لا إله إلا الله» أحاديث كلّها ضعيفة غاية الضعف، وأصحّ ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة، أي حديث المتن. ولا ندري كيف يكون أصحّ ما روي في هذا الباب، وراويّه لم يرو عن أبي هريرة. ولم يسمع منه!

(١) انظر: سنن الدارقطني ٢: ٤٤، قال الدارقطني: مكحول لم يسمع من أبي هريرة.
نصب الراية ٢: ٣٣، ونقل عبارة البيهقي، ثم قال: ومن طريق الدارقطني رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية)، وأعلّه بمعاوية بن صالح مع ما فيه من الانقطاع... والحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد [١: ١٤٣ / ٥٩٤]، وضعّفه بأن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة.

ومن طريق أبي داود رواه البيهقي في (المعرفة)، وقال: إسناده صحيح إلا إن فيه انقطاعاً بين مكحول وأبي هريرة... ومن طريق الدارقطني رواه ابن الجوزي في (العلل) وأعلّه بعبد الله، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن حبان: لا يحلّ كتب حديثه.
وقال ابن الجوزي: وسئل أحمد عن حديث «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»، فقال: ما سمعنا به.
نصب الراية ٢: ٣٤.

(٢) سنن الدارقطني ٢: ٧٤، الجامع الصغير ١: ٣٤ / ١٨٦، كنز العمال ٧: ٥٩٦ / ٢٠٤٣٢.

تصبّ في مصبّ واحد هو التسترّ على أعمال هؤلاء الحكّام الفجرة الذين أُتيح لهم أن يقودوا المجتمع.

فكيف يستقيم أمر التسترّ على أعمال هؤلاء مع أنه يصطدم مع ما يقوله رسول الله ﷺ: «اجعلوا أيّمتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»؟ وهل يصحّ التسترّ على مثل الوليد الذي يغطس في بركة من الخمر، ثم يخرج ثملاً يترنّج، ويتوجّه إلى الصلاة، ويصليّ بالمسلمين جماعة ثم يرفع يديه وينشد شعراً في قنوته فيقول:

علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا

ومن ثم يتقيّاً في محرابه؟^(١)

والغريب أن صلاة هذا من وجهة نظر طائفة كبيرة من المسلمين صحيحة ومقبولة، بل حتى صلاة المصلّين خلفه؛ لأنهم يدّعون أنه ﷺ قال: «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر».

وهذا يعدّ نكسة في تاريخ الإسلام، فالإسلام ليس مجموعة من المواعظ البلهاء، وإنما هو هديّة السماء لأهل الأرض؛ لأجل بناء الإنسان بناء طاهراً، وبناء المجتمع بناء متكاملاً. ولا يمكن للإسلام أن يتاجر في عقيدة الإنسان

(١) وكان قد صلى بهم أربعاً ثم التفت إلى الناس، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم. وقال الحطيئة في ذلك:

شهد الحُطَيْئَةُ يوم يلقى ربّه	أن الوليد أحقُّ بالغدرِ
نادى وقد تَمَّتْ صلاتهم	أزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا	لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو	خلّوا عنانك لم تزل تجري

مسند أحمد ١: ٨٢، ١٤٠، مروج الذهب ٢: ٣٤٤-٣٤٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٣٠.

ويحوّلها إلى تصوّر أبله، فيصحّح عمل هذا المستهتر الماجن. إن مثل هؤلاء الذين يخترعون الأحاديث عن النبي ﷺ موجودون في كلّ طبقة، ولا يكاد يخلو منهم عصر من العصور أبداً، ففي كل عصر نجد هناك طبقة ليس لها وازع من دينها، أو مانع يمنعها من أن تفتري الكذب على الله ورسوله ﷺ، أو تتاجر بدينها وعواطفها، أو قد تتملق صاحب الحكم والسلطان.

روي أن أبا جعفر المنصور الدوانيقي كان له بقايا حساب مع الأمويين، فكان يلاحقهم في كلّ مكان، ومن جملة هؤلاء الملاحقين شيخ من أهل الشام كان بطانة لهشام ونديماً له، فوجّه إليه وأحضره عنده، ثم سأله عن تدبّر هشام في بعض حروبه للخوارج، وقال له: إني أريد أن أستفيد من تجارب هشام هذا. فوصف له الشيخ ما دبّر هشام في حربهم، فكان يقول: فعل هشام (رحمه الله) كذا، وصنع (رحمه الله) كذا، وقام (رحمه الله)، وجلس (رحمه الله). فقال له المنصور: يابن اللخناء، قم عليك لعنة الله؛ تطأ بساطي وتترحم على عدوي؟ فقال الرجل: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي.

ثم ناداه المنصور وقال له: ارجع يا شيخ. فرجع فقال له: أشهد أنك نهيض حرّ وغراس شريف، عد إلى حديثك لله أنت، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلّداً وذكرأً باقياً^(١).

فالمنصور بهذا كأنه يقول له: إن بإمكانك أن تناقني ولا تصدق معي في الحديث، لكنك آثرت أن تكون صريحاً وفتياً، وهكذا فلتكن الرجال.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ٢٠٩، المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٣٩.

فهؤلاء الذين يخترعون أحاديث مكذوبة لولاية السوء هم في واقع الحال إنما يغشونهم: «نصحك من أسخطك بالحق، وغشك من أرضاك بالباطل»^(١). وبعد هذا الاستطراد أقول: إن من جملة الأشياء التي تركتها واقعة الطف في الأمة الإسلامية هو هذا النوع من الصراع الذي جاء الحسن البصري فتبناه كمدرسة وعمقه؛ ولذلك فإن التاريخ واطب على منحه ألقاباً كثيرة؛ لأنه كان موضع رضاهم، وذلك من قبيل أنه من سادات التابعين وأنه واعظ. وهذا الرجل إذا أخضع للتمحيص والتحقيق فإنه لا يبين منه حينها سوى إنسان مزيف.

وأنا لا أستغرب هذا، وإنما أستغرب من إنسان عملاق كابن عربي هذا الرجل الجليل القدر وهو فيلسوف كبير إضافة إلى ذلك وصاحب فكر، ومع ذلك نجد عنده نظرية تعدّ أخطر من كلّ تلك النظريات؛ فهو يرى أن الاعتراض على الظالم هو اعتراض على الله، فهو يقول: إن ولاية السلطان هي تجسيد لولاية الله.

وهذه النظرية - أن السلطان ظلّ الله في الأرض - قد تبناها العثمانيون في سياستهم. وهذا هو التاريخ المزيف (لعن الله تاريخهم).. التاريخ الذي ترك انطباعات سيئة السمعة على جسد الأمة الإسلامية والأمة العربية بالذات، هذا التاريخ الذي اخترعوا له ألقاباً من قبيل الخاقان ابن الخاقان، والسلطان

(١) قطعة من خطبة لشداد بن أوس بن ثابت الأنصاري حينما طلب منه معاوية أن يذكر الإمام علياً عليه السلام ويعيبه. ومنها: وإن الله إذا أراد بالعباد خيراً عمل عليهم صلحاءهم، وقضى بينهم فقهاءهم، وجعل المال في أسخياتهم، وإذا أراد بهم شراً عمل عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهلاءهم، وجعل المال عند بخلائهم. وإن من صلاح الولاية أن يصلح قرناؤها. أمالي المفيد: ٥/٩٦، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٩.

ابن السلطان، والأكثم الأعلم والجناب الأعظم، والأعظم الأجل، وظل الله في أرضه. إن هذه الألقاب الطويلة العريضة هي في واقع الأمر تصوّر الحاكم على أنه صاحب إرادة متحدّرة من إرادة الله وذات امتياز منها.

والحال أن نظرية الإسلام أصرح من هذا بكثير، فهي تنصّ على أن الخليفة إنما هو ممثّل للجمهور؛ إذا أحسن وجبت طاعته، وإذا أساء وقف بوجهه. ارتقى الخليفة الأول المنبر ذات مرّة فقال: «إن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوّموني»^(١).

وكان الصحابة كلهم يسمعون الإمام علياً عليه السلام وهو يقول من على منبره حينما سئل عن بيع أمّهات الأولاد فقال عليه السلام: «كان رأيي ورأي عمر ألاّ يعن، ثم رأيت يعهن». فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك^(٢). فلم يجبه عليه السلام، ولم يعنّفه، بل إنه عليه السلام احترام رأيه؛ لأنه يعتبر نفسه الشخص الذي يمثّل المجموع. وعليه فإذا أحسن تمثيلهم فقد وجبت طاعته.

(١) المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٣٦ / ٢٠٧٠١، المعجم الأوسط ٨: ٢٦٧. وطرفه: أما والله ما أنا بخيركم... وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني.

(٢) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

قال أبو بكر الكاشاني: على أنه - أمير المؤمنين عليه السلام - كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقرض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أم الولد.

هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أن أم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المذهب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

واقعة الطف بصمات إيجابية في تاريخنا

فواقعة الطفّ في الواقع هي حدث ضخم في تاريخنا، وقد تركت بصمات نبيلة في مختلف الأبعاد، ومن جملة هذه البصمات أنها تركت لنا هاتين المدرستين. وعندما نقرأ كتب العقائد مثل كتاب (المواقف) للأيجي، أو كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي - وهما من ضمن مجموعة من الكتب ذات الطابع العقيدي - فإننا نرى أنهما يتناولان مسألة حساسة؛ فيمثّلان تيّارين متميّزين يمشيان جنباً إلى جنب، وكلّ هذا انعكاس لواقعة الطف.

أما أن يأتي أحد فيعلم الإمام الحسين عليه السلام تكليفه الشرعي - وكأنه عليه السلام غير عارف بتكليفه، ولم يعيش في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يترعرع في مدرسته العظيمة، وكأنه أيضاً لم يكن الامتداد الطبيعي له عليه السلام - فيأتي هذا ليعلمه الصواب من الخطأ في مسألة خروجه عليه السلام، فهذا بالطبع لا يستحق إلا أن يوصف بأنه تفكير أبله؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١). وهذا ما يجب أن نتعبّد به، لأنه من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا فإنه عليه السلام قد وصفهما وبين حقيقتهما للناس. وكان الناس على علم بيّن بهذا، ووصفه عليه السلام لهما بهذا يكشف عن أنهما يعرفان تكليفهما الشرعي معرفة غاية في الدقة.

الانطباع الثاني: أنها إحياء لدستور الله تعالى

وهذا الانطباع قد خلف مصيبة كبرى، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حينما نزل عليه جبرئيل بالقرآن الكريم فهو إنما كان يحمل دستور أمة، والدستور لا يمكن أن يعطى لأي كان، بل لا بدّ من أن تكون هنالك طبقة خاصّة تستطيع أن

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

ترى أبعاده الحقيقية، وأن تفسره بالشكل الصحيح. وهذا أمر طبيعي وقانوني، ففي الأمم المتحضرة عندما يُراد أن يُجرى تعديل على الدستور فإنه يُدفع إلى لجنة مختصة من فقهاء القانون ليقوموا بإجراء التعديل اللازم عليه؛ لأنهم أعلم بمراده ودواخله. والقرآن الكريم بما أنه دستور إلهي لأمة يراد لها أن تحكم بما أنزل الله، فإن الله تعالى قد بعث معه من يجسده ويطبق تعاليمه، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يشرحون أحكامه ونظرياته: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

فمن هم أهل الذكر؟ هم الذين قال فيهم الرسول الأكرم (عليه السلام) بين جموع المسلمين: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٢).

وهذا الحديث مروي عند جمهور المسلمين جميعاً، وأنا لا أهتم لما يروجه البعض إزاء هذا الحديث فيرويه: «كتاب الله وسنتي»^(٣)، وإن كان في واقع الأمر جناية على التاريخ والأجيال. إن حامل التاريخ يجب أن يكون أميناً، وأن يقدم للأمة الأثر الصحيح، لا المفتعل والمختلق. فجمهور المسلمين ينصّون عليه: «كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً».

(١) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.

(٢) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥،

٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٣) سنن الدارقطني ٤: ١٦٠، الجامع الصغير ١: ٥٠٥ / ٣٢٨١.

المبحث الثاني: الجناية على العترة عليهم السلام جناية على القرآن الكريم

وفي تصوّري أن الجناية على العترة الطاهرة عليهم السلام هي جناية على كتاب الله؛ لأن الجناية على الفقيه القانوني الذي يعرف النص القانوني وخفايا الدستور هي جناية على الدستور نفسه. هذا من جهة ومن جهة أخرى إن حملة القرآن هؤلاء هم ليسوا كمن حملوه متأخرين؛ فحملة القرآن الكريم هم الذين نزل الوحي في بيوتهم، وكان يقرع أسماعهم. ومعنى هذا أن جبرئيل عليه السلام حينما كان يهبط على النبي ﷺ فإنه كان يهبط في محراب فيه رسول الله ﷺ والحسين عليه السلام وقد ارتحله. يروي المسلمون جميعاً أن النبي ﷺ أطال السجود مرة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال ﷺ: «لا، وإنما ولدي ارتحلني، فكرهت أن أعجله»^(١).

فكان ﷺ غالباً ينتهي من المحراب والحسن عليه السلام إلى جانبه، فيهبط الوحي يقرع أسماعهم. كان الإمام الحسن عليه السلام يطوف حول الكعبة ذات مرة فوقف له رجل شاميّ مخدوع، فشتمه، وقال له: كان الأولى بمعاوية أن يلحقك بأبيك ولا يدعك تطوف حول الكعبة كما يدور [...] في الطاحون. فقال له الإمام: «على رسلك: أنا آخذ بيدك إلى بيتنا لأريك زغب جناح جبرئيل»^(٢).

(١) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣ / ٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٣١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أسد الغابة ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

(٢) لم نعثر عليه، لكن ورد أن للحسن والحسين عليه السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام

وهذا هو الخلق الإسلامي؛ ولذلك حينما دخل أحد الأدباء بيت النبي ﷺ راح يخاطبه:

وعَفَرْتُ خَدِّي فِي ثَرَى مَسِّ عَفْرَةٍ لجبريل من جفنيه ريشٌ مُزْعَبٌ
وفيه محاربٌ لآل محمدٍ بهنٌ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ
وَأَنَارُ أَقْدَامِ صِغَارٍ وَمَهْجُ إلى الحسنين الزاكين وملعبُ
وصوتُ رحي الزُهراء تطحنُ قوتها إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ
رؤى سوف يبقى الدهرُ يروي جلالها وتبقى على رغم البساطة تأشبُ^(١)

فالواقع أن هؤلاء من هذا المنبع وهذا المعدن النقي، ولذا كان قتلهم قتلاً للقرآن الكريم وذبحهم ذبحاً له وقضاءً على الفكر الإسلامي وعلى الروح الإسلامي الذي أرادته السماء لأهل الأرض. وهذه الوقائع السلبية التي تقترب بتاريخ الواقعة هي وقائع كثيرة، ودورنا نحن هو أن نفكر كيف نوظف هذا الحدث الضخم في تاريخ المسلمين لخدمة المسلمين، فيجب ألا نأخذ منه الجانب السلبي وإنما ينبغي أن يوظف توظيفاً كاملاً لخدمة الإسلام، وأن نؤكد لهذه الأمة أن أمة محمد ﷺ هي أمة حية لن تموت مادام فيها روح كروح الحسين عليه السلام؛ لأن النبي ﷺ والقرآن الكريم قد ادّخرا هذه الروح لتبقى حياة دائمة مستمرة في جسم الأمة.

وقد يسأل سائل فيقول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢)؟ فيجيب بأن هذا الذي يقتل وينزف دمه وتفارق روحه بدنه هو في حقيقة الحال ليس ميتاً على أساس الروح وإن

➤ الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(٢) البقرة: ١٥٤.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥.

كان ميتاً على أساس الجسد؛ لأنه يبقى يعيش في مشاعر المسلمين وفي أرواحهم وفي قلوبهم. فهذا روح حية ودم يتنزي لن يموت بل إنه سيعيش خالداً على صعيد النفس .

فالقرآن إذن ادّخر هؤلاء ليكونوا مداد الحياة للأمة، يقول أحد الأدباء :
 التراب الجديد ما اخضر لو لم يتصد له السحاب الهطول
 وصدى كل هادرٍ وبلغ ليس مثل الجراح حين تقول
 قد يموت الرسول جسماً ولكن بالرسالات لن يموت الرسول^(١)
 وإلا ففي الواقع أنه حتى النبي ﷺ يموت، فالقرآن الكريم يخاطبه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢)، لكنه موت الجسد وليس موت الروح والنفس، فهو ﷺ شعلة وهاجة وروح متمرد على الظلم والشرك.
 إذن أهم شيء يمكن توظيفه من واقعة الطف هو أن يتخذ من الحسين عليه السلام قبساً ونوراً ومن روحه روحاً مهمتها إيقاظ العزم في نفوس المسلمين وتتحري لهم الطريق الواضح.

المبحث الثالث: الجانب العاطفي في المأساة

نعم يبقى هناك في هذه الواقعة الجانب العاطفي الذي يفرض نفسه على الواقع.

وقد يقول قائل: ما هو الداعي إلى تكرار هذه المأساة كل سنة حيث تعتصر فيها الدموع؟

والجواب: إن هذه مغالطة؛ فلو قرأنا تاريخ الواقعة من سنيها الأولى كما في

(٢) الزمر: ٣٠.

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

شعر الكميت فهل نجد فيها اعتصار دموع؟ كلا إنها كانت محاجّات فكرية وأدباً عالياً مترفاً من أروع ما يكون، فانظر قصيدته التي يقول فيها:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ^(١)
وهي قصيدة أحسن فيها الشاعر توظيف الحدث حينما يمر بالمصارع، حيث لم يوظفه لخدمة الجانب المأساوي وإنما وظيفه لصالح العظة والعبرة. وانظر إلى شعر جعفر بن عفان أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام، وكذلك شعر دعبل بن علي الخزاعي حيث يقول في تائيته:

تجاوبن بالإرنان والزفرات نوائحُ عُجمُ اللفظِ والنطقِ
أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات ظمآنًا بشطّ فرات
إذن للطمع الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجنات^(٢)
وهي تائية رائعة لا يقرأ فيها الإنسان الدمع وإنما يقرأ فيها الفكر والعظة. وقد وظّف الحدث أيضاً أحسن توظيف.

فالمسألة إذن أن واقعة الطف لم تكن مجرد دموع على امتداد تاريخها، فهي من أيامها الأولى كانت عبارة عن تذكير ووعظ وحثّ على الجهاد ونصرة الدين. وأول من وقف بعد مصرع الحسين عليه السلام هو عبد الله بن الحر أو سليمان بن قتة، فقد وضع سيفه على القبر وأنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضةً لفقد حسين والبلاء اقشعرت
وكانوا رجاء ثم صاروا رزيةً لقد عظمت تلك الرزايا وجلّت

(١) مروج الذهب ٣: ٢٥٤، خزانة الأدب ١: ١٤٥.

(٢) ديوان دعبل: ٣٨، بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٨.

أتسألنا قيس فنعطي فقيرها وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
وعند غني قطرة من دماننا سنطلبها يوماً بها حيث حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلت
وإن قتل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت^(١)
وواضح من أبياته أنه لم يأخذ فيها الجانب المأساوي فقط وإنما أخذ فيها
جانباً فكرياً؛ فيصرح بأن هذا الذي حدث قد أصاب المسلمين جميعاً بالذل
ما لم ينهضوا بهذا الدم للأخذ بثاره .

إذن فالمسألة ليست كما يقال ، وهذه من مزايا واقعة الطف؛ لأن الإمام
الحسين عليه السلام من سنخ القرآن الكريم ، فكما أن القرآن يأخذ كل قارئ منه
معنى حسب فهمه فكذلك واقعة الطف ومصاب العترة عليه السلام ؛ فهي من هذه
السنخية عيناً؛ فكل واحد يأخذ منها معنى وفائدة. وكلما عاودتها الأقلام
وواجهتها أخذت منها زاداً؛ إذ أن فيها عطاء لا يقف عند حد؛ ففي كل سنة
تعطي هذه الواقعة عطاء متجدداً، ولذا يقول الشاعر:

أنست رزيئكم رزاينا التي سلفت وهؤنت الرزايا الآتية
وفجائغ الأيام تبقى مدة وتزول وهي إلى القيامة باقية
وقد روي أنه حينما دخل دعبل الخزاعي عليه السلام على الإمام الرضا عليه السلام ، وأنشده
قصيدته التائية التي مطلعها:

مدارِسُ آيَاتٍ خَلْتُ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزَلُ وَحْيٍ مُقْفَرٍ الْعَرَصَاتِ

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣، مشير الأحزان: ٨٨، مقاتل الطالبين: ٨١، أسد الغابة ٢: ٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٥٩.

سُمعت جارية تبكي من وراء الخباء، ثم خرجت وتحت رداءها شيء فوضعت على الأرض فإذا هو طفل رضيع يضطرب. ويبدو أن الجارية ذكية فأرادت أن تعرض منظرًا حيًّا متحرِّكًا من مناظر الطفِّ، فلمَّا رأى الإمام عليه السلام ذلك انفجر باكياً^(١) مع أن الطفل كان سليماً معافى ليس به شيء، ولكن المنظر ذكره بواقعة الطفِّ عندما رجع الإمام الحسين عليه السلام يحمل رضيعه بعد أن آبَ من أرض المعركة ودماؤه تسيل على يديه. وقف عليه السلام بباب الخيمة وصاح: «رباب، خذي ولدك مذبحاً». ومهما تكن البراعة والقدرة والصبر عند الإنسان وسيما الأم فإنه لا يمكن تصوّر عاطفة أم تنظر إلى رضيعها مذبحاً؛ فهي واقعة أكبر من أن تتصوّر، وأكبر من أن يخوض فيها القلم. أخذت الطفل ورجعت به وهي ولهى إلى المخيم، وقد ذهب عنها رشدها، فوضعتَه إلى جانب المهد تهزّه ذاهلة لا تشعر بما تصنع والمهد خالٍ منه، ثم راحت تدور حول مصرعه:

خذت سلوتي وظلّيت اسالي برويحتي والدمع هالي
أدورن على ايميني وشعالي أهز بالمهد والمهد خالي

كم رضيع لك بالطفِّ قضى عطشاً يصفق بالراحة راحا



(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٥٣، ٨، ٢٩٤، ٣٤، ٢٩٦، ٣٥. وليس فيها ذكر الطفل.

لغة القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مجموعة من المواضيع والبحوث الهامة
سأعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول : المستشرقون وشمولية رسالة نبينا ﷺ

إن المستشرقين قد استغلوا المقطع الأول من الآية الكريمة، وهو قوله
تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ضدنا، وقالوا: إنكم
تقولون: إن رسالة محمد رسالة عامة، لكن القرآن لا يقول بذلك، بل يقول
بخلافه؛ لأن الله أرسله باللغة العربية، وهي لغة تخص العرب، أي أنه مبعوث
إلى العرب.

وهذا قياس باطل لامتني له، لأن الله تعالى لو أرسله بلغة أخرى لورد

(١) إبراهيم : ٤.

الإشكال نفسه، فالواقع أن موضوع اللغة لا يحدد الرسالة، فرسالته ﷺ رسالة عامة، لكن كونها باللسان العربي لا يعني تخصيصها به، بل إن هذه اللغة لا تعدو أن تكون وسيلة للتبليغ والخطاب. فهذا الأمر لا يمنع عموم الرسالة للأسباب التالية :

الأول : انفتاح اللغات

فكل لغة من اللغات تنفتح على اللغات الأخرى، أي أنك لا يمكن أن تعثر على لغة لا يمكن ترجمتها، فكل لغة قابلة لأن تترجم إلى اللغات الأخرى ومنها اللغة العربية؛ فلا مشكلة إذن من هذا الجانب.

الثاني: مشكلة عولمة اللغة

ففي أيام النبي ﷺ لم يكن هناك وجود لأي لغة عالمية يمكن أن تعم العالم كله، بل و حتى الآن، مع أنه هناك محاولة تقوم بها الأمم الأوروبية على تعميم لغة ضبط لكن لم ينجحوا، ولاقت محاولاتهم المتكررة حواجز كثيرة.

والإسلام حينما أراد أن يعمم اللغة العربية على المسلمين، ومنهم إلى الدنيا أراد أن تكون اللغة العربية هي لغة العالم؛ لأن فيها ميزات لا توجد في غيرها من اللغات الأخرى؛ ومنها أن لها قابلية الانفتاح، كالاشتقاق الذي يمكن أن يحتوي كل اللغات الأخرى ويمتصها. بل إن فيها مجالاً ضخماً للانتشار والتدويل^(١).

دعوات تبسيط اللغة العربية

وأنا أعجب هذه الأيام حينما أسمع أن جماعات تنادي بضرورة تبسيط

(١) كبابي النحت والتوسع.

اللغة العربيّة، فكيف يمكن تبسيطها؟ يقولون: إن المقدار الذي نحتاجه للتخاطب منها يجب أخذه ونشره، وما عداه من العويص فيجب تركه لأهل الاختصاص.

وهذا غلط فاحش؛ لأن اللغة العربية لغة القرآن فلا نستطيع أن نغيرها، ولأن حضارتنا مرتبطة بها أي أننا لا نستطيع أن نتعرف على أسرار حضارتنا إلا عن طريق لغتنا. فأنا حينما أقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(١) أستغرب من قوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ فهل يوجد هناك أحد يستطيع أن يكتب الكتاب برجله؟ طبعاً لا، إذن ما هذا التأكيد؟ أنا لا أعرف هذا إذا لم أرجع إلى حضارتي، لا أعرفه إذا لم أرجع إلى الخلفية الحضارية التي عندي وهي أن العرب إذا أرادت أن تؤكد شيئاً فإنها تلجأ إلى وسائل التوكيد المعهودة لديها، والتي من جملتها الأسلوب الأنف. فإن لم يرجع الباحث إلى أساليب لغته فإنه بالنتيجة لن يستطيع فهم أسرار حضارته.

الثالث: سهولة تبادل المعاني بين اللغات

فبما أن اللغة عبارة عن معاني، والمعاني يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى فإن المسألة تكون قد حُلّت، فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٢). يمكن أن ينقل معناه إلى أية لغة أخرى دون أن يترجم القرآن الكريم حرفياً ولفظياً؛ لأن اللفظة لها خواصّها، ويجب إبقاء القرآن بألفاظه وخواصّه، فذلك سرّ إعجازه، أمّا المعنى فلا بأس بترجمته التي يمكن أن تكون إلى أية لغة نريد.

(٢) الأنبياء: ٣.

(١) البقرة: ٧٩.

الرابع: سهولة اللغة العربية نفسها

إن اللغة العربية نفسها سهلة جداً، ولانقاش في ذلك بخلاف اللغات الأخرى التي لاتخلو من تعقيد في قواعدها وأزمنتها.

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ فهو أمر طبيعي؛ لأنه إن يأت بلغة غير لغته فسوف يقولون له: نحن لانفهم ماتقول، ويجب أن تخاطبنا بلغتنا كي نفهم منك كل ماتقوله. أما ما حصل من تعصب من بعض الشعوب، فلم يقبلوا بدين الإسلام، لأنه لم يكن بلغتهم فهو نظرة ضيقة، وإلا فالاسلام جعل لغة العرب لغة القرآن، ولغة القرآن أريد لها أن تكون لغة عالمية؛ لأن الله اختار لها ذلك.

وهناك من يقول: إن لغة القرآن لايمكن أن تتسع لاستيعاب المعاني الجديدة إذ يوجد كثير من المعاني الجديدة كالمخترعات وغيرها لايمكن أن يوجد لها مقابل في اللغة العربية مثل لفظة (تلفزيون). والحقيقة أن هذا ليس صحيحاً؛ إذ كلمة تلفزيون تتكون من مقطعين: الأول (tell) وهي اختصار لكلمة (telling) أي إخبار، والثاني اختصار لكلمة (Vision) أي رؤية. وبهذا نستطيع أن نوجد لها في اللغة العربية مقابلاً مثل أن نقول: الخبر المصور. وهذا على سبيل المثال، وكل مانريد قوله هو أن يُشتق له لفظة تناسب معناه في لغته الأم؛ فليس هناك شيء متعذر. فهذه كلها دعاوى لا مستند لها.

المبحث الثاني: كيفية نشوء اللغة وتطورها

إن منشأ اللغة أمر لا زال مثار نقاش بين العلماء، فهل إن اللغة توقيفية أم أنها تنشأ من المجتمع؟ أي هل أن الله عزوجل ألهم آدم ﷺ اللغة حينما أنزله

أول مرة إلى الأرض : ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١) بأن قال تعالى له: قل لأهلك: هذه نخلة، وهذه أرض وهذه سماء إلى آخره، أم إنها ليست توقيفية، وإنما هي قابلة لأن تتبرعم وتنمو؟ إن كل واحد منا لابد أنه لاحظ أن لطفه أول نطقه لغة خاصة به؛ فهو يسمي كل شيء باسم خاص، فيسمي الخبز باسم خاص، ويسمي لعبته كذلك، أي أنه يخترع الألفاظ للمعاني حسب قدرته. ثم بعد أن يكبر ويكبر معه رأسماله من اللغة بالتدريج نجده يطلق عليها أسماء أخرى جديدة، وهكذا. وعليه فالنظرية التي تقول: إن اللغة نشأت وتطوّرت في كل منطقة على حدة، كالطفل في تدرّجه هي نظرية صحيحة. إذن ليس الأمر أن اللغة أمر توقيفي بمعنى أن الله عزوجل نزل اللغة من السماء بل إنها نشأت على الأرض، فأدم عليه السلام بدأ يتفاهم أول أمره مع أهله مبدئياً بلغة الإشارة، ثم بعد ذلك تطوّرت. على أية حال إن بحثنا الآن ليس بحثاً لغوياً، لكن أردت أن أشير إلى الموضوع إشارة كمقدمة وتوطئة؛ إذ أن اللغة ليست أمراً توقيفياً بل إنها نشأت محلياً.

المبحث الثالث: أداء العبادات والمعاملات بغير العربية

لقد كثر الأخذ والردّ بين فقهاء المسلمين ووقع نزاع كبير بينهم حول جواز وقوع عباداتنا ومعاملاتنا بلغة غير اللغة العربية؛ كالزواج والطلاق والبيع والإجارة وغير ذلك. أمّا علماء الإمامية فأجمعوا على عدم جواز الإتيان بالعبادات بغير العربية إلاّ الشيخ الصدوق فإنه ذهب إلى جواز إيقاع القنوت باللغة الفارسيّة^(٢)، أما المعاملات فأجمعوا عليها كذلك إلاّ مع التعذّر من

(٢) عنه في مختلف الشيعة ٢: ١٨١.

(١) البقرة: ٣١.

العربية؛ فحينئذٍ يجوز إجراؤها بغيرها من اللغات. والشيعية يكونون بهذا قد خدموا اللغة العربية أكبر خدمة، ومع هذا يأتي التاريخ القذر ليصف الشيعة بالشعويّة وأنهم يكرهون العرب، مع أن ابن خلدون نفسه يحمل حملات شنيعة على العرب ويصفهم بأقبح الأوصاف، ومع ذلك لا أحد يحرك ساكناً او يتصدى له ويردّ عليه، أمّا مع الشيعة فالأمر مختلف.

وقد وقعت معي مثل هذه القصة وهو أنني كنت جالساً ذات مرة في دار العلوم في القاهرة، ففاجأني أحد الأساتذة ممن تخرّج معنا من الدار على ما أظن باتّهامه دِعْبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرّفتك بمقعدي
رفعوا محلك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الأوهدي^(١)

فكيف يحمل على الخليفة العباسي؟ فما دام يفعل ذلك فهو شعوبي. فقلت له: والله أنا أهنيئ الأمة الإسلامية بوجود عبقریات فيها مثل عبقريتك، إنها عبقرية عظيمة، واستدلال ضخم. انظر كيف يصف رجلاً حرّاً وقف في وجه ظالم وذكره بموقفه منه، فما هي علاقته بالشعوبية؟ ما هذا أيا دكتور حجاب؟ إنه والله لشيء غريب أن يصدر هذا من مثل هؤلاء. وأنا أتألم غاية الألم حينما يأتيني بعض الشباب من غيرنا ويقول لي: هل هؤلاء هم حملة الفكر عندكم وقادة الأمة؟ إنه لشيء مخجل حقّاً.

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾، فإنما

(١) العدد القوية: ٢٩٢، بحار الانوار ٤٩: ٢٦٠ / ١٤، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ١٦٣، وفيه الأبعد، بدل: الأوهدي.

تريد التأكيد على أن من المفروض أن يكون نبي كل قوم ناطقاً بلغتهم حتى يتمكن من التفاهم معهم.

المبحث الرابع: قبح العقاب بلا بيان

ثم قال تعالى: ﴿لَيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، أي أن العلة من إرسال الرسل هي نقل شرائع السماء للأرض؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتصل بالله مباشرة؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يحويه مكان. ولا يخلو منه مكان، وليس كل أحد يصلح للقاء الله؛ بل الله هو الذي يختار الأنبياء ويوحى اليهم ويجعلهم وسطاء بينه وبين الإنسانية، فيبينون للناس رسالة السماء عبر كتبه تعالى كالإنجيل والزبور والقرآن وغيرها. غير أن بعض الناس تلاعب الشيطان بعقولهم فعمدوا إلى التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية فحرفوها، ولم يسلم من ذلك إلا القرآن الكريم؛ لحكمة أرادها الله تعالى.

وقد يسأل سائل فيقول: توجد روايات عند بعض المسلمين بأن القرآن قد وقع فيه التحريف.

ونحن نقول له: إننا نضرب مثل هذه الروايات التي تنص على أن القرآن قد وقع فيه التحريف عرض الحائط؛ لأنه ليس عندنا رواية محترمة تقول: إن هناك قرآناً غير القرآن الموجود بين أيدي المسلمين. وما يطلقه بعض رخيصي الذمم من دعائٍ رخيصة مثلهم بهذا الصدد فمرفوض البتة، ولا يعار أي اهتمام. وأمثال هذه الروايات موجودة بشكل ما عند كل المذاهب الإسلامية، لكنها ليست موضع ترحيب واحترام من عامة المسلمين، بعد أن وقع إجماع جمهور المحققين على أن القرآن هو ما بين الدفتين لا غير.

هذا وإن وجدت روايات تقول بالتحريف فغاية ما يقال فيها: إنها ترمي إلى

تفسير الآيات بغير معناها مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أُخْبِتَ﴾^(١). فتأتي جماعة لتفسرها على أن هذا الذي أحبه الرسول ﷺ هو أبو طالب ﷺ^(٢)، في حين أن البعض يرفض هذا التفسير. ونحن نقول لهؤلاء: يا إخوة، لماذا هذه الحساسية تجاه علي بن أبي طالب ﷺ وأبيه ﷺ؟ فلماذا حينما تأتون إلي بعض من يذمهم القرآن الكريم بقوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾^(٣)، أو بقوله: ﴿مَنَاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيمٍ﴾^(٤)، أو بقوله: ﴿عُقْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾^(٥) نراكم لا تذكرونه بسوء أبداً؛ احتراماً لابنه، أمّا حينما يصل الأمر إلى أبي طالب.. هذا الرجل الذي لا ينكر أحد فضله ولا سابقته ولا مواقفه التي تخضع أمامها أعناق أهل الحقد والعداء له، فإنه يصبح عرضة للهجوم الشرس. ولماذا لا تمتنعون عن ذكره بسوء احتراماً لابنه ﷺ؟ ونقول ببالح الأسف: إن هؤلاء كارثة في تاريخ المسلمين، فهؤلاء هم الذير فتحوا أسواقهم للمتاجرة بالطائفية وبث الفرقة.

المبحث الخامس: الجبر ومدارسه عند المسلمين

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أريد أن أقف عند هذه النقطة قليلاً؛ لأنها نقطة مهمة وخطرة جداً؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ يعني أن هذا الذي يأتي إلى الدنيا يأتي ضالاً، والله هو الذي

(١) القصص: ٥٦.

(٢) انظر: مسند أحمد ٥: ٤٣٣، فتح الباري ٧: ١٤٩، جامع البيان، المجلد: ٧، ج ١١: ٥٧، وذكرها في ثمانية موارد أخرى، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، ٨: ٢٧٣.

(٣) القلم: ١١. (٤) القلم: ١٢.

(٥) القلم: ١٣، والمقصود بهذه الآيات الثلاث هو الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شريف، وقيل: الأسود بن عبد يغوث. انظر مجمع البيان: ١٠: ٨٨.

أضله ، ومثله المهتدي فهو إنما جاء إلى الدنيا مهتدياً؛ لأن الله قد هداه. لكن نقول: ليس الأمر كذلك، ولا يمكن حمل الآية على ظاهرها، بل إن هذا الظاهر هو الذي أخذه الجبريون واستدلوا به على صحة مذهبهم ومنهجهم القائل بأن الله أجبر عباده على فعل الطاعة والمعصية. ولتوضيح الأمر بشيء من الإسهاب نقول: هناك خمس مدارس في الجبر في عالمنا الفكري:

الأولى: المدرسة الجبرية الدينية

وهي التي يتمسك أصحابها بظاهر هذه الآية ويستدلون به على صحة منهجهم كما أسلفنا، فهم يقولون: كل مانع له فالله خلقه فينا، وهو يضلنا إن أراد، وهو يهدينا أيضاً إن أراد. ولذلك حينما تحاول أن تمنع بعض الناس من فعل الحرام كأن يكسب عيشه من الحرام فتقول له: لماذا هذا التوجه إلى الحرام؟ وهل ليس في الدنيا إلا الحرام؟ فإنه يقول لك: وما عساي أفعل وقد كتب الله تعالى عليّ ذلك؟ وإن أردت أن تمنع أحداً من ارتكاب جريمة أو تعنّفه على جرم ارتكبه قال لك: وماذا أعمل، وهذا هو قسّمي من الكون، وحظّي من الدنيا؟ فالله قد قسم لي هذا، وجعله طريقي في الدنيا.

وهكذا فإنه وفق هذا المذهب يكون كل شيء نعله ملقى على عاتق القضاء والقدر، بل ربما نحن نعلم إلى إلقاءه عليه، وهي محاولة اعتدائية غير صحيحة.

فهؤلاء الذين يقولون: إن الله هو الذي يخلق فعل العبد داخل نفسه يسمون (المجبرة الدينية)، وسأعرض في نهاية البحث بعد سرد مدارس الجبر إلى فساد نظرياتهم وآرائهم إن شاء الله تعالى.

الثانية: المدرسة الجبرية الميتافيزيقية

وهي مدرسة يقودها الفيلسوف «سبينوزا» الذي يذهب إلى أن الإنسان متحد مع الله تعالى - أستغفر الله - وهو ما يسمى بـ (مونيزم) أي اتحاد الخلق مع الخالق، فهو يقول: إن هؤلاء الناس الموجودين في الكون كله ليسوا هم المخلوقين، بل إن هؤلاء هم الله؛ لأنه تعالى متحد بخلقه. فكل الأشياء الموجودة هي عبارة عن مظهر من مظاهر الله: الحائط والبستان والحيوان، كلها مظاهر لوجود الله، ولا يوجد في الدنيا سوى الله تعالى فقط. وليس هذا مجال تفصيلها بل أحببت أن أشير لك إليها.

الثالثة: المدرسة الجبرية المنطقية

وتقول: كل حادثة إذا توافرت شروط حدوثها فلا بد من أن تحدث، فالورق حينما تضعه في النار لابد من أن يحترق لأن شروط الاحتراق قد توفرت حينئذٍ.

وهذه المدرسة تتفرع من المدرسة الجبرية الميتافيزيقية.

الرابعة: المدرسة الجبرية الفلسفية

وتقول: إن أفعال الإنسان كلها منعكسة عن أعضائه بفعل بعض الإنزيمات المتولدة داخل جسمه. فهذه الأعضاء هي التي تحدّد فعله وليس له في ذلك اختيار. وهذه الإنزيمات التي تفرزها غدد موجودة في أجسامنا حينما تدخل خلايا الجسم تحوّل سلوكنا وحركاتنا إلى أفعال لا إرادية، وهي أفعال منعكسة عن أعضائنا.

الخامسة: المدرسة الجبرية النفسية

وتقول: إن كلّ أعمال الإنسان معلولة لنفسيته ومزاجه، وهذا المزاج ينعكس سلباً أو إيجاباً على عمله.

نظرة وتقييم

فهذه خمس مدارس في الجبر، والملاحظ أن هذه المدارس الجبرية كلها تنتهي إلى أن الفاعل الوحيد هو الله عز وجل، وأن الإنسان مسلوب الإرادة ليس له حظ في أفعاله. وهذا قول لانستطيع أن نقبله؛ لأنه إذا كان الله عز وجل هو من يخلق الفعل عندنا فمعنى هذا أنه حينما يأتي نبي ويقول لأُمَّته: اعبدوا الله، وإني مخبركم أنكم إن لم تعبدوا الله، فليس ذلك منكم، بل لأن الله خلق المعصية عندكم. فهل سيجد هذا النبي أحداً يقترب إلى دينه وأحكامه وتعاليمه؟ طبعاً لا؛ لأنه حينما يقول له: الله خلق عندك فعل السرقة وهو مع ذلك سيحاسبك عليه قطعاً وليد وحرماً في النار، فهل من عاقل سيقرب من هذا الدين الذي يخبره أنه يجبره على فعل شيء ثم يعاقبه عليه؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه سيقول له: مادام الله قد جبلني على المعصية وأجبرني عليها فلماذا تدعوني إذن إلى خلاف ما جبلني الله عليه؟ إنك تخالف إرادة الله بهذا؟ ثم هل ترى دعوتك تنفع مع شيء قضى أصلاً، إنما وجودك عبث لا مبرر له لأن الله جبلنا على المعصية وانتهى.

دعني أنقل لك هذه الحادثة: المعروف أن البهلول عالم جليل، لكنه أظهر الجنون لما طلب منه أن يقضي بين الناس. وكانت هذه ردّة فعل طبيعية؛ لأن من يشتغل بالقضاء آنذاك فيجب أن يكون أداة بأيدي السلطة والمقرّين إليها، فليس هناك قضاء مستقلّ البتّة، ومن يفكر في أن يستقلّ بالقضاء فإنه يعرض نفسه للعقوبة والسجن والتنكيل. وكمثال على إملاء إرادة السلطة إرادتها في القضاء ما حدث مع القاضي أبي يوسف الذي أرسلت إليه زبيدة: إني مرسلتك لك هؤلاء، وعندهم المسألة الفلانية، وأحب أن تقضي بينهم بهذه الصورة. أي احكم بينهم بالشكل الذي أريده أنا، وفعلاً حينما جاء الأمر إليه حكم

به كما كانت تريد، وأفتاهم بما تحبّ. فأرسلت إليه بهدية، فداعبه جماعة من الحاضرين وقالوا له: يروى عن النبي ﷺ قوله: «إذا أهديت إلى أحدكم هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها»^(١). فأين قسمنا منها؟ فقال: إنما ذاك في الإقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزان. ولم يعطهم منها شيئاً^(٢).

فتأمل هذا الرجل، ترسل له زبيدة أن رأيي في المسألة الفلانية هكذا، وأحبّ أن يكون الحكم فيها والفتوى هكذا، فيجيبها إلى ما تريد وإن خالف الشرع مع أنه من كبار القضاة.

وهذا هو ما حدا بالبهلول لأن يتظاهر بالجنون ليعتزل الحياة، ويبعد نفسه عن مهاوي القضاء والقضاة؛ لأنه لم يكن على استعداد لأن يكون أداة بيد السلطة تحرّكه كيف يشاء.

وقد دخل البهلول المسجد يوماً، وأبو حنيفة يقرّر للناس علومه، وقال في جملة كلامه: إن جعفر بن محمد تكلم في مسائل لا يعجبني كلامه فيها: الأولى: أنه يقول: إن الله سبحانه موجود لكنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهل يكون موجود لا يرى؟ ما هذا إلا تناقض.

الثانية: أنه يقول: إن الشيطان يعذب في النار. مع أن الشيطان خلق من النار، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه؟

الثالثة: أنه يقول: إن أفعال العباد مستندة إليهم. مع أن الآيات دالة على أنه تعالى فاعل كل شيء.

(١) الكافي ٥: ١١١٤٤، مسند عبد بن حميد: ٢٣٤ / ٧٠٥، المعجم الأوسط ٣: ٥٣.

(٢) البداية والنهاية ١٠: ١٩٥، ولم يذكر أمر زبيدة.

الرابعة: أنه يقول: إن الخير من الله تعالى والشر من الإنسان. وأنا أقول: إنهما كليهما من الله.

فلما سمع البهلول ذلك، أخذ مدرة وضرب بها رأس أبي حنيفة وشجّه، فسال الدم على وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو إليه البهلول، فلما أحضر البهلول وسئل عن السبب، قال للخليفة: إن هذا الرجل غلّط جعفر بن محمد في أربع مسائل:

الأولى: أنه يزعم أن الأفعال كلّها لفاعل لها إلا الله، فهذه الشجّة من الله سبحانه، فما تقصيري أنا؟

الثانية: أنه يقول: كلّ شيء موجود لا بدّ أن يُرى، فهذا الوجد في رأسه موجود مع أنه لا يراه أحد.

الثالثة: أنه مخلوق من التراب، وهذه المدرة من التراب، وهو يزعم أن الجنس لا يُعذّب بجنسه، فكيف تألم من هذه المدرة؟

الرابعة: أن هذه المدرة إن كانت خيراً أو شراً فهي من الله تعالى على رأيه، فما ذنبي حيث يريد أن يقاضيني على أمر هو من الله تعالى؟ فأعجب الخليفة كلامه وحسن تخلصه من أرش الشجّة^(١).

فهذا ينتقد الإمام الصادق عليه السلام على أنه يقول: إن الإنسان مخير، وهو يقول: الإنسان مجبر، وأنا على رأي الصادق عليه السلام، فلو كان الإنسان مجبراً فأنا لم أفعل شيئاً، بل الله أجبرني على أن أشجّ رأسه بالحجارة، وكذا في مسائله الأخرى. وهذه فكرة لبقة جداً حلّت أربع مشاكل بحجارة.

أعود إلى صلب الموضوع، إذن ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

يفسّره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾، فالرسول ينقل الدين، والذي يطيع الدين يكون من أهل الهدى والذي يبتعد عنه يكون من أهل الضلال، وهذا معنى قولنا: إن الله يضل ويهدي يعني القانون السماوي نفسه الذي جاء به القرآن، فالذي يطيعه يهتدي والذي يعصيه يضل.

ونظير هذه القصة قصة أخرى جرت بين المأمون والإمام الرضا عليه السلام، فعن أبي الصلت الهروي قال: قال المأمون للإمام علي الرضا عليه السلام: يا أبا الحسن، أخبرني عن جدك أمير المؤمنين علي عليه السلام بأي وجه هو قسيم الجنة والنار؟ وبأي معنى؛ فقد كثر فكري في ذلك؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام: «ألم ترو عن آبائك عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: حبّ علي إيمان وبغضه كفر؟». فقال: بلى. فقال الرضا عليه السلام: «فلما كانت الجنة للمؤمن والنار للكافر، فقسمة الجنة والنار إذا كانت على حبّه وبغضه؛ فهو قسيم الجنة والنار». فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنك وارث جدك رسول الله ﷺ^(١).

فلما كان حبّ علي عليه السلام حسنة وبغضه سيئة، وفاعل السيئة إلى النار وفاعل الحسنة إلى الجنة جرى هذا المعنى، فلم هذا التعصّب؟ ألم يكن لكم فكر واسع لحلّ هذا الإشكال؟

المبحث السادس: لمن العزة والمنعة؟

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولتأمل في هذا التعبير، وهو أنه ليس هناك عزيز سوى الله تعالى، كيف؟ صحيح أنك تصف بعض الأشخاص بأنه عزيز، لكن هذا أمر نسبي، وإلا فهناك كثير ممّا يمكن أن

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ٩٢، ٣٠، ينابيع المودة: ١/ ٢٥٤، ١١.

يذلّ هذا العزيز، ومنه الجوع. فمن وسائل الإذلال المستخدمة عبر تاريخ الظلم التجويع، وهو وسيلة تذلّ من تُتخذ ضده، فالظلمة على طيلة فترات حكمهم يحاربون الناس بأرزاقهم حتى يجيعوهم؛ فان وقع ذلك ركعوا وجاؤوا مستسلمين. وهذا ما فعله الأمويون مع أهل الكوفة، إذ أن الذي حدث في الكوفة أن الأمويين أجاجعوا أهلها لأنهم موالون لأهل البيت عليه السلام ممّا اضطرّ بعضهم لأن يركع أمام صرخات أطفاله التي تجبهه لحظة دخوله بيته بعد أن يعود دون كسب أو الحصول على فرصة عمل، فلا لقمة يسدّ بها رمق عياله ولا ثوب يستر به أجسادهم العارية، بعد أن سدوا بوجهه كل طريق في الحياة يكتسب به رزقه. وبطبيعة الحال فإنه لكلّ هذا سيذل ويركع.

وكذلك يذلّه المرض، فكل جبار متغطرس متكبر إذا أراد الله أن يذله يبتليه بمرض بسيط يمرّغ كرامته في التراب. وهو جلّ وعلا كل ما يصيبه به ميكروب أو فايروس لا يرى بالعين يدخله إلى جسمه عن أي طريق، فيصيرّه ذليلاً. وكمثال على ذلك ما يذكر من أن أبا الهيجاء الذي كان معروفاً بالغلطسة والتكبر جاء إلى الفسطاط بمصر في منطقة فيها برغوث كثير، ولمّا أراد أن ينام منعته حشرة منه لذيذ النوم، وكان كلّما حاول أن ينام لم يستطع، فبقي مستيقظاً إلى الصباح وهو يقرأ هذه الأبيات:

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن	بوادي الغضا ليلى عليّ يطول
تورّقني حذب قصار أدلة	وإن الذي يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليل منهنّ جولة	تعلّقن في رجلي حيث أجول
فياليت شعري هل أبيتن ليلة	وليس لبرغوث عليّ سبيل ^(١)

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ٢: ٢٢٣، وفيه أن الأبيات لأبي الرماح الأزدي.

فانظر إلى هذا الإنسان بما يتّصف به من عظمة وكبرياء وما يمتلك من سلطان، لكنه مع ذلك يؤرّقه كائن صغير ويسلب عظمته. وغالباً هؤلاء النمردة الجبابرة يسلط الله عليهم أصغر مخلوقاته من هذا اللون. سأل المنصور الإمام الصادق عليه السلام - وقد أزعجته ذبابة كلما ذبّها عنه عادت - يا أبا عبد الله، لم خلق الله الذباب؟ فقال: «ليذل به الجبابرة»^(١). فوجم لها المنصور. فالإنسان يذله الجوع، ويذله المرض، وتذله الحاجة، والأشدّ من هذا كله الموت، فليس يذله شيء مثل الموت،، وليس شيء أشدّ عليه منه، فأنت تجد هذا الجبّار المتغطرس، ذا الصّعر يضعف وينهار أمام الموت، وبعدها تجد ذلك الخدّ المصعّر يفترش التراب.. ذلك الوجه الأنيق إن تأتته بعد مدّة تجده بحالة مرعبة:

أعفر الثرى يا ألف برج وكوكب	يضمّ الوجوه الزهر فضل نقابه
وجوهاً رأى فيها الجمال أنيقة	وأخرى الجلال اختصّها لمهايه
تغول معناها الثرى غير آسف	وعاث بمرآها الردى غير آبه
ونجل عيون في محاسن بضّة	قسا الدود في تمزيقها بحرايه

وحينما أراد العباسيون أن يذلوا عبد الله بن الحسن ألقوه في السجن، ولكن إباءه أبى أن يذلّ لهم. ولما قتل ابنه إبراهيم أحمر العينين كان هو وأخواه محمد وإدريس في سجن المنصور، فطلب المنصور من الربيع أن يذهب برأس عبد الله ويلقيه في حضن أبيه. فانظر إلى القسوة التي توارثوها عن أسلافهم، والإفهام ابن عمه، وغاية مافي الأمر أنه اختلف معه في الرأي، وكأن هذا الاختلاف يستوجب هذه القسوة. فأبي قلوب هذه التي نُرعت منها

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

الرحمة؟ على أية حال دخل بالرأس على أبيه فوجده يصلي، فأعطاه لعمه محمد، فقال له أخوه إدريس: أسرع في صلوتك يا أبا محمد. فالتفت إليه بعد أن أتمها، وأخذ الرأس فوضعه في حجره، وقال يخاطبه: أهلاً وسهلاً أبا القاسم، فوالله لقد كنت من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١﴾. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه إن يأت الذنوب اجتنابها
ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام، والملتقى القيامة. قال الربيع: فما رأيت المنصور قط أشدّ انكساراً منه في الوقت الذي بلغته به الرسالة (٢).

وإبراهيم هذا لما جاءه نعي أخيه كان على منبر البصرة فقال يرثيه:

سأبكيك بالببيض الرقاق وبالقنا فإن بها ما يدرك الطالبُ الوترا
وإنّا أناس لا تفيض دموعنا على هالك منا ولو قصم الظهرا
ولست كمن يبكي أخاه بعبرة يعصرها من جفن مقلته عصرا
ولكنني أشفي فؤادي بغارة ألهب في قطري كتائبها جمرا (٣)

وهذا المعنى نفسه حدث مع الحسين (عليه السلام)، فالملاحظ أن الناس يجتنبون مصرع عزيز من أعزائهم - أي أنهم لا يحبّون أن يشهدوا مصارع أعزائهم

(١) الرعد: ٢٠ - ٢١.

(٢) المسائل الجارودية: ٦، مروج الذهب: ٣: ٣٢٩.

(٣) مقاتل الطالبين: ٢٠٥، ٣: عمدة الطالب: ١٠٤.

قبلهم - لكن الإمام الحسين عليه السلام كان يتحرك ضمن رسالة وهدف أراد أن يخرج من خلالهما إلى الدنيا بفكره، ثم يغادرها وقد تضاعف أجره، وذلك بأن يقدم أعزّاءه وأبناءه وأصحابه في سبيل الله.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية إن هؤلاء الأعزّاء عليه هم أيضاً أبوا فراقه وتركه لوحده، بل حتى تركه يتقدم قبلهم نحو المعركة، ومع هذا نجد من المؤرخين من بلغت به الخسة مبلغاً جعلته يقول: إن العباس عليه السلام قال لإخوته: تقدّموا حتى أرثكم^(١)! فقل لي بربك: أيّ تفكير هذا وأيّ تسطير؟ أين العباس من هذا التفكير؟ ولم يظن نفسه أنه سيعيش بعد إخوانه؟ ثم إن تركيبة العباس عليه السلام النفسية تأبى مجرد التفكير بمثل هذا الكلام، والله ليس هذا من نفسية العباس بل هو من نفسية وتركيبية من نقله ورواه.

وكلنا يعلم أن العباس كان ألزماً للحسين عليه السلام من ظله، وهو في حياته كلّها لم يقل للحسين عليه السلام: (يا أخي) بل كان يخاطبه بـ(يا بن رسول الله) أو بـ(سيدي أبا عبد الله)، ولقد كان أطوع للحسين عليه السلام من بنانه. وعليه فلا يمكن أن تصدر منه مثل هذه الكلمة أبداً، ولا يمكن أن يفكر أنه يمكنه أن يدع الحسين عليه السلام ينزل إلى المعركة قبله. ثم إن هناك نوع علاقة بينه وبين الحسين عليه السلام لا سبيل إلى تحديدها.

وهنا يتساءل المؤرخون حينما يمرّون بهذه العلاقة التي تربط بين الحسين بالعباس عليه السلام: من أين جاءت هذه العلاقة؟ هل ياترى جاءت من الأم؟ إذ أن العباس عليه السلام عنده أمّ ولا ككل النساء، عقيلة من عقائل العرب هي أم البنين

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدّموا حتى أراكم قتلنى فأحتسبكم. مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين عليه السلام (أبو محنف): ١٨٤.

(رضوان الله عليها)، امرأة تمثل الروعة والأصالة والشرف بأسمى معانيها، فهي لم تكن تعطي أولادها عشر عنايتها، فكلّ عنايتها كانت تمنحها للحسين عليه السلام، وكانت ترعى مشاعرهم بكل ماتستطيع، وحينما كان الأمير عليه السلام يناديها بفاطمة، كانت تطلب منه أن يناديها بكنتيتها: أم البنين؛ كيلا يسمع الحسنان اسم فاطمة ويتذكرا أمهما عليهما السلام ممّا يتسبّب لهما بالألم. وهكذا كانت هذه المرأة العظيمة، غاية في النبل والرقّة والحنوّ والعاطفة وحب أبناء رسول الله ﷺ؛ فلا غرو إن كان العباس عليه السلام ذا علاقة غير محدودة بالحسين عليه السلام؛ ولذلك فإن الحسين لم يتأثر بمصرع أحد من أهله وأصحابه كما تأثر بمصرع العباس، يقول المؤرخون: بان الانكسار في وجه الحسين، ورحم الله السيد جعفرأ حين يقول على لسان الحسين عليه السلام مخاطباً العباس:

لسواك يلطم بالأكف وهذه بيضُ الغلبا لك في جبينني تلطمُ

فهو عليه السلام يقول له: أنا لن ألطم بعدك بيدي بل سأعرض للسيوف، وهي التي ستلطم جبينني. أي سأخذ بثأرك. وفعلاً نزل الحسين للمعركة بعد مصرع العباس، وأوصل الخيل إلى النخيلة وهو يصيح: «إلى أين تفرون وقد قتلتم ابن والدي؟ إلى أين تذهبون وقد قصمتم ظهري؟».

وهكذا كانت للعباس علاقة غريبة مع الحسين، وكان عليه السلام يرعاه غاية الرعاية، وكان العباس يفدي الإمام الحسين عليه السلام وعياله بروحه؛ ولذا فإنه حينما سمع استغاثة النساء والأطفال من العطش، جاء إلى الحسين عليه السلام وقال له: أبا عبد الله، لي إليك حاجة. فقال عليه السلام له: «ما تريد؟». قال: لقد سمعت أصوات الصبية يصيحون: العطش قتلنا. أبا عبد الله ائذن لي أن أنزل إلى المشرعة، وأطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

وبعد محاولات طويلة أعطاه الحسين عليه السلام الإذن، فنزل إلى المعركة وهدفه الفرات، زاد الخيل يميناً وشمالاً إلى أن وصل إلى الفرات، لمّا وصل ركز لواءه على حافة الفرات ونزل، إلى هنا نترك الكلمة للإمام الصادق عليه السلام هو يصوّر ذلك لنا، يقول الصادق عليه السلام: «لَمَّا وَضَعَ عَمِي الْعَبَّاسُ يَدَهُ بِالْمَاءِ أَحْسَ بَرْدَهُ، فَاعْتَرَفَ غُرْفَةً وَأَدْنَاهَا إِلَيَّ فَمَهْ ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا شَرِبْتُ بَارِدَ الْمَاءِ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَطْشَانٌ»^(١).

ضامك الماي بس هيس ابرده غرف غرّفه يرؤي عطش چبده
تذكر لن اخوه احسين بعده دبّ الماي من چفّه وتحسر
ثم ملأ القربة وأراد أن يوصلها إلى الفاطميّات، فاعصو صب عليه القوم، واشتجرت عليه السيوف، واشتبكت عليه الرماح، وكمن له نوفل الأزرق من وراء نخلة، فضربه على يده اليمنى فقطعها، فقال:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقين

ثم حمل القربة على كتفه الأيسر فضربه نوفل فقطع يده اليسرى، فقال:

يا نفس لا تخشي من الكفار وأبشري برحمة الجبار

مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلبهم يا ربّ حرّ النار

* * *

يكله أيتست سكنه من الماي تجي بقي ذليله وتوجب احذاي



(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

نظام تعدد الزوجات في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ
النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَضْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في أن أحكام الشرع بعضها ثابت وبعضها متغير
سبق أن نوّهت في معرض كلامي إلى أن الفقه الشريف ينضوي تحته
قسمان من الأحكام بلحاظ سياليتها:

القسم الأول: الأحكام الثابتة (الفقه غير المتحرك)

وهو ما يسمى بالأحكام الجامدة، وهي الأحكام التي تعمل في حالات
معينة خصّها الشارع المقدّس بها في وقت معين، ومثالها أن يحتقر رجل بئراً
في بيته، فما هي المسافة التي يجب أن يراعيها جاره حتى يتمكن من أن

(١) النساء: ١٢٩.

يحفر بئراً له في بيته؟ أي ما هي المسافة بين بئره وبئر جاره، بحيث لا يؤثر معها بئره على بئر جاره؟ فهذه المسألة لها حكم عند الشارع، لكنها اليوم ليست محل ابتلاء لتوفر شبكات الإسالة التي توصل الماء إلى البيوت، وهو ما جعل موضوع البئر موضوعاً ثانوياً جداً بل لا يكاد يعرج عليه إلا في بعض الأصقاع البعيدة عن الحضارة والتمدن، والتي لا زالت تستخدم البئر في حياتها اليومية. وهؤلاء قلّة قياساً إلى الحالة العامة للعالم كله.

وهذا يدخل ضمن الأحكام التي ذهبت موضوعاتها بحكم التطور الحاصل في الحياة، والذي نعيشه اليوم، لكن الحكم باقي بحيث إنه لو حصل موضوعه لوجب تطبيق ذلك الحكم الشرعي.

القسم الثاني: الأحكام المتحركة (الفقه المتحرك)

وهذا القسم ينضوي تحته الأعم الأغلب من أحكامنا الشرعية، وهو القسم الذي تتفاعل معه يومياً من خلال تعاملنا مع المجتمع أو الحياة أو النفس أو الخالق جلّ وعلا. ومن ضمن هذه الأحكام موضوع محاضرتنا هذه الذي سيمرّ بنا.

المبحث الثاني: في أن نظام التعدد ميراث إنساني

وهذه القضية التي ستكون محور محاضرتنا هي قضية هامة وحساسة، وهي محلّ ابتلاء كبير يكاد يدخل في حياة أكثر الناس بل في المجتمع ككل. وهي قضية تعدّد الزوجات التي سنذكر موقف الإسلام منها ورأيه فيها. والحقيقة أنّ هذه المسألة جاءتتنا كميراث إنساني وليست ميراثاً وضعياً، وهو ما دعانا إلى القول بأنها تكاد تدخل في حياة المجتمع ككل، أي كل الشعوب والقبائل والأمم. فهذه الظاهرة موجودة عند جميع الفئات الاجتماعية التي

ذكرنا بشكل أو بآخر، وفق تعدّد الشرائع والموروثات الاجتماعية.

أشكال التعدد عند المجتمعات

وهذا معناه أن هناك صوراً مشروعة للتعدد وصوراً غير مشروعة له. فمثال الصور المشروعة الزيجات الشرعية (الدائمة والمنقطعة) والإماء وغيرهما، ومثال الصور غير المشروعة الزواج العرفي الذي تشتهر به حتى بعض البلاد الإسلامية؛ فهي لا تمرّ عن طريق الشرع أو القانون المعتمد في تلك البلاد، وهذا من قبيل اتخاذ الخليلات. كما أن هناك حضارات وقبائل لازالت تعتمد نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة ولا تعدّ ذلك عاراً أو خطأً. ولو قرّبنا الطريق وعرّجنا إلى البلاد المتقدمة أو المتطورة كأوروبا مثلاً، ونظرنا إلى الكيفية التي يتم الزواج فيها لوجدنا أن الزواج المشروع قليل جداً، وأن الزواج الغالب هو الذي لا يأخذ الصفة الشرعية، (نسأل الله تعالى ألا يوصلنا إلى هذا المستوى من السقوط، وأن يحفظ لنا أسرنا). فالأسرة التي رسمها الإسلام الحنيف لنا يجب مراعاتها؛ لأنها هي الأسرة التي تتناغم مع الفطرة. وأحبّ أن أؤكد على أن الفطرة الإنسانية في أمس الحاجة للإشباع المباشر، ونظام الأسرة الأمثل هو أن يعيش الرجل مع زوجته وأطفاله تحت سقف واحد. فهذه هي الحياة الكريمة التي نأمل من الله تعالى أن يبقينا لها، وألا يحرمنا منها.

المبحث الثالث: أسباب التعدّد وحلول الإسلام له

إذن نحن ورثنا نظام التعدّد، وهو ميراث إنساني اجتماعي، لكن ما هي الأسباب التي تدعو إلى التعدّد؟ وكيف عالج الإسلام هذه المسألة ووضع لها الحلول المناسبة؟ هناك عدّة أسباب وعدّة حلول تذكر في المقام، منها:

السبب الأول: العامل الاقتصادي

وهو أن يطمح الرجل من وراء تعدد الزوجات إلى الحصول على أكبر عدد ممكن من الأولاد؛ كي يستثمر طاقاتهم ومهاراتهم في العمل الصناعي أو الزراعي؛ مما يزيد في آلية الإنتاج والربح، فهو يريد منهم مثلاً أن يقفوا إلى جانبه في كفاحه اليومي مع الحياة وفي صراعه معها.

وهناك جانب آخر (أو وجه آخر) للعامل الاقتصادي، وهو ما تلجأ إليه بعض الشعوب الأفريقية خاصة والشعوب الفقيرة عامة، حيث يقومون ببيع أبنائهم للعائلات الغنية سيّما تلك التي لم ترزق بولد.

وهذا السبب لازال يستعمر عقول البعض إلى يومنا هذا.

السبب الثاني: العامل الاجتماعي

والمراد به: العزة والمنعة؛ لأنهم يعتقدون أن الذي عنده أولاد أكثر يكون أعزّ وأمنع؛ ولذلك كانت البيوت تفتخر بكونها تحوي عدداً أكبر من الأولاد وتعدّ نفسها ذات منعة ومهابة الجانب لا يدنوها أحد. دخل عامر بن أحيمر على النعمان فسأله النعمان: من أنت؟ قال: أنا من بيت هم أشعر العرب وأوفى العرب. فأخرج النعمان من لباسه بردين وقال: ليقيم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّ في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني. فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ

شاهدي. ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضرب المثل بعزّه وببرديه^(١). وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يتغنون بالقوة، وهو أمر نابع من تأثير مجتمعهم الذي كان لا يعترف إلا بالقوة وسيلةً للتعامل مع الآخرين دون أن يكون هنالك أي وجود للقانون. فالمجتمع ليس مجتمع قانون بل مجتمع قوّة نابعة من مظاهر البداوة وضراوتها.

ومن هذه المظاهر أن البدوي حينما تكون عنده خصومة مع أحد فإنّه يأنف أن يشتكي خصمه في دور القضاء؛ لأنه يُعدّ ذلك جبنًا، فالحق عنده أن يؤخذ بالقوة ويبيده هو، فهو يرى أن ذلك هو الحق. وهذه روح بدوية لا تخضع لضوابط القانون.

والإسلام الحنيف بذل جهداً كبيراً لعلاج هذه الرواسب كي يتمكن من جعل هؤلاء البداوة يتقبلون هذه الوسائل الحضارية التي تخرجهم من عهود الوحشية إلى عهود الاستئناس. وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى أنهم رفضوا الدخول في الإسلام؛ لأنه يأمرهم بالصلاة المشتملة على السجود، وهم يرفضون السجود خشية أن يعلوا رأس أحدهم استه. فكيف يمكن أن يكون التعامل مع هذا اللون من العقليات؟

(١) خزائن الأدب ١: ٤١٢. وروي أنه لما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة تشمر أخوه مهلهل واستعد لحرب بكر، وجمع إليه قومه فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان، فأتوا مرة بن ذهل أبا جساس وهو في نادي قومه، فقالوا له: نحن نعرض عليكم خلافاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع. وذكروا منها أن يدفع مرة إليهم هماماً لأنه كفء لكليب، فقال لهم مرة: أما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه لي فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره. جمهرة خطب العرب ١: ٤١.

فهؤلاء إذن كانوا يتغنون بالمجد، ويتصورون أنه لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق المنعة. وأحد أسباب المنعة الأولاد الذين سيشاركون القبيلة في غزوها وحربها، ذلك أنهم كانوا لا يستذوقون الحياة إلا مع السيف والسنان، بل حتى لقمة العيش كانوا لا يستمرئونها إلا إذا كانت قد اكتسبت عن طريق السيف، بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا يحتقرون المهن ويعتبرون أنها من سمات الضعيف.

مغالطات المستشرقين

ولهذا فإن المستشرقين حينما درسوا هذه الظاهرة وأرادوا الإساءة إلى الرسول الأكرم ﷺ حاولوا جاهدين أن يسحبوا هذه الظاهرة عليه فقالوا: كان نبي المسلمين رجلاً يعيش على السلب والنهب. وهؤلاء في الحقيقة بعيدون عن فهم الإسلام وفهم نبي الإسلام ﷺ.

السبب الثالث: العامل النفسي

ويعني هذا العامل أن الإنسان يحب الحياة، وأحد مظاهر حب الحياة عنده هو الإنجاب. يقول العلماء: إن حب الحياة عند الإنسان يدل على وجود يوم القيامة؛ حيث إن الله لم يخلق شيئاً عبثاً. فانظر إلى أعضاء جسمك فستري أن لها وظائف تختص بها، وكذلك أمورك النفسية كلها لها وظائف، فلا يوجد جزء مخلوق عند الإنسان بحيث لا توجد هنالك حكمة وراء خلقه. فالله تعالى خلق عندنا حب الحياة، وإلا فمن منا يشتهي الموت؟ فلا يوجد أحد يحب الموت مطلقاً حتى أولئك الذين يعانون في هذه الحياة من مشاكل كثيرة لا يودّون مفارقتها. يقول أبو الطيب المتنبي:

ولذيذ الحياة أوقع بالنفد من وأشهى من أن ثقل وأحلى

وإذا الشيخُ قال أف فما مـ لُ حياةً لكنما الضعف ملاً^(١)

حبّ الحياة دليل على وجود يوم القيامة

إذن حبّ الحياة غريزة أودعها الله فينا، وهو يدلّ على وجود عالم آخر. أما كيف يدلّ على ذلك، فهذا ما يتّضح بأمرين:

الأول: أننا نعرف أنّ هناك عالماً آخر سننتقل إليه بعد الموت، فكما خرج الإنسان من عالم التراب إلى عالم الأصلاّب إلى عالم الأرحام إلى عالم الدنيا، وبعد ذلك إلى عالم التراب (القبر)، فإنه سيخرج بعد ذلك إلى عالم الآخرة^(٢).

الثاني: أن الإنسان بطبعه لا يحبّ أن يخرج من الحياة إلّا بعد أن يوجد امتداده الطبيعي فيها، وهذا الامتداد هو الولد؛ ولذلك فإن الإنسان إذا مات وترك ذرية صالحة قال الناس عنه: إن فلاناً لم يمت، وإنه باقٍ ومتجسّد بأولاده. فالإنسان إذن يريد امتداده الطبيعي؛ ولذلك كان العرب يُعيّرون من ليس له ولد ذكر، ويُعبّرون عنه بأنه أتر؛ لأن الأنثى عندهم ليست امتداداً طبيعياً للرجل، بل كانوا يحتقرونها كونها لا تخلّد أباه. مع العلم أنه لا فرق بين البنت والولد إذا كانا صالحين، بل كلاهما يخلّد أباه.

إنّا أعطيناك الكوثر

ولذا فإن القاسم والطاهر وإبراهيم أولاد الرسول ﷺ حينما قبضوا أخذ المشركون يعيّرون الرسول ﷺ بأنه أتر - أي ليس له عقب - فنزلت سورة الكوثر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *

(١) ديوان المتنبي ٢: ٤٠٥.

(٢) بمعنى أن حبّ الحياة عنده يجعله يذعن بأنه وإن مات فإنه سيلج بعد موته حياة جديدة.

إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ^(١). فالله تعالى يقول له ﷺ: أنت لست الأبتَر، بل إن الأبتَر هو عدوك، وإن الله تعالى حينما حرمك من الأولاد فإنه من جانب آخر جعل ذريّتك عن طريق ابنتك فاطمة الزهراء عليها السلام. ولذا كان ﷺ يقول: «الحسن والحسين ولداي»^(٢)، ويقول «أحبّ الله من أحبّ حسيناً»^(٣)، ويقول: «كلّ بني أمّ ينتمون إلى عصبتهم إلاّ بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»^(٤)؛ حيث إنه ﷺ كان يرى فيها امتداده الطبيعي. وهذا هو السبب الذي من أجله كان الصحابة والتابعون وغيرهم من المسلمين ينادونها بعبارة «ابن رسول الله».

فالإنسان يرغب بأن يترك خلفه من يحيي ذكره ويمدّد وجوده في الدنيا قبل أن يموت، فإذا كانت المرأة غير قادرة على الإنجاب فإن الرجل سيكون

(١) الكوثر: ١ - ٣.

(٢) تحفة الأحوذى ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٣) الأدب المفرد: ٨٥، مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجه ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ١٠٣، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٣٦ / ٨٤٨٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٧٧.

(٤) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلاّ جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلاّ ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

مضطراً إلى الزواج من أخرى؛ كي يوجد ذلك الامتداد له من بعده.

السبب الرابع: العامل الطبيعي

وهو ناشئ من كون عدد الذكور أقل من عدد الإناث؛ وذلك بسبب الحروب الطاحنة التي أكلت الأخضر واليابس على مرّ التاريخ. فمعلوم أن الرجال هم وقود هذه الحروب؛ إذ أن الرجل هو الذي كان يجتد في الحروب، وحتى في الجيوش الحديثة التي تجتد المرأة فإنها لا تعطى مهام قتالية أو أعمالاً حربية مباشرة، بل كل ما تُعطاه هو أعمال ثانوية بعيدة عن القتال غالباً، كالأعمال الإدارية أو التعبوية، أما مباشرة الحرب والقتال فلا، بل توكل هذه المهمة كما قلنا للرجل. ولذلك فإن عدد القتلى يكون في الرجال أكبر؛ مما يؤدي إلى تضخم في أعداد النساء. وهذا الأمر غير مختصّ بمكان ما أو زمان ما، فقد كانت الدنيا وما زالت قائمة على الحروب الطاحنة والمنازعات والمخاصمات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الله عزّ وجلّ أعطى المرأة مناعة ضد الأمراض أضعاف ما أعطى الرجل؛ لأن المرأة تمرّ بمشاكل كثيرة - وإن كان الرجل كذلك - من قبيل الحمل والنفاس وتربية الطفل وشؤون البيت؛ فهي أكثر عرضة لأسباب المرض من الرجل، ولذا أعطاه الله تعالى خواصّ جسدية ونفسية لتحمل المرض ومقاومته والمناعة ضده.

ومن الخواصّ الجسدية وجود طبقة شحميّة تحت الجلد تحميها وتمنع عنها عوارض الحرّ والبرد، ومن الخواصّ النفسية زيادة كمية الحنان والحب للطفل الرضيع، وهو أثر لهرمون كيمياوي يسمى هرمون الأمومة الذي يجعل منها كائناً ثرياً بهذه المشاعر والأحاسيس، وهو ما ليس موجوداً عند الرجل

الذي يتعرّض للأمراض بحكم عمله مما جعله عرضة للموت .

علاج حالات نقص الذكور

وبهذا يكون عدد الرجال أقل من عدد النساء ، ويمكن تلافي هذه الظاهرة وتحقيق التوازن فيه بأحد طريقتين :

الطريق الأول: الزواج غير المشروع

وهو الطريق المعتمد عند الغالبية في أوروپا وغيرها ، وذلك أن يتّخذ الرجل أكثر من خليفة ؛ فيكثر النسل ، لكنه يبقى نسلأ غير شرعي .

الطريق الثاني: الزواج المشروع

وهو نظام تعدّد الزوجات الذي أقرّه الإسلام ، لأنه يريد أن يخلق جيلاً نظيف المشاعر ، ذا حياة نقيّة طاهرة بعيدة عن العلاقات الإباحيّة في الجنس ، وبعيدة عن العهر والفجور . فقضية إباحة التعدّد قضيّة يهدف الإسلام من ورائها إلى وضع حلول مناسبة لمسألة خطرة تواجهها البشرية جمعاء ؛ سواء كانت هذه المسألة متعلّقة بإيجاد معادلة بين الذكور والإناث أو بإشباع الغريزة البشريّة إشباعاً مشروعاً .

السبب الخامس: عامل الفقر

وهذا العامل وإن كان داخلاً ضمن العامل الاقتصادي لكنه الآن يتعلّق بالمرأة وليس بالرجل ؛ فبعض النساء فقيرات لا يملكن شيئاً ، ولا يتمكنّ من العيش بالشكل الذي يردنه ؛ وهذا يضطرهنّ إلى القبول بالزواج من رجل متزوّج كي يسدّدن هذه الحاجة المعيشيّة ، ويعدن عن أنفسهن شبح العوز الذي قد يفقدن كرامتهن بسببه ، وذلك فيما إذا وقعن تحت برائته . وهذا ما يحدث بالفعل ، فقد وقع الكثير من النساء في هوّة الانحراف والفجور ، لا

لحبّ في الانحراف والفجور لذاتهما، بل للهروب من واقع اجتماعي أو اقتصادي؛ فهنّ مضطرات إلى ذلك.

لكن هذا لا يصحّ الوسيلة، ولا يبرّر الخطيئة؛ فالنتيجة واحدة، وهي الوقوع في الحرام الذي لا يمكن أن يعدّ أي أمر - مهما بلغ - مسوّغاً للوقوع فيه. فهو معصية مهما كانت الأسباب؛ لأنه طريق إلى هدم عفاف الأسرة والمجتمع وتضييعهما. فالطريق الشرعي إذن هو الطريق الوحيد الذي يحفظ كلّ ذلك للأسرة وللمجتمع؛ فالأولاد معترف بهم، وكرامة المرأة محفوظة. نعم، قد تتعرّض بذلك لبعض المضايقات، لكن ذلك أهون الشرّين؛ إذ أن هذه الحلول لا بدّ منها.

إذن لابد للطريق الصحيح والعلاج المشروع من العقود في قضايا النكاح.

شروط التعدد ومسوّغاته

ونرجع إلى موضوعنا فنقول: ذكرنا أن هناك أحكاماً مفتوحة يترك تقديرها إلى المكلف نفسه، فمثلاً حينما يسلط الله مكلفاً على ملكيّته الخاصّة فهذا لا يعني أن تسليطه هذا يصل حدّ الانحراف في الإنفاق، فيسرف فيه بالشكل الذي يستنكره العرف ولا يقرّه الشرع. وكذلك الأمور الأخرى التي ترك الله سبحانه وتعالى لنا فيها مساحة مفتوحة.

وعلاقة هذا بموضوعنا أنه تعالى حينما أباح مسألة تعدّد الزوجات، وأعطى الإنسان الحقّ في ذلك فإنه قنّنه وربطه بأسبابه الداعية إليه، فإذا كانت الزوجة جميلة ومخلصة وولودة فما الداعي لأن يبحث الرجل عن أخرى؟ لكن الذي يحصل في مجتمعاتنا أن الرجل بمجرد أن يملك زيادة من المال يسارع إلى الزواج من ثانية وثالثة ورابعة، متذرّعاً بأن الله تعالى قد أباح له هذا الأمر.

أسباب حظر التعدد

السبب الأول: التمكن من الإعالة والتربية

والذي أودّ أن أثبتّه هنا هو صحيح أن الله تعالى قد أباح التعدّد، لكن يجب على الرجل أن يفكّر قبل الإقدام على الولوج في هذا المباح، ويسأل نفسه: هل أستطيع تربية الأطفال الذين سيولدون لي من هؤلاء الزوجات، وأوفرّ لهم الجوّ الروحي والتربوي؟ وهل أستطيع إعالتهم وتوفير المناخ الاقتصادي لهم بحيث إنهم لا يذوقون العوز، ولا تلسعهم شوكتة فينحرفون عن الطريق؟ وهل سينسجم هؤلاء الأبناء.. أبناء العلات مع بعضهم بعد نضجهم واصطدامهم بالحياة؟

كل هذا يجب على الرجل أن يراعيه وينظر إليه بمنظار الواقع قبل أن يقدم عليه؛ لأنه بذلك سيحافظ على سلامة أسرته من التفكّك، أما إذا لم يراعه فإنه إنما يدفع بأسرته نحو التفكّك، ويعجّل بها نحو الانهيار. وأروي لك هنا حادثة أريد من ورائها الإيقاع بين محمد بن الحنفية عليه السلام والحسين عليه السلام، ذلك أن بعض ذوي النفوس الضعيفة جاؤوا إلى محمد وقالوا له: لماذا يقدّمك أبوك إلى الحرب ويمنع الحسن والحسين عن أن يقتحماها؟ فقال عليه السلام: الحسنان عينا أبي وأنا يده، والإنسان يذبّ بيده عن عينيه^(١).

وهذا أنموذج ريادي يجب أن يحذو حذوه كلّ الأبناء، وهو ما على الرجل أن يفكّر به قبل إقدامه على الزواج ثانية؛ من حيث تآلف أبنائه وعدم تآلفهم بعد ذلك. وهذا الأمر ليس متعلّقاً بطبيعة الأولاد فقط، بل إن له تعلّقاً بتربية الآباء وإحسانهم تلك التربية، فهل يستطيع هذا الأب أن يخصّص وقتاً

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

لرعاية أبنائه بعد أن أضاف عبئاً جديداً على نفسه بالزواج والأولاد، وهو ما سيضطره إلى العمل أكثر، وقضاء وقت أطول وأكبر خارج البيت؟ مع العلم أن الوقت يجب أن يكون أكبر مما كان عليه قبل زواجه الثاني أو الثالث لزيادة عدد الأولاد. فإن كان ذلك بالمقدور فلا بأس، وإلا فلا.

إذن فإن الله تعالى حينما أباح لنا التعدد فإنما أباحه وفق شرائط معينة.

السبب الثاني: عدم العدل بين النساء

فَاللَّهُ تَعَالَى حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فإنما يعني المودة لا النفقة وغير ذلك من الأمور المادية. فالإنسان بطبعه يميل إلى الجمال، وحثماً سيميل إلى الزوجة الثانية الجميلة. ثم إن علاقة الرجل بالمرأة تكون على نحوين: مادية ومعنوية؛ فالعلائق المادية هي أن يوفر لها السكن والملبس والمأكل، والعلائق المعنوية هي أن يحبها ويحترمها ولا يعرضها إلى كراهة. وهذا مما يدخل في آية العدل بين النساء. أما المودة فهي مما لا يمكن أن يقع فيه العدل؛ لأن هذا خارج عن إرادة الإنسان؛ إذ أن إحداهن قد تكون متميزة بالجمال أو الأخلاق، وغيرها من الفوارق التي تجعله يميل إليها أكثر من غيرها. فهذا مما لا ضير فيه وإن لم يعدل، أما النفقة فلا بد من العدل فيها، فإن عدل فيها ونعمت، وإلا فلا يتزوج، وهو معنى قول الرسول الأكرم ﷺ: «اللهم هذا ما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»^(١) من الميول النفسية والقلبية، أما في النفقة فكان ﷺ مثال العدل، ولذلك كان حبّ خديجة ؓ قد استأثر بقلبه، حتى بعد وفاتها، فكان

(١) مسند ابن راهويه ٢: ٢٣، صحيح ابن حبان ١٠: ٥، فتح القدير ١: ٥٢١، الديباج على

(صلوات الله وسلامه عليه وآله) إذا ذكرها اهتزّ من قرن إلى قدم.
ومما ينقل في هذا المجال أن إحدى نساءه عليه السلام قالت له: ما هي إلا امرأة
عجوز حمراء الشدين، وقد أبدلك الله خيراً منها. فقال عليه السلام: «كلا، ما أبدلني
الله بخير منها؛ إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس،
ورزقني الله منها ولداً إذ حرمني من أولاد سائر النساء. وقد هبط علي جبرئيل
وقال لي: بشرها بأن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»^(١).
تقول عائشة: كان النبي عليه السلام لا يذهب لإحدى زوجاته في ليلتها حتى
يستأذنها فإذا أذنت له ذهب، وإلا فلا.

وكان عليه السلام حتى في أيام مرضه يطبق العدل بين نساءه، فكان ينقل على
محفة المرض كل ليلة إلى غرفة من غرف أزواجه التي لها الحق ليلتها تلك.

السبب الثالث: القدرة على الوطء

وهو أمر هام في حياة المرأة، فقد يكون عند الرجل قدرة مالية لكنه لا
يملك القدرة الجسدية على إشباع غريزة المرأة، وهذا يجب عليه ألا يتزوج
من أخرى مادام كذلك؛ ولذلك كان الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من جمع من
النساء ما لا يسع فزنين، فالإثم عليه»^(٢)؛ لأنه لم يستطع أن يلبي حاجاتهن،
وهن كما يجنحن إلى إشباع غريزة الجوع فكذلك يجنحن إلى إشباع غريزة
المضاجعة. فإن لم تجد قدرة عند زوجها على إشباع هذه الرغبة، فربما
تضطر إلى الخطيئة، وهنا يكون هذا الزوج العاجز هو الجاني والآثم حسب
التعبير المعصومي.

(١) الذرية الطاهرة النبوية (الدولابي): ٣٢، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، كنز العمال ١٢:

١٣٢ / ٣٤٣٤٨ - ٣٤٣٤٩، البداية والنهاية ٣: ١٥٨.

(٢) الكافي ٥: ٥٦٦ / ٤٢، دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠٠.

فكيف إذن بالمتوكل الذي كان عنده أربعة آلاف سُريّة ويسمى محيي السنة ومميت البدعة^(١)؟

ملاك الزواج الدائم

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام»^(٢). ونحن ليس عندنا نظرية تقول بجواز الزواج من أكثر من أربع نساء جمعاً، لكنه عند غيرنا كذلك. وقد تطرّقت لهذا الأمر مفصّلاً في كتاب (فقه الجنس)^(٣).

وقد بلغ الحد عند بعض من غيرنا أن أجاز الزواج من النساء بلا حدٍّ^(٤).

(١) ورد ذلك في أرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦، وسائل الشيعة ٢٠: ٥١٨ / ٢٦٢٣٩.

(٣) فقه الجنس: ٨١ - ٩٥.

(٤) قاله المفسّر النيسابوري في تفسير قوله تعالى: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»، فقد قال: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوُّج بأي عدد أريد؛ لأن قوله: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» إطلاق في جميع الأعداد، لصحة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: «مثنى وثلاث ورباع» لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقاً، فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع.

وأما السنة فلمّا ثبت بالتواتر أنه عليه السلام مات عن تسع، وقد أمرنا باتّباعه في قوله: «فاتّبِعوه»^(١)، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قال عليه السلام: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.

(١) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهنا حول القرآن الكريم.

وعند بعضٍ أنه يجوز من تسع ، وعند بعض آخر منهم أنه يجوز الزواج من ثمانى عشرة امرأة^(١). ثم يأتي بعضهم ويرمينا به ، فهم على حالهم وعاداتهم : رمتني بدائها وانسلت^(٢).

إذن فالله تعالى يقول : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَضْتُمْ﴾ ، أي كما يقول الفقهاء والمفسرون : ليس لكم حق المساواة^(٣) ؛ وذلك أن العدل كما يعرفونه وكما يعرفه فقهاء القانون هو وضع الشيء في موضعه^(٤) ، والمساواة ليست كذلك دائماً ، أي أن المساواة في كل شيء لا تحقق العدل بل إنها تحقق الظلم في بعض الموارد . فلو ساوينا بين الذكي والغبي فإننا نكون قد ظلمنا الذكي وقلبنا الموازين .

وقد يقول قائل : إن بعض المسلمين عندهم هذا النوع من المساواة غير العادلة ، فمثلاً هم يقولون عن الصحابة وتابعيهم كلهم : (رضي الله عنهم أجمعين) ، فيقصدون المغيرة وغيره من النماذج التي على شاكلته ، ويقصدون أيضاً الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان .

ونقول : هذه مقاييس فاسدة ولا يمكن أن تقبل بها ؛ لذلك فإن الله تعالى أعطى كل فرد ما يستحق من قدره ، فلا بد من الرجوع إلى المعاملة الفردية ؛

(١) انظر : تبين الحقائق ٢ : ١١٢ ، رمز الحقائق ١ : ١٤٣ ، نيل الأوطار ٦ : ٢٨٩ ، المجموع شرح المذهب ١٢ : ٩ ، ١٦ : ٢٤٤ ، غرائب القرآن ٤ : ١٧٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٥ : ١٧ ، وقد مرّ ما في هذا الهامش والهامش الذي قبله مفصلاً في ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠ / الهامش : ٣ ، من كتابنا هذا .

(٢) مثل يضرب لمن يعيب غيره بعيب فيه هو . الصحاح ٥ : ١٧٣١ - سل ، لسان العرب ٤ : ٤١ - بحر ، ١١ : ٣٣٨ - سئل . (٣) زبدة البيان : ٥٣٧ ، البحر الرائق ٣ : ٣٧٩ .

(٤) انظر : العدة في أصول الفقه ١ : ٣١ (حجري) ، التبيان في تفسير القرآن ١ : ١٥٨ ، مجمع البيان ١ : ١٦٦ ، الرسالة (الشافعي) : ٢٥ ، شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٨٥ .

لأنها هي التي تحقق العدل الذي هو وضع الشيء موضعه كما قلنا. يقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾^(١)، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾^(٢)، يقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣). فكل هذه مقاييس وضعها الله لنا، ويجب ألا نتخطأها في تعاملاتنا؛ فتختلط الأوراق.

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإنما يعني أنه ليس لكم حق المساواة، فإذا كان للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة فليس للمرأة ذلك بحجة المطالبة بالمساواة؛ لاقتضاء ذلك آثاراً فاسدة من ضياع نسب الولد وبالتالي ضياع الأسرة من حيث إنه لم يُعرف له حينها والد معيّن.

اختيار الزوجة

ثم إن من العدل ملاحظة الرجل عائلة المرأة التي سيتزوجها، ومعرفة نمط حياتها الذي كانت عليه، فإذا كانت تعيش نمطاً من الحياة مرفهاً وحياتها ذات مستوى رفيع فهل يصح أن تضعها في المستوى نفسه الذي تضع به الزوجة الأولى التي كانت تعيش مستوى حياة أدنى من الزوجة الثانية؟ طبعاً لا؛ فالفقهاء يقولون: إن هذا ليس عدلاً، بل العدل هو المفاضلة هنا وذلك بإعطاء كل امرأة ما يكفيها من حيث تناسبه مع حالتها المعيشية التي كانت قد اعتادت عليها.

(٢) فاطر: ١٩، غافر: ٥٨.

(١) الحشر: ٢٠.

(٣) القلم: ٣٥ - ٣٦.

بل وحتى في المهر، فإذا تزوج من امرأة ولم يعين لها مهراً كان لها مهر المثل كما يقول الفقهاء^(١)، أي تأخذ المهر الذي تأخذه عادة بنات طبقتها. وهذا هو الصحيح، وهو تشريع ليس فيه أي تفرقة، بل فيه مراعاة للحق الذي هو حال المرأة قبل الزواج.

دعوى التناقض في قضية العدل في القرآن

وقد حاول البعض ممن لا خبرة له ولا علم أن يثبت وجود تناقض بين آيات القرآن الكريم، ومن ذلك ما ادّعوه في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(٣).

والجواب: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن متعلق العدل مختلف، فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فخذ من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدد جور وظلم فلا. أمّا في الآية الأخرى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فذلك في المودة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيها؛ إذ لا بدّ أن تكون لإحداهن ميزة تفضلها على الأخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن مطلق الميل النفسي - أي حتى مع عدم البرر - يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

(١) انظر: رسائل المرتضى ١: ٢٣١، المراسم العلوية: ١٥٤، النهاية (الطوسي): ٤٧٠، فتح العزيز ٨: ٢٨٢، المجموع شرح المذهب ٩: ٢٩١، وغيرها.

(٢) النساء: ١٢٩.

(٣) النساء: ٣، مع أن تمام الآية - وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ - يؤكد الآية السابقة.

فالقُرآن الكريم يريد أن يجرَّ أيدينا إلى الواقع وأن يبين لنا أن الرغبات النفسية مما لا يمكن التحكم فيه، فلا تناقض في الأمر؛ لأن متعلّق العدل هنا هو المودّة، ومتعلّقه هناك هو المال.

الافتراءات على الشيعة

جاء في سؤال من أحد الناس يقول فيه: أنتم الشيعة عندكم أن المرأة لا تراث، فكيف تطالبون بميراث الزهراء؟
والجواب على هذا التساؤل يكون من جهتين:

الجهة الأولى: حول فرية الميراث

وهذا من غرائب الأمور، وافتراء على طائفة بحالها؛ ذلك أنه من قال: إن المرأة عندنا لا تراث؟ أما الزوجة فترث من كل شيء عدا الأرض، فترث من البناء والأوتاد وغيرها. وإنما منعت الميراث من الأرض؛ لأن مسألة الأرض مسألة حسّاسة جدّاً؛ فهي وسيلة الإنتاج الأولى عند أغلب المجتمعات، فالذي يملك قطعة أرض لا يمكن له أن ينساها؛ ولذلك عندما سئل الإمام عليه السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقبة الأرض؟ قال عليه السلام: «لئلا يتزوَّجن فتدخل^(١) عليهم من يفسد موارثهم»^(٢).

فإذا توفي الرجل وبقيت زوجته بعده وورثته، ثم تزوّجت بآخر، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بآرث أو بكونها ملك زوجته، وهو أجنبي عن أبناء زوجها الأول صاحب الأرض؛ فمن الممكن جدّاً حينها أن تحدث بينهم الكثير من المنازعات.

وقد يسأل سائل فيقول: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستزوَّج

(٢) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

(١) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن.

وتذهب الأرض ، فلم لم تُحرم كالزوجة ؟

فنقول له: إن المسألة هنا تختلف ؛ فإنّ البنت من صليبي ؛ فهي بالتالي دمي ولحمي ، ولذا فإنه حينما كتب محمد بن سنان جملة مسائل للإمام الرضا عليه السلام حول هذا كتب عليه له : «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئا إلا قيمة الطوب والنقض ؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه ، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه من العصمة ، ويجوز تغييرها وتبديلها ، وليس الولد والوالد كذلك ؛ لأنه لا يمكن التفضي بينهما ، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما ، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام»^(١).

فالمشرّع الإسلامي عندما منع ميراث الزوجة من الأرض فإنما منعها حتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل ، ومن جملتها أن العلاقات تتعقد بين المجتمع ، والله يريد أن تكون علاقات منسجمة وطبيعية ، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظم العلاقات ويعطيها الحق الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات .

أما البنت فترث من كل شيء وفق ضابطة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٢) . فلماذا هذا الافتراء على طائفة بأكملها ؟ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾^(٣) .

الجهة الثانية: دعوى الزهراء عليها السلام

ونحن نقول بهذا الصدد: إن نظرية فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) لا تعدو نظرية القرآن الكريم في شأن الميراث ، فهي عليها السلام جاءت لتطالب بميراثها من

(١) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩ . (٢) النساء: ١١ .

(٣) الزمر: ٦٠ .

أيها رسول الله ﷺ، وكان رفض الخليفة الأول مبنياً على رواية مؤداها أن الأنبياء لا يورثون إلا العلم، وهذا صحيح لكن إذا عرفنا أن من سمات الأنبياء ﷺ أنهم لا يملكون إلا القليل لعرفنا هذا، فنحن نعلم أنهم ﷺ غالباً لا يملكون شيئاً سوى علمهم، غير أنه إذا وجد القليل من المتاع كان داخلاً في الميراث العام. هذا بناء على صحة رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(١)، فهذا الإشكال بهذا الحديث هو عين إشكال من يشكل على القرآن بوقوع التناقض فيه بين قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةٌ﴾^(٢)؛ فكما اختلف المتعلق هنا - وهو الميل في الآية الأولى، والنفقة في الآية الثانية - فكذلك اختلف المتعلق هناك.

المبحث الرابع: معنى ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾، ومعنى هذا أن الرجل حتى لو كره المرأة وتزوج عليها فإن المفروض به أن دينه يجب أن يمنعه من أن يعاملها بشكل غير لائق، بل يحتم عليه أن يحترمها ويعاملها بالحسنى^(٣). فالمرأة التي تقع بينها وبين زوجها نفرة وحاجز نفسي يمنعها من الحياة الزوجية بشكل طبيعي معه فإن على زوجها أن يقرر أحد أمرين: إما أن يسرحها سراحاً حسناً، أو أن يعاملها بالحسنى والنبيل؛ فلا يتركها معلقة؛

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير.

المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨:

٣، ٥، وغيرها (٢) النساء: ٣.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد

٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨. والفرك: البغض والكره. صحيح مسلم بشرح النووي ١٠:

٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ - فرك.

ذلك أن قانون النبل يقتضي المساواة ما بين النساء .

وقد كان الساسانيون يعدّون ، فإذا أحبّ أحدهم إحدى نسائه اعترف بها زوجة رسمية وترك الباقيات بمصافّ الخدم ، يعاملن كجوارٍ ، أما الأولاد فيعترف بالذكور ولا يعترف بالإناث . فالكثير من حضارات العالم القديم والكثير من الشعوب القديمة والحديثة تظلم المرأة وتعاملها معاملة الرق ، في حين أن الإسلام كرم المرأة ؛ لأنها أدعى إلى العطف والمودة . وقد أكّد الرسول ﷺ على ذلك بقوله : « من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله ، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج ، وليبدأ بالإناث قبل الذكور »^(١) .

لأن الأنثى في مجتمعنا ومجتمعات أخرى مظلومة دائماً ، ولا تأخذ حقّها من العطف والمودة ، بل ينزلون بها عن مستوى الذكر . فالرسول ﷺ يأمر بهذا ؛ لكي ينشأ عندها شعور بأنها غير مزدراة ، وأنها ذات قيمة ، ولها مكانة في قلب أبيها ومجتمعها ، وإلا فإن معاملة المرأة بالشكل الذي عليه البعض هو الذي يولّد عندها الشعور بأنها مخلوق مزدري وغير محترم .

وعليه فالواجب مراعاة حقّ المرأة كما قرّر الإسلام ، وألا ينصاع الأب للبواعث الاجتماعية المحيطة به وتقاليد الموروث الاجتماعي فيزدري ابنته ، مع أن قلبه يحمل لها حبّاً أكبر وأكثر ، ولا يترك مجالاً لتلك البواعث والموروثات الاجتماعية أن تحول دون إظهاره حبّه لابنته ، أو تغلبه فيتخلّى

(١) ثواب الأعمال : ٢٠١ . وهكذا فإنه ﷺ أراد أن يُحدِث التوازن في ذلك المجتمع ويُعدّله في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً ، وهذا ما صرّح به شاعرهم حيث يقول :

إذا المرئيّ شبّ له بنات عصبن برأسه إية وعارا

العين ٨ : ٤٢٠ - أبو ، الصحاح ١ : ٢٣٠ - وأب ، والمرئي في الأصل : امرئي ، نسبة إلى امرئ القيس ، ثم قالوا مرئي ، فكانهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً . والإية : الخزي .

عن العطف عليها .

ولناخذ أنموذجاً حياً على هذا وهو أمر فاطمة «العليلة» بنت الإمام الحسين عليه السلام ، فقد رسم لنا التاريخ من مصيبتها صوراً تبعث على الأسى واللوعة ، فعندما أراد الحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة كانت هذه الصبية عليلة ، فتمسكت بشباب أبيها عليه السلام وقالت له : أبا عبد الله خذني معكم . فقال عليه السلام لها : «بنية أنت عليلة لا طاقة بك على الحركة» .

يقول المؤرخون : فحملت الطفل الرضيع عبد الله وجاءت به إلى أبيها وقالت له : أبي ، دع لي هذا الطفل الرضيع لأسلو به بعدكم . فقال عليه السلام : «بنية إنه صغير ولا يستغني عن ثدي أمه» . ثم سلاها وودّعها وتركها في بيت أم سلمة (رضي الله عنها) . فبقيت تنتظر وتتسمّع الأخبار إلى أن جاء النعي ينعي الحسين عليه السلام ، فخرجت من الدار واستوقفته وقالت له : يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى . قالت : بالله عليك أخبرني بالذي جرى . يقول بشر : وبعد أن أخبرتها رجعت صارخة ومولولة ، ودخلت دار أبيها واللوعة تملؤها :

يا دار ناغيني وناغيح چانت بدور وتزهر عليح

والسا غراب البين ناغيح

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا^(١)



المحتويات

٥	١١١) الزهد في حياة علي عليه السلام
٥	المباحث العامة للموضوع
٥	المبحث الأول: سيرة الإمام عليه السلام بين الواقع والمستلزمات
٦	المبحث الثاني: أسباب انتصار الذات عند علي عليه السلام
٦	السبب الأول: أنه عليه السلام تلميذ القرآن
٧	السبب الثاني: أن الاتّخار هدر للطاقات
١١	المبحث الثالث: مشروعية اتّخار الثروة
١٣	المبحث الرابع: حول قضية فذك
١٨	تخصيص القرآن بخبر الواحد
٢٣	١١٢) نهضة الإمام الحسين عليه السلام
٢٣	المباحث العامة للموضوع
٢٣	المبحث الأول: ملامح الخليفة الشرعي
٢٤	المبحث الثاني: أسباب قيام الحسين عليه السلام بنهضته
٢٥	اللمحة الأولى: المخالفة الصريحة للشرعية
٢٥	أولاً: قوله عليه السلام: «رجل أعطي بي فغدر»
٢٥	معنى الخلافة
٣١	ثانياً: قوله عليه السلام: «رجل باع حراً فأكل ثمنه»
٣٢	مصادر الرق
٣٤	حركة الزنج أثر طبيعي لهذه الحالة
٣٧	ثالثاً: قوله عليه السلام: «ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»
٣٨	نظرية الأجور عند الاشتراكيين والرأسماليين

٣٩	نظرية الأجور في الإسلام
٣٩	العمالة في المنظار الأموي
٤٥	﴿١١٣﴾ الآثار الاجتماعية للصلاة
٤٥	مباحث الآية الكريمة
٤٥	المبحث الأول: الصلاة تبني المجتمع الصالح
٤٧	أسرار الصلاة
٤٨	المبحث الثاني: آلية المحافظة على الصلاة
٤٨	الأول: المحافظة على كل خواصها
٤٩	الثاني: أن تكون عن قصد ووعي
٥١	الثالث: إيجاد الجو الطاهر لها
٥٦	المبحث الثالث: المراد من الصلاة الوسطى
٥٦	أولاً: أنها صلاة الظهر
٥٧	ثانياً: أنها صلاة الفجر
٥٨	المبحث الرابع: ماهية القيام في الصلاة
٥٩	المبحث الخامس: في معنى: ﴿قَاتِلِينَ﴾
٥٩	الأول: أنها بمعنى خاشعين
٦٠	الثاني: أنه بمعنى القنوت في الصلاة
٦٢	الثالث: أنه بمعنى مداومين
٦٥	﴿١١٤﴾ ذكر الله تعالى
٦٥	مباحث الآية الكريمة
٦٥	المبحث الأول: معنى الذكر
٦٧	المبحث الثاني: آلية التذكر عند الباري تعالى
٦٨	الأمر الأول: صنع الإنسان الصالح
٦٩	طرق بناء الشخصية
٦٩	الأمر الثاني: وظيفة العقل والضمير في حياة الإنسان
٧٢	المبحث الثالث: معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾
٧٢	الرأي الأول: أنه اذكروني بالرخاء اذكركم بالشدة

٧٥	الرأي الثاني: اذكروني فوق الأرض أذكركم تحت الأرض.....
٧٦	معنى ذكر الله الإنسان تحت التراب
٧٧	الرأي الثالث: أنه اذكروني بالطاعة أذكركم بالرحمة
٧٧	إشكال.....
٧٨	المبحث الرابع: حقيقة الشكر.....
٨٣	❶١٥❷ القصص القرآني والعبرة.....
٨٣	مباحث الآية الكريمة.....
٨٣	المبحث الأول: أسرار التاريخ.....
٨٥	المبحث الثاني: فلسفة القصص.....
٨٧	المبحث الثالث: التفسير التخصصي للقرآن
٨٩	القرآن ولجان التفسير
٨٩	الأولى: ضرورة معرفة دقائق اللغة العربية قبل الإقدام على التفسير
٨٩	السلوك الجمعي.....
٩٠	الثانية: أن القرآن الكريم لابدّ لتفسيره من عمل جماعي.....
٩٢	التفرّد في دراسة الحوادث التاريخية
٩٣	المبحث الرابع: أن القرآن مصدّق لما بين يديه من كتب
٩٥	وسائل المستشرقين للنيل من الإسلام.....
٩٥	قضية الرق.....
٩٦	قضية الشهادة.....
٩٦	قضية الميراث.....
١٠١	المبحث الخامس: الفهم المخطوء لظاهر القرآن.....
١٠٣	المبحث السادس: التخلّق بروح القرآن
١٠٧	❶١٦❷ المسجد الحرام.....
١٠٧	مباحث الآية الكريمة.....
١٠٧	المبحث الأول: ضرورة الارتباط بمهد الدعوة
١٠٨	المبحث الثاني: كيف يعقّ الإنسان إنسانيته
١١٠	المبحث الثالث: معنى الصدّ عن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأقسامه.....

- الأول : منع المسلمين من الوصول إلى البيت الحرام. ١١٠
- الثاني: منعهم المسلمين الأوائل من الالتحاق بالرسول ﷺ ١١٠
- الثالث: الصد عن الإيمان بالمشاعر ١١١
- أقسام التكاليف الشرعية ١١١
- النوع الأول : التكاليف التي فيها مساحة للعقل ١١١
- النوع الثاني: التكاليف التي ليس فيها مساحة للعقل ١١٢
- المبحث الرابع: سبب التسمية ١١٤
- المبحث الخامس: أحكام التملك في البيت الحرام. ١١٧
- الرأي الأول : أن المقصود مكة المكرمة كلها. ١١٧
- الرأي الثاني: أن المقصود به المسجد الحرام فقط وأدلته ١١٧
- الأول: قوله تعالى: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ١١٨
- الثاني: قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من لا؟» ١١٨
- الثالث: شراء عمر داراً للسجن فيها. ١١٨
- منشأ الرأيين. ١١٩
- أمنية. ١٢٢
- المبحث السادس: في معنى الالحاد في الآية. ١٢٣
- الرأي الأول: أنه الشرك. ١٢٣
- الرأي الثاني: أنه دخول مكة بدون إحرام. ١٢٤
- الرأي الثالث: أنه طواف المشركين بمكة عراة. ١٢٤
- الرأي الرابع: أنه الصيد داخل الحرم ١٢٦
- المبحث السابع: دواعي الثورة الحسينية ١٢٧
- ❶ دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا. ١٣١
- مباحث النص الشريف. ١٣١
- المبحث الأول: علاقة النص القرآني مع البيئة التي ينزل فيها ١٣١
- القرآن يوظف معرفة اليهود لإثبات النبوة ١٣٢
- البخاري والإمام الصادق عليه السلام ١٣٤
- شيخ البخاري: الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة عنزة. ١٣٦

رجع	١٣٧
نبل الإسلام مع أهل الكتاب	١٣٨
المبحث الثاني: لماذا لم ينزل القرآن على أعجمي؟	١٤٠
تداعيات حكم النبي سليمان <small>عليه السلام</small> في قضية الزرع	١٤١
رأي العلماء في حكم النبي سليمان <small>عليه السلام</small>	١٤٢
أولاً: رأي الإمامية	١٤٢
ثانياً: رأي الشافعية	١٤٢
ثالثاً: رأي الأحناف	١٤٢
أسباب رفض نبوة الأعجمي	١٤٣
السبب الأول: دافع الأنفة والكبرياء	١٤٣
السبب الثاني: الامتناع بدافع العناد	١٤٩
السبب الثالث: عدم قدرة الأعجمي على إعراب اللغة	١٤٩
نماذج من خواص اللغة	١٤٩
النموذج الأول: مفهوم العدد	١٤٩
النموذج الثاني: أسلوب التوكيد	١٥٠
النصرة والقراءة	١٥٧
باحث الآية الكريمة	١٥٧
مبحث الأول: وشيجة الروح	١٥٧
المبحث الثاني: في ولاية الرسول <small>ﷺ</small> على المؤمنين	١٦١
المضمون الأول: قراءة أبي لهذه الآية	١٦١
المضمون الثاني: موقفنا من القراءة والرواية	١٦١
المضمون الثالث: النبي <small>ﷺ</small> له حق التشريع المالي	١٦٢
مدرك الحكم	١٦٣
المبحث الثالث: سبب نزول الآية الكريمة	١٦٤
المبحث الرابع: معنى الأنفس في الآية	١٦٥
الأول: أنها أنفس ما عند الإنسان	١٦٥
الثاني: أنها مأخوذة من النفس	١٦٦

المبحث الخامس: أمّهات المؤمنين	١٦٦
هل يصح الزواج من زوجة الإمام؟	١٧٠
المبحث السادس: مبدأ التوازن في توزيع الثروة	١٧١
الثالث المقدّس	١٧١
المبحث السابع: ميراث المخالف في العقيدة	١٧٤
الرأي الأول: أنه حق لمطلق الوارث	١٧٥
الرأي الثاني: أنه حق للطبقة الأولى فقط	١٧٥
المبحث الثامن: موقف العباس من الحسين عليه السلام على ضوء الآية	١٧٧
١١٩) صحوة الضمير وتنازع الغرائز	١٨٥
المباحث العامة للموضوع	١٨٥
مقدمة تاريخية	١٨٥
المبحث الأول: تداعيات القصة	١٨٦
الاستنتاج الأول: قرابة ابن سعد من الحسين عليه السلام	١٨٦
الاستنتاج الثاني: أن عدا ابن سعد للحسين عدا غير نزيه	١٨٦
الاستنتاج الثالث: أن عامل القرابة لا دخل له في النصرة والعداوة	١٨٨
المبحث الثاني: ﴿يَخْرُجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾	١٩١
دور المغيرة في قتل الخليفة الثاني	١٩٤
النتيجة	١٩٦
من هما اللذان يضلّان الإنسان؟	١٩٨
الأول: إبليس	١٩٨
الثاني: قابيل	١٩٨
١٢٠) عباد الله الذين اصطفى	٢٠٣
مباحث الآية الكريمة	٢٠٣
المبحث الأول: صفة الصبر ومعناها	٢٠٤
أبعاد الصبر وأقسامه	٢٠٤
الأول: الصبر عن المعصية	٢٠٤
الثاني: الصبر على الطاعة	٢٠٦

الثالث: الصبر على المصيبة.....	٢٠٦
المبحث الثاني: منشأ الصبر والصدق فيه	٢٠٨
الصبر الذي يتكلفه الإنسان	٢٠٩
المبحث الثالث: معنى القنوت	٢١٠
المعنى الأول: السكون والانتقطاع.....	٢١٠
المعنى الثاني: الدوام على الشيء.....	٢١١
عطاء الصلاة	٢١٢
الأول: أنها تخلق الإنسان الصالح وتدفعه إلى فعل الخير	٢١٢
الثاني: أنها تقرب العبد إلى ربه.....	٢١٤
المبحث الرابع: العبادات المالية؛ دوافعها ومبرراتها وآثارها.....	٢١٤
أقسام الإنفاق.....	٢١٦
القسم الأول: الإنفاق بالأموال وأنواعه	٢١٦
النوع الأول: الإنفاق الواجب	٢١٦
النوع الثاني: الإنفاق المستحب	٢١٧
القسم الثاني: الإنفاق بالأمور المعنوية وأنواعه	٢١٧
النوع الأول: الإنفاق بالجاه	٢١٧
النوع الثاني: الإنفاق بالعلم	٢١٧
المبحث الخامس: التهجد والاستغفار.....	٢١٨
المبحث السادس: الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> وعناوين الآية الكريمة.....	٢١٩
العنوان الأول: صفة الصبر.....	٢١٩
العنوان الثاني: صفة الصدق.....	٢٢٠
العنوان الثالث: صفة الإنفاق.....	٢٢١
العنوان الرابع: صفة التهجد والاستغفار.....	٢٢٢
❶ الإنسان ودائرة المسؤولية.....	٢٢٥
مباحث الآية الكريمة.....	٢٢٥
مقدمة في تحديد الهدف العام للآية	٢٢٥
المبحث الأول: في الأشياء التي تلج في الأرض	٢٢٦

٢٢٦	الشيء الأول: الماء
٢٢٧	الشيء الثاني: البذرة
٢٢٩	الشيء الثالث: الإنسان
٢٢٩	شبهة الأكل والمأكول
٢٣٠	المبحث الثاني: تقديم مايلج في الأرض على ما ينزل من السماء
٢٣١	رجع
٢٣٢	المبحث الثالث: في الأشياء التي تخرج من الأرض
٢٣٢	الشيء الأول: النبات
٢٣٢	الشيء الثاني: المعادن والأحجار
٢٣٢	الشيء الثالث: القوارض
٢٣٣	مظاهر ظلم الإنسان أخاه الإنسان
٢٣٤	المبحث الرابع: في الأشياء التي تنزل من السماء
٢٣٤	الشيء الأول: القرآن الكريم
٢٣٤	من مظاهر ظلم الإنسان لكتاب الله تعالى
٢٣٥	الشيء الثاني: المطر
٢٣٦	الشيء الثالث: الرزق
٢٣٨	المبحث الخامس: في الأشياء التي تعرج في السماء
٢٣٨	الشيء الأول: العمل الصالح
٢٣٨	الشيء الثاني: الدعاء والكلم الطيب
٢٤١	﴿١٢٢﴾ من مسائل فقه الأسرة
٢٤١	مباحث الآيات الكريمة
٢٤١	مقدمة في أقسام الابتلاءات الشرعية
٢٤٢	النوع الأول: الابتلاءات الطارئة
٢٤٢	النوع الثاني: الابتلاءات المستمرة
٢٤٢	القسم الأول: الابتلاءات المحددة بزمان ما
٢٤٢	القسم الثاني: الابتلاءات غير المحددة بزمان ما
٢٤٢	المبحث الأول: الطلاق وأقسامه وآثاره

٢٤٥	ذبول الطلاق والمشاكل المترتبة عليه
٢٤٦	المطلقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي
٢٤٦	أقسام المطلقات
٢٤٧	القسم الأول: المطلقة الرجعية
٢٤٧	القسم الثاني: المطلقة البائنة
٢٤٧	أولاً: المرأة غير الحامل
٢٤٧	الرأي الأول: أن لها حق السكن والنفقة
٢٤٧	الرأي الثاني: أنها لا تستحق السكن والنفقة
٢٤٨	الرأي الثالث: أنها تستحق السكن دون النفقة
٢٤٨	ثانياً: المرأة الحامل
٢٥١	مفهوم الإسراف
٢٥٢	المبحث الثاني: المضاربة من وجهة نظر الإسلام
٢٥٢	جهات التضيق
٢٥٢	المبحث الثالث: طلاق الحامل
٢٥٩	❶ الدعاء إلى الله
٢٥٩	مباحث الآية الكريمة
٢٥٩	المبحث الأول: في سبب نزول الآية الكريمة
٢٦١	المبحث الثاني: بعض أهداف ومضامين سبب النزول
٢٦١	الهدف الأول: أن كرامة الإنسان فوق كل شيء
٢٦٢	الهدف الثاني: أن الداعي للإسلام هو الاتجاه إلى الله
٢٦٣	الهدف الثالث: أن الإسلام هو الظاهر
٢٦٤	إيمان أبي طالب ﷺ أمر لا يقبل النقاش
٢٦٦	المبحث الثالث: وجه اختيار الغداة والعشي
٢٦٦	المبحث الرابع: في أن الحساب لله وحده
٢٦٦	المعنى الأول: أنك لست مسؤولاً عن رزقهم
٢٦٨	المعنى الثاني: ألا يحاسبهم على ما في ضمائرهم
٢٦٩	مسألة التقيّة

المبحث الخامس: في أن الناس سواسية	٢٧٢
الدقة في انتفاء اللفظ القرآني	٢٧٢
المبحث السادس: الثورة والمبادئ	٢٧٣
النقطة الأولى: من الذي يقوم بالثورات؟	٢٧٣
النقطة الثانية: الثورة والغنيمة	٢٧٤
النقطة الثالثة: النظر إلى مرحلة ما بعد الثورة	٢٧٤
موقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه من هذه النقاط الثلاث	٢٧٤
﴿١٧٤﴾ المودة في القربى	٢٨١
مباحث الآية الكريمة	٢٨١
المبحث الأول: المراد من «القُرْبَى»	٢٨١
المبحث الثاني: رسالة الحقوق تجسيد للإسلام	٢٨٥
إرشادات من رسالة الحقوق	٢٨٥
المورد الأول: حقّ الأبوين	٢٨٥
المورد الثاني: حقّ الجار	٢٨٧
أقسام العهود	٢٨٨
المبحث الثالث: شذرات من رعايته عليه السلام حقوق جاره	٢٩١
تصدقه عليه السلام بالعنب	٢٩٢
ملاقاته عليه السلام الزهري	٢٩٢
بسطه عليه السلام حمايته على إسماعيل الأموي	٢٩٣
حمايته عليه السلام عائلة مروان في واقعة الحرّة	٢٩٤
﴿١٧٥﴾ وراثة الأرض واستعمارها	٢٩٩
مباحث الآية الكريمة	٢٩٩
المبحث الأول: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة	٢٩٩
أقسام النصّ القرآني	٣٠١
الأول: النصّ	٣٠١
الثاني: الظاهر	٣٠١
المبحث الثاني: المقصود من الأرض	٣٠١

الرأي الأول: أنها الجنة	٣٠٢
بيان	٣٠٦
الرأي الثاني: أنها أرض القدس	٣٠٧
علّة جعل بيت المقدس قبلة	٣٠٧
فرية عبد الله بن سبأ	٣٠٨
الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة	٣١٠
أقسام العوامل البيئية	٣١٠
الأول : العوامل الجامدة (Physical factors)	٣١٠
الثاني: العوامل الحية (Living factors)	٣١٠
العلم ليس للأديان والأبدان فقط!	٣١٣
الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام	٣١٤
التشكيك بقضية المهدي عليه السلام	٣١٦
دليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام	٣١٩
﴿١٢٦﴾ الجوانب التصحيحية في نهضة الحسين عليه السلام	٣٢٣
المباحث العامة للموضوع	٣٢٣
المبحث الأول: استنباط العبر من السنن التاريخية	٣٢٣
الانطباعات التي تركتها واقعة الطف	٣٢٤
الانطباع الأول : أنها أوجدت تياراً ثورياً في الأمة	٣٢٥
الشعور بالإثم ودوافعه	٣٢٥
الدوافع الفكرية، موقف الحسن البصري نموذجاً	٣٢٥
واقعة الطف بصمات إيجابية في تاريخنا	٣٣٤
الانطباع الثاني: أنها إحياء لدستور الله تعالى	٣٣٤
المبحث الثاني: الجناية على العترة عليهم السلام جناية علي القرآن	٣٣٦
المبحث الثالث: الجانب العاطفي في المأساة	٣٣٨
﴿١٢٧﴾ لغة القرآن	٣٤٣
مباحث الآية الكريمة	٣٤٣
المبحث الأول: المستشرقون وشمولية رسالة نبينا وآله وسلم	٣٤٣

الأول: انفتاح اللغات	٣٤٤
الثاني: مشكلة عولمة اللغة	٣٤٤
دعوات تبسيط اللغة العربية	٣٤٤
الثالث: سهولة تبادل المعاني بين اللغات	٣٤٥
الرابع: سهولة اللغة العربية نفسها	٣٤٦
المبحث الثاني: كيفية نشوء اللغة وتطورها	٣٤٦
المبحث الثالث: أداء العبادات والمعاملات بغير العربية	٣٤٧
المبحث الرابع: قبح العقاب بلا بيان	٣٤٩
المبحث الخامس: الجبر ومدارسه عند المسلمين	٣٥٠
الأولى: المدرسة الجبرية الدينية	٣٥١
الثانية: المدرسة الجبرية الميتافيزيقية	٣٥٢
الثالثة: المدرسة الجبرية المنطقية	٣٥٢
الرابعة: المدرسة الجبرية الفلسفية	٣٥٢
الخامسة: المدرسة الجبرية النفسية	٣٥٢
نظرة وتقييم	٣٥٣
المبحث السادس: لمن العزة والمنعة؟	٣٥٦
١٢٨ نظام تعدد الزوجات في الإسلام	٣٦٣
مباحث الآية الكريمة	٣٦٣
المبحث الأول: في أن أحكام الشرع بعضها ثابت وبعضها تتغير	٣٦٣
القسم الأول: الأحكام الثابتة (الفقه غير المتحرك)	٣٦٣
القسم الثاني: الأحكام المتحركة (الفقه المتحرك)	٣٦٤
المبحث الثاني: في أن نظام التعدد ميراث إنساني	٣٦٤
أشكال التعدد عند المجتمعات	٣٦٥
المبحث الثالث: أسباب التعدد وحلول الإسلام له	٣٦٥
السبب الأول: العامل الاقتصادي	٣٦٦
السبب الثاني: العامل الاجتماعي	٣٦٦
مغالطات المستشرقين	٣٦٨

٣٦٨	السبب الثالث: العامل النفسي
٣٦٩	حب الحياة دليل على وجود يوم القيامة
٣٦٩	إنّا أعطيناك الكوثر
٣٧١	السبب الرابع: العامل الطبيعي
٣٧٢	علاج حالات نقص الذكور
٣٧٢	الطريق الأول: الزواج غير المشروع
٣٧٢	الطريق الثاني: الزواج المشروع
٣٧٢	السبب الخامس: عامل الفقر
٣٧٣	شرائط التعدد ومسوغاته
٣٧٤	أسباب حظر التعدد
٣٧٤	السبب الأول: التمكن من الإعالة والتربية
٣٧٥	السبب الثاني: عدم العدل بين النساء
٣٧٦	السبب الثالث: القدرة على الوطاء
٣٧٧	ملاك الزواج الدائم
٣٧٩	اختيار الزوجة
٣٨٠	دعوى التناقض في قضية العدل في القرآن
٣٨١	الافتراءات على الشيعة
٣٨١	الجهة الأولى: حول فرية الميراث
٣٨٢	الجهة الثانية: دعوى الزهراء <small>عليها السلام</small>
٣٨٣	المبحث الرابع: معنى «فَلَا تَمِيلُوا»

